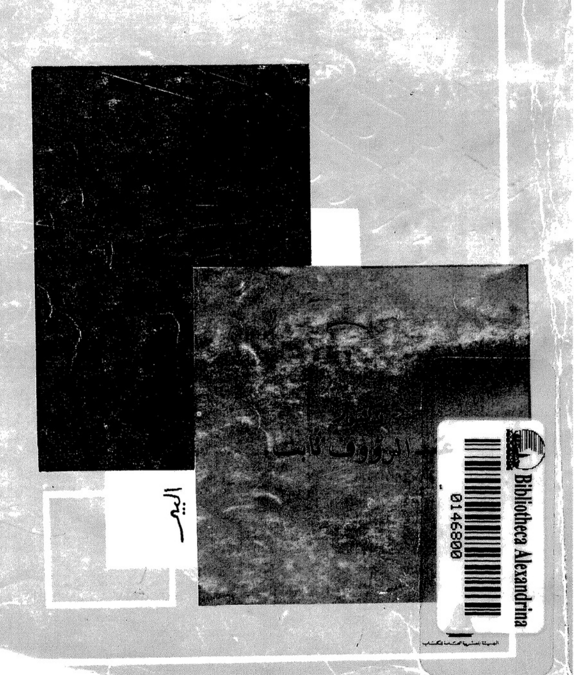
# الطبّ النفسى المبسّط






الهيئة المصرية العامة للكتاب

# الطب النفسي المبسط

## الجزء الثاني

دكتور
عبد الرؤوف ثابت



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٧

الاخراج الفنى وتصميم الغلاف

---

البير جورجى

## اهـداء

الى من رأته يفـكر .. فلم تعترض

المـؤلف

# مقدمة

لم تقم فى خاطرى بعد « أن انتهيت من كتابة الطبعة الثانية لكتاب « الطب النفسى المبسط » فكرة الجزء الثانى · فلما قدمت هذا الكتاب الذى بين يديك الى الناشر ، وكان بعنوان « خواطر طبيب نفسى » ، نصحنى ، لأسباب تخصه ــ أن أعنونه « الطب النفسى المبسط ، الجزء الثانى » وأدركت ما عنى الناشر ، فالكتاب يعتبر امتدادا وشرحا لما ورد فى الكتاب الأول ، ويحمل نفس المضمون : نشر الوعى النفسى بين العامة قبل الخاصة - قال الناشر وما كان لى الا أن أوافقه ، انه سيضيف كلمتى « الجزء الأول » تحت عنوان الكتاب الأول عندما يشرع فى طبع الطبعة الثالثة قريبا ان شاء الله ·

جاء ما يمكن الاشارة اليه الآن ب « الجزء الأول » فى شكل مواضيع علمية ، أما هذا « الجزء الثانى » فيحوى عشر قصص قصيرة ، تعالج كل قصة موضوعا نفسيا ، وخمسة دفاعات عن قضايا اجتماعية · وكل القصص فى هذا الكتاب قصص خيالية، أملاها على خيالى العلمى. فلا يظن أحد أنى قصدته أو أفشيت سره · كما أن « الدفاعات »

لا تعبر عن وجهة نظرى الخاصة بل عن وجهة نظر الطب النفسى ٠

لا داعى أنى أديب يملك لغة الأدب ، فلا تتوقع «ابداع» الأديب ولكن لغة علم من طبيب تعودت آنامله القلم ٠ لذلك أرجو أن تستمتع فى « الجزء الثانى » بالأفكار التى نسج حولها الكلام وتتغاضى عن الأسلوب ٠ كل ما أرجوه منك هو أن تتأمل قليلا فيما كتبت ٠ ثم تنساه ٠ فالغرض هو الالمام بالأفكار الا الانشغال بها ، فعندك الكثير فى هذه الدنيا ما يشغلك ٠ تذكر كلمة أقولها حتى لا تشغل بالك بما ستقرؤه : هنيئا لمن تقبل الناس على علاتهم وغفل عما تكن صدورهم ٠

١٣ شارع ٢٦ يوليو القاهرة د٠ عبد الرؤوف ثابت

# النفس الأخـــرى

جاءتني سيدة فاضلة وشكت لى من حال زوجها .. قالت: لى عام وأنا لا أدرى ما جـرى له . نغص عيشتى وحـيرنى حاله . لم يتغير فى ظاهره ، ولكن فى داخله . شىء فيه تغير ولا أتنبه .

هو زوجى الذى عهـدته من ثلاثين عاما . لكنـه ليس زوجى الذى نعمت به حيـاتى . قريب وفى نفس الـوقت بعيد . حاضر وغائب . لا يبدو عليه مرض أو هم ، ولا شكا من علة . لم يهن نشـاطه أو اضطرب نـومه . لم يهمـل عمله ، بل على العكس زاده اهتماما .

خشيت أن تكون فى حياته امرأة ، ولكنى واثقـة انه لا توجد امرأة غيرى . ثم رجتنى أن أزوره فى بيته لأتبين ما به .

وفى بيته تقابلنا . كنت أسمع عنه ، فهـو مشهور فى مهنته ، وله مكتب معروف بحسن سمعته . حيـاتى فى ود غير متكلف . قال انه يسـمع عنى ويكاد يعـرفنى : أنت الدكتور الكاتب ! شكرته على مجاملته العذبة وبادلته مزاحه

الرقيق : أعالج الناس مجانا ٠٠ وابيع لهم الكلام بفلوس ٠ وضحكنا ٠٠

ثم دخلت في الموضوع وشرحت له السبب من زيارتى ٠ لم يعترض أو أبدى تحرجا من صراحتى ، قال :

ــ أنا مقدر شعور زوجتى ٠ ولكنى أؤكد لك انه لا أساس لمخاوفها ٠

أشفقت عليه لو أكثرت أن أمس مشاعره ، فأمثاله يتحرجون من اظهار عواطفهم ، وخاصة عاطفة الحزن ٠

سألته : **أيكون مكتئبا ؟**

فمتوسطو العمر يصابوا أحيانا بنوع من الاكتئاب لا يحسو به ٠٠ وبالتالى لا يشكون منه ٠ مرض دفين ٠٠ شديد الخفاء ٠ وبعض الأطباء ، جزاهم الله على اجتهادهم، يطلقون على مثله ، « المكتئب المبتسم » ٠

قال : لا أعتقد ٠٠

وابتسم ، ولكن ابتسامته لم ترقى الى عينيه ٠

أقصرت زيارتى على هذا القدر ٠ واستأذنت راجيا منه أن يزورنى اذا شاء ٠

مر شهران ثم فوجئت به فى العيادة ٠

قال ان زوجته تتألم ، ولكن ،

ــ صدقنى انى لست مريضا ولا أشكو من علة أو هم ٠٠ ولست فى حاجة الى علاج ٠

ــ أصدقك ٠٠ « فاذا كان ذلك كذلك » فما حاجتك للعلاج ؟

ضحك لما وجدنى أتكلم بلسان مهنته ٠ قال مسترسلا :

ــ وما هو المطلوب منى اذن ، حتى تتحقق من مرضى ٠٠ هذا ، اذا كنت مريضا حقا ٠

ــ أن تفتح لى قلبك ، وتفصح عما فى نفسك ، ما أمكنك ٠
ــ التحليل النفسى ؟
ــ نعم ٠ .
واتفقنا على العلاج ٠

الجلسة الأولى ٠٠ والثانية ٠٠ والثالثة ٠
قال ملخصا :
غريب أن تعالج الناس بالتحليل النفسى لكى تصل الى سر مرضهم ٠ وكأن الغاية تبرر الوسيلة ٠ والأعجب منه كيف تستعين بمعلوماتك العلاجية ، بذكاء ، على حل رموز ما يعتمل فى نفوسهم ٠ وهو ، العلاج النفسى ، ليس كما يظن البعض خضوع واستسلام . بل هو أسلوب فى الصداقة والحب غير المشروط ليقول المريض لطبيبه أى شىء يخطر على باله دون تردد أو ممانعة أقصد ٠٠ مقاومة ٠
والحب ، كما تقول ، أعلى مراتب الصداقة ٠ وليس أن تتحد الميول وتتوافق الأمزجة ، فغالبا ما يتحاب نقيضان ٠٠ ويتنافر شبيهان ٠
وأنت تعتقد أن فى كل انسان نفسين ٠٠ يعرف عن واحدة ويجهل تماما عن الأخرى ٠ وأن النفس الخفية تحمل خصالا هى عكس صفات النفس الظاهرة ٠ لذلك يحب المرء فى غيره خصال نفسه الأخرى ٠٠ وان أنكرها منه أو اعترض عليها ٠
الجلسة الرابعة ٠
الطبيب : كيف حالك ؟
المريض : المفروض أن أسألك أنا عن حالى !
وضحكنا ٠ .
فى تلك الجلسة عرفنا سر شقائه ، قال :

كان لى صديق ملء الحياة · وأمس ، منذ أكثر من عام، رحل فجأة عن الدنيا ، فأحسست من وقتها والدنيـا فرغت على · كنا صديقين بالمعنى الذى عنيته أنت بالصداقة · لم تتفق مشاربنا أو اتحدت ميولنا ·

جمعتنا طفولة وشباب ، بحكم جيرة وطبقة آباء ، كنـا ونحن صغيران نلعب ونمرح معا ، نؤجر الدراجات ونتعقب الأراجوز فى الحارات · نقلد ونتملق الأولاد الكبار · كنا نسرق الفاكهة من حدائق الجيران فى الصيف ، فيحمينى من غلظة البوابين الأجلاف ·

كان شجاعا وكنت جبانا ·· أخاف من خيالى ·

ذهبنا الى مدرسة واحدة ·· ابتدائى وثانوى · كنت غالبا من أوائل الفصل ، وكان غالبـا من الأواخـر · فلما بلغنا مرحلة المراهقة والشباب ، كنت المتأمل الجاد ، وكان الضاحك اللاهى · كنت قصير النظر ، شديد الحسـاسية ، وكان حاد النظر واسع الصدر · كنت ، كما تقول ، منطويا على نفسى وكان هو منبسطا ودودا · كنت أخجل من البنات وأتحاشاهن ، وكان يغرم بهن فيأنسن له · كان دليلى ، اذا أعوزنى الدليل ، الى ساحات الرياضة وأماكن اللهو ·

وباعدت الجامعة بيننا · اختار كليـة ظريفـة خفيفة واخترت أخرى جـافة مملة · ولم نبتعد وان ظـل يتلمس التسلية والمرح ، وأتلمس القـراءة والجـد · اذا اجتمعنا والشلة ، ذكرت « لامبروزو » وما سلف وما خلف ، وقال هو نكتة أو ملحة أو اشاعة ·

وتخرجنا فى الجامعة فلم يفرق بيننا العمل · بل اتصلت صداقتنا وتعمقت · لم أعرف فى حياتى امرأة غير زوجتى · وكانت فى حياته نساء كثيرات · تزوج من واحدة ، آخـذا بمشورتى ، ثم لم يلبث أن طلقها · غارت عليه من حيـاته ومن الشلة ·

وكنت لا أسعى الى الشلة لأرى الأصحاب الا نادرا . كان ينقل الى أخبارهم واليهم أخبارى . كان كل يوم فى بيت صديق وما أكثر البيوت وأكرمها معه . حتى صار يلمع من البدانة والشياكة وقد اعتاد حياة الترف والأبهة . زين لى شرب الخمر ولم أشربها . حبب لى لعب القمار ولم ألعبه . نصحنى بالحرص على المال وأنا صاحب عيال فلم أحرص على مال . وشرب هو ، وقامر، وجمع مالا وبدده على ملذاته .. ولمن يقتصد ؟

أحب منى مالم أحبه فى نفسى ، وأحببت فيه مالم يحبه فى نفسه .

وكبرنا وتمرسنا بصروف الحياة ، وكبر رصيد صداقتنا وان قل لقاؤنا . كان كل منا يسعى الى الآخر لسويعات قليلة متباعدة ، نختلسها من الزمن بقدر ماتسمح به شواغلنا . ومن العجيب أنا كنا كثيرا مانتخاصم ونتصالح .. ونتخاصم لنتصالح .

كان ينصحنى فلا أعمل بنصيحته وان وددت أن أعمل بها . وأنصحه ليعتدل فى حياته وقد كبر وترهل .. وأصيب بالضغط ومرض السكر ، فكان يحتد على وقد أصبح سريع الغضب ، فيقول :

ــ من عينك وصيا على ؟

وظل هذا حالنا حتى جاءنى خبره . وكنت أترقب زيارته .

وهنا ، بكى المريض كما ــ أنا واثق ــ لم يبك أبدا . ثم قال :

ــ كان مرآة واقعى الذى وددت أن أكونه ، فلما رحل

فقدت نفسى عمقها . الويل لمن مات له عزيز .. وكان نفسه الأخرى .

واستمرت الجلسات . ولكنها لم تطل .

# هى

## ١

كانت ساكنة فى نفسى • تخايلنى فى مرآة عقلى ، لا أتبين صورتها بوضوح • تختفى لفترة قد تطول حتى أكاد أنساها ثم تعود تخـايلنى • تحثنى على البحث عنهـا فى واقعى • صادفنى من وجـدت فهن هى • قليـلات • بهـرتنى • • سحرتنى • فرضت نفسى عليهن • حجدننى • صددننى • • خيبن ظنى •

كانت «لبيبة» أقربهن شبها بها • تقبلتنى على علاتى • رحبت بتقربى منها • ومع ذلك حال الواقع بيننا •

## ٢

عنـد مدخل الشارع الذى تسـكن فيـه لبيبة أوقفت سيارتى • أطفأت نور السيارة فغمرنى ظـلام الشـارع • بعض أضواء باهتة بدت هنا وهناك فى البيوت المتعانقة • تعجبت ماذا يحدث خلف النوافذ المضاءة فى تلك الساعة من الليل والناس نيام • تذكرت حالى ، ان الرغبة لا تنام •

ضايقنى الخوف والحر بداخلى • ضغطت على زر فتح

نافذة السيارة فانزلق زجاجها هابطا الى نهايته محدثا بريره المألوف ، مازلت في حدود ما أملك . صافحت وجهي نسمة هواء باردة ، حملت الى رائحة الشارع وساكنيه .. أولئك الكادحون بلا مقابل .

شق السكون مواء قط شرس ، أعقبـه صراخ طفل ثم سكت . سمعت وقع أقدام ثقيلة تدب وتقترب . نبض قلبى فى صـدرى وعنقى .. قفلت نافذة السيارة فتـلاشى وقع الأقدام فى السكون . انتظرت حتى هدأ قلبى . تشجعت . صممت على زيارتها .

خرجت من السيارة وقفلت بابها بالمفتاح . لا أطمئن عليها فى الشارع الخلفى الشبيه بالزقاق . ماذا يحـدث لو مرت بجانبها شاحنة يريد سائقها ساكن الشارع أن يتركها أمام بيته الى الصباح ؟

رجوت قدماى أن تثبتا . سرت فى اتجـاه بيتها أحاذر لخطوى على رصيف ضيق كأنه معبر القطط . كدت أتعثر فى جناح سيارة مسنودا الى حائط . درت حوله فلمحت كتابة بخط ردىء على باب دكان تقول : سمكرى سيارات . خطوات وواجهتنى سيارة قديمة يجرى دهانها ، غطيت نوافذها بورق الصحف . تعديتها وسرت قليلا فاذا بى أمام بيتها .

عرفت البيت من شباكى البدرون على يمين الباب كان الشباك القريب من الباب مضاء . انها وزوجها ينتظرانى فى حجرة القعاد . وقفت أتأمل أسياخ الحديد المانعة للسطو والشبكة السلك الواقية من تسلل الحيوانات الصغيرة . دخلت ولم يطل تأملى بئر السلم الغارق فى العتمة . زحفت بخطوات قصار وسـاعداى ممدودان أمامى الى أن لامست أطـراف أصابعى الحائط المقابل للباب . لا يردنى شىء عن زيارتها ..

ولا الجب الذى وجدت نفسى غارقا فى عتمته .. ولا رائحة العطن التى أضافت صدرى . أمضى مدفوعا بالتى بداخلى . منجذبا الى قرينتها التى تنتظرنى فى شقتها المتواضعة . لا أبالى بالعواقب .

مددت يدى وخطوت جانبا الى أن لامست باب شقتها . طرقت الباب بطرقات خفيفة وجلة . برهة وفتح نصف الباب الضيق ، تسرب من فتحته ضوء مصفر افترش أرض بئر السلم وأظهر الحائط الغبش بجانبى . رأيت لبيبة فى فتحة الباب وأخذت نفسا عميقا . قالت بصوت خافض لما تبينت وجودى أمامها .

ـ اتفضل يابيه .

تراجعت عن مكانها فى الباب فخطوت الى داخل الصالة ، وقفت بجانبها يحتوينى وجودها . تلاقت عيوننا . مددت يدى وقفلت الباب . شعرت حينئذ أنى أسرق الشارع كله . سلمت فسلمت . سحبت يدها ولم تكد تستقر فى يدى ثم رفعتها الى فمها وقبلتها . تقدمتنى الى حجرة القعاد فتبعتها منتشيا مسلوب الارادة . أتابع مؤخرتها تعلو وتهبط داخل جلبابها الفضفاض . دارت على عقبيها عندما توسطت الحجرة وواجهتنى . وقع نظرى على شعرها الأسود الحرير يلمع مصقولا بضوء مصباح السقف . ذكرنى شعرها بحكاية قلتها لأمى وأنا طفل فى أول عهدى بالمدرسة .

كنت راقدا على أريكة تجلس عليها أمى ساندا رأسى الى فخذها ، وهى تحكى لى حدوتة . كانت عن الشاطر حسن وحبيبته ست الحسن . واذا بأمى توقفت عن السرد وتسألنى :

ـ ماشكل العروس التى تحب أن تتزوجها عندما تصبح رجلا ؟

ـ رجلا مثل أبى ؟

وكأنما أدركت أمى ما ألمحت اليه فأرادت أن تفوت على مجاملتى لها واستدركت ·

ــ لا ، مثل الشاطر حسن ·

أطلق سؤالها خيالى فانتفضت جالسا وأجبتها ·

ــ أريدها سمينة بيضاء ·· وشعرها أسود ·· أسود مثل الزفت ·

كانت أمى سمينة وبيضاء · ضحكت عاليا من سذاجتى وبلاهتى · أما حكاية الشعر الأسود مثل الزفت فكانت له حكاية لم أقلها لأمى ولا لأحد ·

## ٣

شاهدت مرة أثناء عودتى من المدرسة عمالا يرصفون الشارع الممتد بجوارها الى قرب بيتنا كانوا يفرشون القــار المنصهر على الحجر الجيرى الممهد ، ينسكب لامعا براقا بضوء النهار ·

لا أعرف كيف جمع خيالى بين القار السيح وشعر عروس المستقبل · انما هو التخيل الجامح الذى أدركنى منذ طفولتى المبكرة ولازمنى طول حياتى ·

كان شعر لبيبة أسودا لامعا ينسكب من فوق قمة رأسها على صدغيها وجانبى رقبتها الى كتفيها وكانت ترتدى وهى فى بيتها جلبابا من الكستور الأبيض المشــجر ينســاب على صدرها محددا ثدييها المكورين أمامه ، له كرانيش بنهاية الكمين حول معصميها ، وينتهى بكرانيش بطول شبرين الى فوق شبشبها الزحاف ·

شئت مداعبتها ومازلنا واقفين فرحت أفك أزرار فتحة

ردائها واحدا بعد الآخر · وكأنما آدركت متأخرة ما انتويت فعله فرفعت يدا بضة وضمت بها فتحة الرداء · أشارت بيدها الأخرى الى الحائط الفاصل بين الحجرتين وقالت محاذرة ·

ــ سى محمود ·

سقطت يدى بجانبى عندما نبهتنى لبيبة بوجود محمود زوجها فى الحجرة المجاورة · مشت تتثنى وجلست على كنبة ملاصقة للحائط الفاصل بيننا وزوجها · زرت فتحة الرداء وأصلحت من وضعه على كتفيها وصدرها · مسحت بكفها على المكان الخالى من الكنبة اشارة منها للجلوس بجوارها · جلست حيث أشارت بفصل بيننا مخدة عالية · قالت مرحبة :

ــ شرفتنا يا بيه ·

نظرت اليها لأملأ عينى منها · لم آجد ما آجيبها به · تعودت منى النظر بلا كلام ·

قالت تعتذر عن عدم وجود زوجها معنا :

ــ متوعك من العصر · دخل لينام قليلا الى أن تأتى سعادتك ، هل أقوم لأصحيه ؟

كنت مرتاحا لوجودنا وحدنا ·· آجبت بلهجتى الآمرة دون تعمد :

ــ دعيه يرتاح ·· سلامته ·

آحاطتنى بنظرة طويلة ·

قالت عيناها :

افعل ما بدا لك ·

# ٤

كنت أتأمل عينى لبيبة • كانت عينهـا اليمنى أضيق قليلا من اليسرى • وكـان فى اليسرى حـول بسـيط •• لا يلاحظ هـذا الا مدقق • عينـان واسـعتان فى حور • مزججتان بالكحل يعلوهما حاجبان عريضان اتصلا عند منبت الأنف •• وينتهيان بطرفين رفيعين بجانبى زاويتى العينين • عينـان تعبران عن معـان بغير مسـميات • تدعـونى •• تشجعنى •• تنهانى •• تبعدنى •• ترفعنى •• تخفضنى • أحاسيس كثيرة متشابكة لا أتبينها •

كان لى أيام الصبـا صديق أزوره فى بيته أكثر ممـا يزورنى • كان والده محبا للموسيقى والغناء ، وكان عندهم صـالون كبير يجتمع فيه الوالد مع أصـدقائه الموسـيقيين يعزفون ويغنون مرة كل أسبوع • علقت على جدران هـذا الصالون صور لمشاهير المطربين والملحنين ، من بينها صورة كبيرة للمطربة ألمظ زوجة المطرب عبده الحامولى •

لاأدرى حينذاك سبب انبهارى بصورة المطربة ألمظ • كانت عينا ألمظ بحاجبيها العريضين تشد نظرى اليهـا •• أينما كنت من الغـرفة كانت العينـان تلاحقانى بالنظـر معبرة عن أشـياء لا أدركها • لم يتصور صديقى أن عينى ألمظ تتبعـانى أينما تنقلت فى الغرفة • لم تستمر علاقتى بصديقى ولم أر صورة ألمظ تلك بعد انقطاع صلتنا ، ولا أى صورة لألمظ فيما بعد • ولكن صورة عينيها ظلتا مطبوعتان فى مخيلتى الى اليوم •

كانت عينـا لبيبـة وحاجبـاها هى نفس عينى ألمظ وحاجباها مع بعد الزمن بين المرأتين ·

## ٥

لم تدم صلتى بلبيبة سوى بضعة آسابيع · زرتها خلال تلك الفترة فى بيتها أربع مرات · فى زيارتى الثانية دعوت نفسى لأزور قريتها · أردت معرفة اذا كانت لها شبيهة فى مسقط رأسها · رحب الزوجان بما عرضت عليهما ولم يخطر لهما على بال · اتفقنا على أن ينتظرانى صباح يوم جمعة أمام مسجد السلطان · كانت السـاعة الثامنـة صـباحا عندما تحركنا بسيارتى من آمام الجامع ·· محمـود بجـانبى فى بدلته الكاكى ذات الأزرار النحاسـية بينما اقتعدت لبيبـة المقعد الخلفى فى ثوبها الأسود الفلاحى وطرحتها التقليدية · لاحظت أنها زينت عنقها بعقد ذى حبات كبيرة صفراء ·

لاأذكر اسم قريتها الواقعة فى نطاق القناطر الخيرية ولكن رحلة الذهاب لم تستغرق آكثر من ساعة · لم تقم بيننا خلال الرحلة أحاديث ذات آهمية ، قالت لبيبة لأهلها وقد فوجئوا بنا أمام بيتهم وسط القرية :

ـ البيه يريد رؤية بلدنا ·

لم أمض فى حياتى يوما فى قرية · قضيت مع أهلهـا نهارا مسليا أنسانى مشاغل حيـاتى فى القـاهرة · كان المجتمع غريبا على ولم يشعرونى آنى غريب بينهم ، سمعت بعض تعليقـات موارية من الشـباب وكأنهم لا يقصدوننى بها ، كما شاهدت علامات استفهام على الـوجوه المرحبة ·· لا سألونى ولا قلت لهم من أنا ·

صلينا الجمعة فى مسـجد القرية وأخذت بالجـو الدينى المتصوف قرب وداخـل المسـجد • آلمتنى ركبتاى كثيرا من سجودى فى الصـلاة وقعودى • لاحظ القريبون منى تململى ومعالجة فرد وثنى ساقاى فقال أحدهم لجاره وليسمعنى :

ـ أصل البدلة ضيقة عليه •

تناولنا طعام الغـذاء فى شـبه احتفال صغير • نصبت مائدة ملأت القاعة تقريبا أثناء غيابنا فى المسجد • هرولت النساء ووضعن أطباق وصوانى طعام كبيرة وسط المائدة ، لم أجد بينهن على كثرتهن من تشبه لبيبة أو تقاربها شبها • قال كبار الجميع وقد تحفز الجميع للأكل :

ـ اتفضل يا بيه •

لاحظت لبيبة من وقفتهـا فى البـاب ترددى وارتباكى فأسرعت وأمدتنى بملعقة جديدة لامعة •

رائحة الطعـام السـاخن الدسم فتحت شـهيتى وأسالت لعابى • أكثرت من أكل اللحم والفتة حتى اتخمت •

بعد أن فرغنا من الأكل وشربنا الشاى طلبت أن أتمشى على النيل • توقفنا عند مقهى قريب من الشاطىء وجلسـنا أمامه • أشجار النخيل والنباتات تحتها على الشاطىء المقابل نسجت صورة رائعة • لم تتح لى فرصة رؤية ذلك الجمـال الطبيعى والاستمتاع به الا نادرا •

سـؤال ألح على فى تلك اللحظة : من هم الـكادحون بلا مقابل •• أهم شاربو الشاى « الكشرى » الاسود الشديد الحلى ، فى أكواب من الزجاج الأخضر الرخيص ، أم الذين يشربونه خفيفـا ممزوجا باللبن فى فنـاجين من الصـينى الفاخر ؟

كان محمود فى كل هذا ورائى دائما • لم يشأ أن يظهر

فى الصورة التى رسمتها لنفسى مع جماعته ٠ كان منذ بداية تعارفنا يتقبلنى على ما أنا عليه ٠ ماذا قال لأهل لبيبة عنى وهو لا يعلم عنى الا القليل ؟ هل يقول أنى اعترضت طريقهما فى متجر عمر أفندى وفرضت نفسى عليهما ؟ لابد انه حكى عنى أكاذيب ٠

## ٦

عاد ثلاثتنا الى القاهرة مع الغروب ٠ تأملت ونحن فى طريق العودة وجه لبيبة فى مرآة السائق ٠ تعجبت فيما تفكر وقد علت وجهها ابتسامة هى مزيج من الرضا والدعة والحيرة ٠ ماذنبها فى جهلها وفقرها ؟ لا ، ليست جاهلة فقد تعلمت ما يعنيها فى مدرسة بنات بيئتها ومن الحياة كما فرضت عليها ٠٠ ولا هى فقيرة بالنسبة الى احتياجاتها ٠ قلت وقد طال سكوتنا مجاملا محمود أكثر من لبيبة :

ـ والله بلدكم جميلة يا أخ محمود ٠

وكانت فى اجابة محمود سخرية الرجل الغاضب ٠

ـ انها ليست بلدى يا بيه بل بلد الست ٠٠

ثم استطرد فى صوت أكثر ليونة :

ـ بلدنا أكثر تواضعا وتبعد كثيرا عن هنا ٠

قالت لبيبة لتلطف الجو الذى أثاره زوجها :

ـ انشاء الله تكون بلدنا عجبتك يا بيه ، محمود يحبها قوى ٠

أخرجت محفظتى من جيبى الداخلى ودسست كل ما كان

فيها من بنكنوت فى جيب سترة محمود أقنعته أن يقبل الفلوس ، ثمن الرحلة ·· ولا فرق بيننا ·

نزلا من السيارة عند مسجد أبو العلا بعد أن تبادلنا كلمات شكر مقتضبة · أكملت طريقى الى بيتى وحدى وأنا أشعر بالفراغ الذى تركته لبيبة فى نفسى ·

لم أجد زوجتى فى البيت · انتهزتها فرصة وأزلت الطين العالق بحذائى ومسحته بالورنيش · أخذت حماما ساخنا أكثرت فيه الصابون المعطر · ارتديت ملابس البيت ودخلت غرفة المكتب انتقيت كتابا كيفما اتفق وجلست أقرأ كان الكتاب عن دولة المماليك الثانية ·

بعد ساعة جاءت زوجتى · مشت الى فى هدوء ثم انحنت على وقبلتنى فى خدى · سألتنى وهى لا تعلم أين قضيت يومى :

ـ هل قضيت يوما طيبا يا حبيبى ؟

أجبتها وعينى على الكتاب :

ـ كان يوم عطلة وعمل ·

ابتعدت عنى ثم توقفت فى منتصف الغرفة وكأنها تذكرت ·

ـ هل تريد عشاءك الآن ؟

أجبتها بلهجة أشعرتها أن تتركنى وحدى :

ـ فيما بعد ·

تمطت ثم تثائبت بصوت مسموع · رفعت نظرى اليها · بدت لى كعهدى بها رشيقة هيفاء ، جميلة بكل مقاييس الجمال العصرى المتحضر ·· مسرفة فى ترفعها وثقتها بنفسها · قالت وهى تغادر الغرفة :

ـ أما أنا فمتعبة · تصبح على خير ·

تكاد تذوب رقة وعذوبة ·

## ٧

ليت لى براعة الوصف حتى أصف لبيبة كما رأيتهـا . خلقت أتخيل أكثر مما أتكلم . أحس وألهم أكثر مما أفكر . لن أستطيع وصفها كما هى بعين مجـردة مهما حاولت ، لو وصفت الشكل فكيف أصف الروح والطبع ؟ أو السـمات واللفتات والسـكنات ؟ ليس الموضوع : حسن فى كل عين من تهوى .. ويأسرك . وما آسرنى من لبيبة الا الغمـوض الـكامن فى شـخصيتها . وليس الموضـوع أيضا أن الحب أعمى .. فما كان بين لبيبة وبينى حب .

أحب زوجتى لجمالها . وخصـالها وقدرتهـا على اثارة رجولتى ، ولذلك أستطيع وصفها لأن علاقتى بهـا واضحة محددة . أعلم أن الفـرق بين زوجتى ولبيبـة كالفرق بين السـماء والأرض ، وأن علاقتى بلبيبـة لا تتفق والمنطق السليم ، وكنت أومن أن علاقتى بلبيبة ستنسفنى اذا تعرضت للضوء .

الحقيقة أنى لم أدقق فى وصـف لبيبـة أو أتحقق من مكانتها وموقعها عندى أيام كنا معـا مخافة أن أفقد تأثيرها وسحرها على . رضيت بالسحر ولم أفكر فى الواقع ، كنت معها المتلقى دائما . اذا تكلمت أو سكتت قالت لى كل شىء ، هل سكن نفسها شبيهى كما سكنت شبيبتها نفسى ؟ هل تحقق لكلينا خيال ظل محبوسا بداخلنا ؟ لم تقم فى فكـرى حاجة لسـؤال ، أو قلت لهـا عمـا يرعانى بالنسـبة لها ، خفت ألا تفهمنى أو تظن بى الظنون .

في تلك الليلة التى كان محمود فيهـا نائما فى الحجرة المجاورة قلت للبيبة على غير صدق :

ـ أحبك ٠

أجابت مرحبة :

ـ وأنا أيضا ٠

جذبتها نحوى حتى تقابل وجهانا عبر المخدة الفاصلة بيننا ٠ قبلتها وأنا مشتاق الى حبها ٠ توالفت شـفاهنا فى قبلة طويلة محمـومة ٠ فتحت فتحة ردائهـا ودسست يدى لأداعب ثدييها ٠ امتدت أصابعى بين صدرها ومشد ثدييها ٠ ولدهشتى لمست ندبة ملتصقة بالضـلوع بعرض صـدرها الأيسر ٠ قالت ومازلت شفاهنا متلامسة :

ـ عملية قطعوا ثدى ٠

صعقت من هول ما سمعت وابتعدت عنها ٠

ـ متى ؟

ـ من سنة ٠

سألتها متماديا فى فتور :

ـ والثدى الآخر ؟

قالت وهى ترفع الثدى الباقى بيدها وتتحسسه :

ـ مازال موجودا ٠

تراجعت الى مكانى لتفصل بيننا مخدة وسط الكنبة ٠ قالت لما رأت امتقاع وجهى ولتتـأكد مجـددا من شـعورى نحوها :

ـ الآن ، هل تحبنى ؟

لم أجد ما أجيبها به سوى :

ـ أكثر ٠

رانت علينا سحابة كئيبة ٠ لبثت قليـلا ثم اسـأذنت

وخرجت من بيتها كما دخلته لا أعرف ماذا أريد منها • معها على أى حال لم أشعر اننى رجل •

كان خروجى أريح لنفسى من دخولى بيتها • مشيت الى سيارتى بخطوات عجلة ولكنها ثابتة • فتحت بابها وألقيت بنفسى فيها • أدرت المحرك وأضـــأت المصـــابيح ، لمحت على البعد ما يشبه الشاحنة التى تخيلت أنها ستحك سيارتى حين أوقفتها • تراجعت بالسيارة الى الطريق العام ثم انطلقت بها عائدا الى بيتى ، وقد انتصف الليل •

وجدت النور مضاء فى غرفة النوم • كانت زوجتى فى السرير تنتظر عودتى الى أن غلبهـــا النـــوم فغفت • خلعت ملابسى ودفنت نفسى فى حضنها أتلمس الدفأ والتوبة منها ، لفت ساعديها حول عنقى ونمنا ليلتها نوما عميقا الى الضحى •

عندما دخلت الجراج فى اليوم التالى بادرنى الســـائس بقوله :

ـ ماذا حدث لسيارتك البارحة ؟

كان جانب السيارة الأيسر محكوكا مطبقا بطوله •

## ٨

تزوجت من طبقتى زواجا تقليديا • لم يتغير شىء فى حياتى الميسرة الناعمة سوى انى انفصلت عن عائلتى لأكون أسرة جديدة • أذكياء مجربون قادرون أولئك المالكون لقدر الشـــباب • قالوا تزوج ثم يأتى الحب فيما بعد •• الزواج الموفق يصنع الحب • ما هذا الحب الذى يخضع للعقل والمنطق؟ لا يتخطى الفوارق بين الطبقات ؟ لبناته الاعراف والتقاليد؟ أين الحب الذى يتفجر منا من النظرة الأولى ؟ لا يوجب علينا ولا نحسب لعواقبه حساب •

نتزوج لأننا نختار الأوفق المتاح لنا اذا أردنا الزواج • اذا صابت أو خابت قلنا قسمة ونصيب • كنت قد تحققت قبل سن الزواج بوقت طويل أن هناك امرأة معينة الأوصــاف صورتها مطبوعة فى مخيلتى وان لم أتبينها بوضوح • قابلت اثنتين قبل لبيبة واعتقدت أنهما هى التى بداخلى • الأولى كانت طالبة معى وكنت فى مبدأ حياتى الجامعية • احتجت بأنى أفرض نفسى عليها • أسرت لصديق أنها لا تفهمنى وأن ظلى ثقيل على قلبها •

تكررت ذلك الاهتــداء الى من اعتقــدت انها هى بعــد زواجى بثلاث سنوات • كانت مرشدة فى وزارة السياحة ، شــجعتنى ثم ما لبثت أن صــدتنى • أنكرت حبى وأعرضت عنى • قالت لى مالا أعــرفه عن نفسى • تهــربت منى ثــم توعدتنى اذا لم أبتعد عن طريقها •

الى أن قابلت لبيبة • كان لقــاؤنا بجــوار ركن التحف المنزلية فى المتجر الشعبى • تصادف ان كانت وقفتى بجانب بنك المشتريات • ظنتنى أحد الباعة فســألتنى عن مرايات وكانت بمفردها :

ــ أريد مرآة كبيرة أرى فيها نفسى •

الآن أعرف لماذا قالت لترى فيها نفسها •• لم تقــل وجهها • رحت أتبسط معها بالكلام الى أن اطمأنت الى ثم جاء محمود ولم يكن عسير عليه وهو الساعى فى احدى الشركات الكبرى أن يدرك ماتورطت فيه زوجته • قال معتذرا متشرفا بمعرفتى ولم أقل له من أنا :

ــ لا تؤاخذها يا سعادة البيه أصلها شيخة وغشيمة •

ولكنه قبل مع الشــكر والامتنان أن أدفع ثمن المرآة •

لم نتفاهم منذ البداية على نوع العلاقة التى أنشأتها معهما . أدرك كل واحد منا ، على نحو ما ، لو تفاهمنا لانهارت الدنيا على رؤوسنا ، طبيعى أن يأمل محمود فى شيء كبير ولم يطلبه منى ، وهل كان يخطر على باله أن زوجته هى من أبحث عنها ؟ ربما كان فى تصوره ألا يرفض لى رغبة فى حدود المعقول والشرف . ولذلك لم يتبصر أو حسب حسابا للعواقب . لم أجد فى محمود حائلا بين زوجته وبينى .. وكأنه قرر أن يخلى بيننا . وعلى كل فقد كنت كلما زرتها سواء فى وجود محمود أو بدونه أخرج من عندها وقد تهيبتها .

## ٩

لم تختلف آخر زيارتى للبيبة عن سابقاتها ، جلست على الكنبة ولم يكن محمود موجودا فى البيت . قالت لبيبة أن غيبته لن تطول وكان الحرج يجمعنا ، تطلعت الى الستارة الضمور المسدلة على الشباك وأحسست بعيشتهما المتواضعة . فكرت فى انشغالها من حالة الفقر التى أتنفسها فى بيتها ، قلت لنفسى : وماذا عن محمود ؟

نظرت اليها طويلا وهى جالسة بجوارى لأملأ عينى منها . قالت التى بداخلى أنها هى :

قاطعت لبيبة تأملى بقولها :

ــ انت يا بيه عمرك ماشربت حاجة عندنا .

قلت أطيب خاطرها :

ــ لا أريد أن أتعبك .

لم ترد ومصمصت شفتيها ثم دفعت بزاوية فمها جانبا. كانت للبيبة لازمة وهى أن تشد زاوية فمها فى حركة عصبية

مفاجئة اذا أثيرت أو فكرت فى شىء لا يرضيها وكنت أكره وفى نفس الوقت أحب تلك اللازمة منها • علمت من لازمتها أنها غاضبة • سألتهـا لأبدد الـوجوم الذى أحـدثه رفضى لضيافتها :

ــ هل يحبك ؟

أجابت والحيرة تتملكها :

ــ من ؟

ــ محمود زوجك •

قالت بعد أن استوعبت غرابة السؤال ولم تتوقعه :

ــ نعم يحبنى •

واصلت أسأل فى عناد صبيانى :

ــ لماذا اذن يتعمد تركنا وحدنا ؟

نظرت الى طويلا تحاول أن تقرؤنى ثم قالت :

ــ لأنه يعرف انك بيه ، ولا تفعل شيئا يغضب ربنا •

تراجعت من وقع جوابها • أمسكت ساعدى لترضينى ، تحسست قماش كم بدلتى ، ثم تركت يدها تنزلق ببطىء الى أن أمسكت يدى الموضوعة على الكنبة ، ضغطت عليها بقـوة وحنان • ضايقتنى خشونة كفها • سألتها بصوت مبحوح :

ــ ألا يغضبك أنى لا أتصرف معك كرجل ؟

أجابت بلا تردد •

ــ مثلك لا يتنازل ويحب مثلى •

سرت على الدرب أواصل أسئلتى وكأنى طفل شقى :

ــ ألا يكفيك حب محمود ؟

ــ لم يعد يحبنى بعد العملية •

ابتسمت فى أسى • منعنى اضطراب داخـلى أن أجيبها • أمسكت بكتفى وقربت فمهـا من فمى وقبلتنى • أردت أن

أجاوبها لولا أن فزعا شـديدا انتـابنى فى تلك اللحظة .
ارتعشت .. تصورت ان فمها سيتسع ويبتلعنى .

## ١٠

انتهت الجلسة السابقة وأنا أعبر عن فزعى من لبيبة . الواقع أنى انهرت أمام تسلطها على . الآن فقط أدركت أن من بداخلى مسخ صنعتها أوهام . جمعها خيال طفولة من هنـا وهناك فى لحظات متفرقة فتشكلت أبعد ما تكون عن الواقع .

( صمت طويل )

عاد محمود من الخارج ولاحظ ماكنت عليه من اضطراب . جلس على كرسى بجوار باب الحجرة وراح ينقل عينيـه بين زوجته وبينى . تمالكت نفسى وبدأته السلام فلم يرد تحيتى ، ثم سمعته يقول بصوت حاد قاطع .

ــ اتفضل أخرج يا بيه ولا تعد أبدا .

( انتهت الجلسات )

# دفاع عن الحزن

الحزن عاطفة وصفت بأنها نبيلة . ولعل ترتيبه في شرف النبالة يأتى الثانى بعد الألم . يتقبله الناس ويتحملونه ، بل يحن اليه الكثير ، وان شكوا منه . يتلمسه الكثيرون ويتطلبونه بسماع وقراءة ومشاهدة أغان وقصص وروايات حزينة . والسرور ( الفرح ) عاطفة مقابلة للحزن ، يتلمسها ويتطلبها أيضا الناس ويودون دوامها ولا يشكون منها ، ولكنها لم توصف بالنبل .

الحزن (الأسى أو الغم) عاطفة أولية ، أى ليست مركبة أما ( الهم ) ، الحزن مع القلق ، ( والأسف ) الحزن مع الندم والألم ، و (الشجن) الحزن مع الحنين واسترجاع الذكريات، فهذه عواطف مركبة . ولا يصح الخلط بين مرض الاكتئاب والحزن . فالاكتئاب اصطلاح طبى له أعراض متباينة ، منها الحزن ، تغيب عن ادراك المريض به . يقول الأطباء ليس للاكتئاب أسباب معروفة أو محددة . أما الحزن فله مسببات يدركها الانسان الحزين .

يتفاوت الحزن فى الشدة والمدة . من المعروف أنه كلما طال عمر الانسان نما الحزن معه وكأنه الظل أو القرين .

اذا تعدى الانسان منتصف العمر نجده قد اعتاد على الحزن وألفه • كذلك كلما ارتقى الانسان واكتمل نضوجه عظم الحزن معه ، ربما لسعة ادراكه لوجوده وثقل أعبائه •

يندر الحزن فى فترات الطفولة والصبا والشباب، لقدرة هؤلاء على امتصاص الحزن و « هضمه » بما لهم من حيوية دافقة ونفوس مرنة تعينهم على تجاهل هموم الحياة ومشاقها• قال أمير الشعراء معبرا عما فى نفسه للسيد نصير حينما فاز نصير ببطولة العالم فى حمل الأثقال :

أحملت دنيا فى حياتك مرة
أحملت هما فى الضلوع غليلا
أحملت طغيان اللئيم اذا اغتنى
أو نال من جاه الأمور قليلا
أحملت ظلما من قريب غادر
أو كاشح بالأمس كان خليلا
هذى الحياة وهذه أثقالها
وزن الحديد بها فعاد ضئيلا

أكان شوقى ، الشيخ المجرب ، يقول هذا الشعر الحزين الأليم لو كان شابا ؟ ان من يرى صورة لشوقى وهو فى الخمسين من عمره يعرف من ملامح وجهه آن الحزن يعتصره، وكأن السكين قد بلغت عنده المحز • ولكنه شوقى !

والحزن أكثر حدوثا بين الخاصة من العامة • وفى الرجال أكثر من النساء ، بسبب تركيبتهم النفسية وحملهم العبء الأكبر من المسئولية المباشرة • وهو أكثر حدوثا بين الاعزاب عن المتزوجين • وفى الحضر أكثر من الريف •

الحزن عاطفة اجتماعية تنتقل بالترابط والمشاركة • وكأنه تيار يسرى فى الشبكة الاجتماعية •

قال الشاعر الانجليزى « شكسبير » ما معناه ، ان الاخبار الحزينة تنتقل أسرع من الاخبار السارة ·

مادام الحزن عاطفة أولية فانه بالضرورة متصل بالغرائز ، التى من قوانينها التمسك باللذة وتجنب الألم · اللذة تخدمها عاطفة السرور ، والألم يخدمه الحزن · اللذة والألم حاستان عضويتان ، والسرور والحزن من المعنويات · فى هاتين الحالتين المحسوسان يخدمهما المعنويان · ثم امتزج المحسوسان بالمعنويان ، فأصبح السرور دلالة على اللذة والحزن عنوانا للألم ·

يقول الشاعر أحمد شوقى ، «أنبل ما فى الحياة الألم» ، فلو استبدلنا كلمة الألم بالحزن لكان ما عنيه « أنبل ما فى الحياة الحزن » · وقد تطغى المعنويات على المحسوسات فنشعر بالسرور أو الحزن ولا نحس بلذة أو ألم ، وما يدعى بالسرور والحزن الخفى ·

ولذلك فان للحزن وظيفة وقائية ، فى حدود ، وان كانت حدودا بعيدة ، تحثنا على تجنب أو ازالة أسباب الألم· وأيضا ، يمكننا معرفة أسباب الحزن اذا بحثنا فى الانسان عن أسباب اعتلال غرائزه · قال الله تعالى فى سورة القصص ، « فرددناه الى أمه ، كى تقر عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حق » أعيد الطفل موسى الى أمه فاعتدلت عندها غريزة الأمومة فزال حزنها · قد يكون سبب اعتلال الغرائز ، الحرمان ، التفقد ، التخلى ، الهجران ، الوحدة ، القهر ، الخضوع والأسر ·· الى آخره · قبل أن يعتادالمصريون على الهجرة ، منذ أقل من عشرين عاما ، كان للموال التالى للشاعر أحمد عبد الله أثر بالغ فى نفوسهم :

مسكين وحالى عدم من كتر هجرانك
يااللى تركت الوطن والأهل على شانك

الآن ، لم يصبح لهذا الموال آثر كبير • يثير الحــزن فى الانسان الدافع للعودة الىحالته السابقة قبل اعتلال غريزته • فاذا لم يفلح فى اشباعها ، آو تعويض مايشبعها ، طال الحزن بالانسان وقد يدخله فى حلقة مفرغة لا يخرج منها ، فيلازمه الحزن بعد آن يكون قد نسى سببه • ونقصد بتعويض مايشبع الغريزة أن نتسامى بها الى محبة الله (التصوف) آو الخير آو الوطن ، بدلا من الحبيب الغائب مثلا •

## الحزن فى مصر :

كان للمصريين الحق كل الحق فى أن يميلوا ويحنوا الى الحزن ، بل ويعشقه الكثير منهم ، وهل نلومهم وقد لازمهم الحزن قرونا طويلة حتى اعتادوا عليه ؟ عاشــوا متحضرين مترابطين فى شريط ضيق هو وادى النيل ، وكم عانوا من احباط دوافعهم من المستعمرين • كم قرون مرت عليهم وهم فى قهر وخضوع واستســلام وتضحية بالأنفس فى حــروب خاضوها خدمة للحكام الأجانب الجائرين ؟ حفر المصريون آكبر ممر مائى ، قناة السويس ، بالسخرة مدة عشر سنوات ثم باعها الخديوى اسماعيل بثمن بخس للانجليز • باع جهدهم وأرواحهم ليسدد بها ديونه الخاصــة • حتى آصــبح حزن المصريين حاضرا وفرحهم غائبا • فهم يبدون الحزن ويتكلفون اظهاره • من عادة المصريين الى الآن مجــاملة خصــومهم فى أحزانهم ولا يشاركوهم أفراحهم •

لا يزال يختلف حزن المصريين فى مظاهره عن الشعوب

المماثلة لهم اجتماعيا وثقافيا • يطيلونه ويجتهدون فى اطالته • يحبونه ويتعلقوا به • آدل على ذلك سلوكهم أثناء حزنهم على موتاهم • يصوتون وينوحون ويولولون ويشقون الجيوب • يقيمون المآتم آربعين يوما ويتجللون بالثياب السوداء • يذكرون موتاهم الى وقت طويل فى مناسبة آو غير مناسبة ، وكأنهم مازالوا يعيشون معهم • ويطلعون القرافات على الأموات فى كل موسم وعيد • كل هذه تقاليد وأعراف تحدث فى شبه مظاهرة ، وان خفت حدتها فى الآونة الأخيرة فى المدن الكبرى •

فى عهود الأدب الكلاسيكى فى مصر ، ومازال الى أيامنا هذه ، ظهر الحزن بوضوح فى الشعر والنثر ولاتعوزنا الأمثلة ، ويكفينا آدب مصطفى لطفى المنفلوطى الذى سمى بحق «أدب الأموات» تربع على عرش الطرب والغناء لفترة جيلين ، ستين سنة ، مطرب مصرى طور الموسيقى الشرقية المصرية وأعلى شأنها علوا كبيرا • هذا الفنان المطرب لم ينقصه الفن آو الصوت الملائكى وحسن الأداء • غنى بالفصحى والعامية لأشهر الشعراء • من يسمع ألحان هذا المطرب بصوته الشجى يحس آن المطرب مطحون بالحزن ولاشك أن شهرته العريضة قامت على الحزن الذى يقطر من صوته وألحانه •

وهناك الموشحات والمواويل التى كادت تختفى فى الأزمنة الحديثة ، ربما لأن المصريين ابتعدوا عن ظواهر الحزن بعد زوال الاستعمار والاقطاع •• معظمها ، ان لم يكن كلها ، كلامها وألحانها يذيب الصخر من الحزن يقول موال مصرى جميل ، وهو باللغة العامية لأصالته المصرية •

شجانى «نوحك» يابلبل وانت بتغنى

فكرتنى بالحبيب والفكر يعننى

سألت ، ماذا لو قال الشاعر ، آمين عزت الهجين ، شجانى «صوتك» يابلبل ، بدلا من نوحك ، (والبلبل فى الموال هو المغنى الذى صيغ له الموال ليغنيه بصوته) .. فقالوا ، سيفقد الموال الكثير من تأثيره فى قلوب السامعين المصريين !

ليس من عادة المصريين الغناء أو الرقص جماعة فى مجتمعاتهم ، الا فى حلقات «الذكر» حيث يتمايل الرجال يمينا ويسارا فى ايقاع متكرر لايتغير ، وان كان الذكر طقوس دينية ورياضة روحية ، الا أنها لا ترقى الى حد الفرح . وانما وسيلة فرح المصريين ، وعلامتهم المسجلة التى أخذها عنهم عالم الرقص ، هى الرقص الشرقى أو « هز البطن » . لولاه ما كانت عندنا موسيقى مرحة وهى موسيقى « الواحدة والنصف » حتى أصبحت الراقصة « البلدى » عنوانا للفرح وبدونها لا يكون فرح .

## الحزن والصحة النفسية :

لا أدعو الى كبت وانكار الحزن ، فهو لازم لحياتنا وبقائنا . الحزن يثير الاهتمام ، ومن لا يهتم يفقد الكثير . الحزن يدفعنا ، الى حد ما ، الى التعويض عن الناقص واستعادة المفقود حتى تتكامل صورتنا عن أنفسنا . وهو ضرورة لتضميد جراحنا النفسية حتى تلتئم . ولكن اذا زاد الحزن عن حده الحيوى أدى الى الاحباط أو السلوك الضار أو اللامبالاة ، أو هذه جميعا .

ولكنى أدعو الى الاقتصاد فى الحزن والاقلال من اظهاره. فنحن ، نشعل الحزن ونستدفىء بناره . من صفات العواطف أننا اذا اقتصدنا منها ، ولا أقول كبتناها ، فانها فى الغالب لا تدخل فى حلقة مفرغة ،وبالتالى لا نعمل على استمرارها.

ولا تكبتوا الحزن ، فكل مايكبت فى اللاشعور يظل يعمل فى الخفاء ، بشكل أو آخر ، فيؤثر فى سلوكنا . وقد يؤدى كبت الحزن الى مرض الاكتئاب (ولو أن هذه مازالت نظرية). من المعروف عن شعوب البلاد الباردة أنهم يقتصدون فى اظهار عواطفهم ، وهم شعوب متقدمة . قيل ان للجو البارد عاملا كبيرا فى تكوين طبيعتهم «الباردة» . ومن المعروف عنهم أيضا أنهم يفكرون قبل أن ينفعلوا .. بخلافنا ، نحن المصريون ، ربما بسبب جونا الحار أو عوامل أخرى ، فاننا لانقتصد فى عواطفنا ، وننفعل قبل أن نفكر مما يوقعنا فى أغلب الأحيان فى مشاكل مع أنفسنا وغيرنا .

من الفكاهات االتى كان يرويها المصريون عن الانجليز أيام الاحتلال البريطانى الطرفة التالية ، دخل أحد المصريين مقصورة قطار فى عربة الدرجة الأولى ، وكان بها أحد الانجليز جالسا على الكنبة المواجهة لسير القطار وبجواره على الكنبة حقيبة كبيرة احتلت المكان الملاصق للنافذة . أحب المصرى الجلوس بجوار النافذة فطلب من الانجليزى فى أدب .

– هل تسمح ياسيدى أن نتعاون فى رفع حقيبتك ونضعها على الرف حيث مكان الحقائب الكبيرة الثقيلة .

لم يرد عليه المسافر الانجليزى ولم يحرك ساكنا ، مما

أدهش سلوكه غير الاجتماعى المسافر المصرى . استشاط المصرى غضبا وتسرب غضبه الى عضلاته فرفع الحقيبة وألقى بها من الشباك ، ثم جلس منزهوا بانتصاره فى المكان الذى اختاره . وبعد أن هدأ ، بسرعة كما ثار ، التفت الى الانجليزى الجالس بجواره ، ولا هو هنا ، وقال له معاتبا :

ــ ماذا لو ساعدتنى فى رفع الحقيبة ووضعناها على الرف ؟

وهنا أجاب الانجليزى مشيرا الى حقيبة على الرف المقابل :

ــ لم تكن تلك التى رميت بها من النافذة حقيبتى ياسيدى .

ألا يجدر بنا أن نحزن ونفرح ونقلق ونغضب ، ولكن بمقدار ؟

سبق أن أشرت الى أن سحب الحزن تتجمع فى سماء حياتنا كلما امتد بنا العمر . قليلون جدا من خلت سماواتهم من سحابات الحزن بعد تعديهم سن الخامسة والأربعين . أشياء كثيرة حدثت وقد بلغنا سن الكمال والقوة والشهرة والغنى .. و .. و .. بعضها سار وبعضها محزن . من الأشياء الغير سارة بعضها عضوى (جسمى) وبعضها اجتماعى :

حدوث أمراض متوسطى العمر ، الضغط ، السكر ، تصلب الشرايين ، الروماتويد ، ضعف الهرمونات وأفول الدافع الجنسى ، وهن الحواس .. لم تعد الصحة كما كانت عليه أيام الشباب .

ومن المشاكل الاجتماعية ، غياب الشريك ، ترك الاولاد

للبيت و «خلو العش» ، القصور عن بلوغ الغايات وتبخر الآمال ، الاقتراب من سن المعاش ..

يقول معظم متوسطى العمر : كنا فى شبابنا نأخذ ونعطى وكانت الحياة مزهرة على قلة الموارد والدخل ، كان هناك دائما الحب والأمل يعوضانا عن أى حرمان فى حياتنا، أما الآن فنحن نعطى ، ونعطى ولا نأخذ ، لانتذكر أننا أخذنا مكرمة من أحد منذ فترة طويلة .

حياة لاتسعد على أى حال كما كانت فى الماضى .

واذا كان هذا حال متوسطى العمر فما بال من بلغوا سن الكهولة والشيخوخة ، وقد زاد النقصان وقل الرجحان ؟ كان عمر الانسان منذ جيلين أو ثلاثة مضت خمسة وأربعين عاما، ثم توفق الطب فى الآونة الأخيرة الى اطالة العمر الى ما بعد سن الخامسة والستين فلا غرابة اذا زادت المشاكل وأصبحت الحياة مجلبة لمزيد من الأحزان وقد وهن العزم والعظم . يقول الشيوخ فى قناعة : الحمد لله أننا لا نشكو من شىء . قناعة مريرة فى واقع الأمر عندما يذهب العمر ويبدو الماضى خداعا وسرابا .

ولكن معظم الشيوخ يعيشون بنعمة الذكريات ، فى الماضى وأيام زمان . انهم لا يعيرون الواقع اهتماما كبيرا . لذلك يرضون بالقليل وبالمعنويات أكثر من الماديات . نجدهم يقولون عيشتنا كانت سهلة هنية راضية ، والصحة عال ، والزوجة صالحة ، والأولاد نجباء ، وكنا نعمل كيت وكيت . لا يهاب الشيوخ فى الغالب الموت ، ولا يرقبونه أو ينتظرونه أيضا ، ويأملوا أن يعيشوا ماشاء لهم الله العيش

وانما يخاف الشيوخ ، وكل الناس ، من سكرات (عذاب) الموت .

ولا يغيب عن القارىء . أنى تكلمت عن الناس عامة ، وما أصفهم بالأصحاء ، ومنهم الشيوخ « الأصحاء » على ضعف صحتهم الجسمية وقصور ( تصلب ) صحتهم النفسية .

## كيف نتعايش مع الحزن ؟

أنا شخصيا لا أكره الحزن ، وأرحب به اذا جاء ، بل وأفتعله فى نفسى أحيانا . وأحيانا أسترجع ذكريات حزينة وأبكى لترتاح نفسى . وأجد فى نفسى أحيانا ميلا وحنينا الى سماع أغان حزينة بأصوات نبراتها حزينة . وأحيانا أكتب قصصا حزينة . حتى مهنتى حزينة ، لا يسمع فيها الا حكايات حزينة . وأحب مشاركة الناس أحزانهم وأتراحهم كما أشاركهم أفراحهم .

وأعتقد أن الحزن يجلو النفس ويرهف الحس ويقرب بين الناس والأحباب ويعين على تحمل الشدائد وتقبلها . فاذا حزنت بما فيه الكفاية تطلعت الى وقت ينقشع فيه الحزن ، ويحل الفرح محله فأفرح وأغالى فى فرحى ومرحى وقد خرجت من تجربة حزينة . فاذا عاد الحزن كنت مستعدا له ولسان حالى يقول : مرحبا يا حزن .

كثيرا ما يبكى مرضى أمامى فأتركهم يبكون ما شاء لهم أن يبكوا ولا أنهاهم عن البكاء أو أنهرهم .. أمامى دائما على المكتب علبة مناديل ورق . ويسألونى بعد انخراطهم فى نوبة بكاء قد تطول :

ـ ماذا تفعل لو كنت مكانى ومررت بتجربتى ؟

وأجيبهم على الفور وبغير تردد :

ـ كنت أبكى مثلك .

والسؤال : كيف نتعامل مع الحزن ، ونخفف من وطأته ونتفادى استمراره ؟

كثيرون « يداوون » الحزن بطريقة أو بأخرى يتناول المخدرات ، أو الانطوائية والبعد عن الناس ، أو انشاء علاقة مع الغير ليعوض ما راح ( الاحلال ) · تزوج رجل بعد وفاة زوجته فلم تحل محلها أو قامت مقامها · هذه الوسائل غير الحميدة تقوى الحزن وتعمل على دوامه · لذلك أنصح :

١ ـ ثق بنفسك وقدراتك ، واعلم أنك لست فى الحزن وحدك فهناك ملايين الحزانا غيرك ·

٢ ـ حدد وضعك باستمرار على طول مواقفك مع الحزن ·

٣ ـ اعلم اننا لم نختر وجودنا الذى فرض علينا ، ولذلك يجب أن يكون ايمانك بالله قويا مخلصا ·

٤ ـ كن ايجابيا ، ما أمكنك ، ولا تستسلم للحزن وتتحصن داخله · كما لا تقيم عند الفرح قصورا فى الهواء ·

٥ ـ تحمل مسئولية قراراتك وما يحدث لك · لا تعتمد على غيرك اعتمادا كاملا ، الا على الخالق عز وجل ، ولا تكن قدريا خالصا ( القدرية = قوم ينكرون القدر ، ويقولون ان كل انسان خالق لفعله ) ·

٦ ـ لا تنقاد انقيادا أعمى وراء التقاليد والاعراف التى لا تتفق ومنطق الحاضر ·

٧ ـ حاول ألا تستسلم لعواطفك وأن تقتصد فيها ·

٨ ـ اذا جاءك الحزن فتقبله بصدر رحب ، ثم عالج أسبابه لصالحك على قدر امكانك، مع علمك أنالحزن سيحدث مرات ومرات مستقبلا ·

٩ ـ شارك غيرك حزنك وحزنه ، على أن تتخلصا من الحزن ولا تقوياه كما يفعل البعض · وأخيرا ·

١٠ـ ثق فى نفسك وأحبها فى اعتدال ، واعلم أنك لغيرك وبه ، وهناك دائما من لا غنى لهم عنك ·

# الصـــورة

صباح يوم آخر . خيمت سماؤه وبكر شتاؤه . يوم بعد يوم بعد يوم . كلها أيام لا تتبدل .

كان الدكتور حسين فهمى ، أستاذ قسم النبات فى كلية العلوم ، يتهيأ للخـــروج الى عمله . قال لصـــورته فى مرآة منضدة الزينة :

« تحتاج لربطات عنق جديدة » .

شعر بشعور غريب لما سمع نفسه يتفوه بتلك العبارة . أكان الصوت الحالم صوته ، والنبرة الحنون نبرته ؟ لم يكترث لشعوره ، فطالما آنكر مشاعره وجحد عواطفـــه . انصلحت الربطة فى المحاولة الثانية .. تشاءم .. توقع حدوث شىء غير عادى له فى يومه . ألقى نظرة خاطفة على المرآة قبل أن يبتعد عنها . لمح شـــابا طويلا نحيـــلا شاحب الوجه ، كأن الشمس لم تصافح وجهه لثلاثة وثلاثين عاما . ابتسم عن رضا ، الا أن ابتسامته لم ترق الى عينيه ، ولا مسحت عنهما نظرة حزن دائمة .. ولكنها أظهرت أخدودين عـــلى جانبى فمه .

دار حول السرير النحاسى الأبيض ذى الأعمدة الأربعـــة

العالية ليغلق باب الشرفة المطلة على الحديقة • تطلع بعين الخبير الى أشجار الورد وأعواد الزنبق ، وآثنى فى سره على عم ابراهيم لعنايته بها •

تنقل بعينيه فى أرجاء غرفة النوم الفسيحة بعد أن أكمل ملابسه حتى لا يكون قد نسى شيئا لم يحمله معه • كانت الغرفة للمرحومة والدته ثم انتقل اليها لطيب هوائها فى الصيف • ومن قبلها كانت لوالده الى أن تزوجها • هل دخل بها فى نفس الغرفة ، وكم من الوقت عاشا فيها معا ؟ ربما لبضعة أسابيع أو شهور ، ثم آخذها لتعيش معه فى أسيوط الى أن توفاه الله •

غادر غرفة النوم الى غرفة المائدة عابرا الصالة الكبيرة ذات السقف العالى بارتفاع ستة آمتار وطابعها الشرقى والأطقم الأرابسك المطعمة بالصدف • تناول طعام فطوره من على مائدة حوت أطايب الطعام ، أعدته له الخالة فاطمة مع علمها أنه لن يقرب معظمه • ثم غادر غرفة المائدة ودخل غرفة المكتب ، أحب غرف البيت اليه • جذب حبل ستارة الى أن انفرجت تماما فانتشر فى الغرفة ضوء نهار لم تطلع شمسه بعد من وراء السحب • ولم تفت عليه عناية الخالة الطيبة بالستائر القطيفة المدلاة على جوانب النوافذ والأبواب، كشعور غوان لا يعترفن بعامل الزمن • فى غرفة المكتب يقضى الدكتور حسين الليالى الى منتصفها ومعظم أيام العطلات • ينسى الوجود فيما عداها ، وكأنه لا وجود للوجود • سحب حقيبة أوراقه من على المكتب واتجه بها خارجا من الغرفة قاصدا الباب الرئيسى للطابق الأول عبر الصالة • فتحه وخرج منه ثم أغلقه وراءه •

أحدث قفله للباب الرئيسى صوتا مألوفا مرتقبا فى ذلك الوقت من الصباح لساكنى الطابق الأرضى .. الخالة فاطمة وزوجها عم ابراهيم . كان الكهلان هما الوحيدان الباقيان للدكتور حسين فى هذه الدنيا بعد وفاة والدته . أسرعا ليلاقياه على السلم الرخامى العريض الواصل بين الحديقة وشرفة البيت الأمامية ما أن أهل عليهما حتى بادراه فى صوت واحد بتحية الصباح المعتادة :

ـ يا صباح الخير يا صباح الهنا .

ذكرته تحية الخادمين بوجوده معهما .. ووجودهما معه .

يعلم الخادمان عزوف سيدهما عن الكلام . سألهما بعد أن بادلهما تحية الصباح :

ـ ازاى الحال .

قالت فاطمة :

ـ الحمد لله عقبال ما نفرح بيك .

وقال ابراهيم فى لهجة عسكرية تعود عليها من أيام الجهادية :

ـ كله تمام ربنا يطول عمرك .

سار الثلاثة عبر الحديقة معا الى أن دخلوا الجراج والتفوا حول السيارة تلمع كالجديدة .

قال عم ابراهيم :

ـ الزيت والمية تمام ، ربنا يسلمك .

نظر الدكتور حسين الى مرافقيه مودعا . فتح باب السيارة وألقى بنفسه خلف مقودها بعد أن وضع حقيبة أوراقه على الجانب الآخر من الكنبة ، ثم انطلق بها فى نفس

الطرق التى يسلكها كل يـوم الى آن وصـل الى الجامعـة فى ميعاده والساعة تدق الثامنة الا ربعا ٠

كانت الخالة فاطمة تقضى معظم نهارها وشطرا من المساء فى العمـل فى الطابق الأول ٠ آما الطابق الثـانى من ذلك البيت القديم فى حى العباسية الشرقية فكان مغلقا مهجورا منذ جاء الدكتور حسين ووالدته واستقرا فى البيت بعـد نزوحهما من آسيوط الى القاهرة ، منذ ست وعشرين سنة ٠ لا تألو الخالة الدؤب جهدا آو مالا تنفقه فى العناية بالطابق الأول والحفـاظ على رونقه ٠ كان فى الطابق الأول سـبع غرف ، أربع منها لا تستعمل ولا يدخلها آحد ، وان اعتنى بجميع الغرف سواء ، تظل أبوابها مفتوحة دائما ٠

كان عم ابراهيم يساعد زوجته آحيانا فى شغل البيت ويقوم بالمشاوير خارجه ٠ يعنى بحكم نشأته الريفية بفلاحة وتنسيق الحديقة التى تبلغ مسـاحتها سـتة قراريط حول البيت ٠ آخر شىء يفعله الكهل الوقور بعد آن يصلى العشاء هو غسل سيارة الدكتور من الخارج وتنظيفها من الداخـل حتى تكون جاهزة فى الصباح ٠ نادرا ما كان يؤجـل ذلك العمل الى ما بعد صلاة الفجر ، اذا تأخـر سـيده عن ميعاد عودته المعتادة فى المساء ٠ كان عم ابراهيم ينام دائما بعين واحدة ، آما الأخرى فهى ساهرة على حراسة البيت والحديقة ٠

لم يعكر صفو حياة الكهلين الوادعة الرتيبـة الا ما كان يجرى مؤخرا فى الحى الهادىء الساجى تحت سفح الجبـل ٠ نشطت حركة العمران فى آواخر الخمسينات ٠ آزيلت بيوت عز قديم مثل بيتهم وقامت محلها عمـارات سـكنية آثارت الضـوضاء والفـوضى فى الحى كله ٠ وظل بيتهما وبعض

بيوت متناثرة حوله صامدة تقاوم حركة التقدم العمرانى الحديث •

لم يكن للخادمين آجر معلوم كانا وسيدهما يعيشون حياة اشتراكية خالصة وكأنهم آفراد آسرة واحدة • كان المصروف فى يد الخالة تنفق منه على البيت كما تريد بغير حاسب أو رقيب • كلما تطلب البيت شيئا آخذته من الدكتور حسين فيعطيها ما تطلب وزيادة • كان لهما دفتر بريد باسميهما يضع فيه عم ابراهيم بين الحين والحين مبلغا متواضعا تحسبا للزمن • ويأخذ منه من وقت لآخر مبلغا بسيطا يرسله الى شقيقته فى البلد ليعينها على تربية عيالها • وما حاجتهما الى المال وهما بلا عيال ، وكل شىء موجود ومتوفر ، والبركة فى السيد الدكتور • ولم يفت على الدكتور آن يزيد الرصيد دائما •

قالت الخالة فاطمة ذات مساء للدكتور بعد آن فرغ من طعام عشائه ودخل غرفة المكتب • آتته متسحبة بعد أن فرغت من شغل المطبخ وجلست قبالته أمام المكتب :

ــ انت ياسى حسين محتاج لتليفزيون •

نظر حسين الى الخالة وتأملها جيدا من فوق نظارة القراءة •

ــ ومين قالك يا خالة انى عاوز تلفزيون ؟ •

ــ آه كل الناس دلوقت عندها تلفزيون •

لا يستطيع الدكتور آن يرفض للخالة الحانية العطوف طلبا مهما كان •

ــ اللى تشوفيه يا خالة • من بكره عم ابراهيم يروح يشترى اللى انتو عاوزينه •

ـ لازم لنا اتنين تلفزيون مش واحـد • عنـدك هنا وعندنا تحت •

وبعد أسبوعين كان للخالة ما طلبت وان ظل التلفزيون فى الطابق الأول موضوعا فى الصالة بلا أحد يشاهده ، أما الآخر فى الطابق الأرضى فكان ينهى ارسـاله بعـد الحديث الدينى قبل صلاة العشاء •

## ٢

مر شـهران على بدء الدراسة فى الجامعـة هدأت حركة أول العام فى الحرم الجامعى ونشر الطابع المألوف جناحه على مبنى الادارة ذى القبة الخضراء والكليات المحيطة به • ألف الباب الرئيسى لقسم النبات الجديد المارين خلاله واستكانت عتبته لوقع أقدامهم • فى الطابق الثانى من هذا المبنى الجديد نسبيا توجد طرقة لا هى عريضة ولا طويلة ، اصطفت على جانبيهـا أبواب متتالية ثبتت على جوانبهـا لافتات صغيرة ، بعضها من الخشب المدهون بالبوية السوداء والبعض الآخـر من النحاس النصف مجلو ، مكتوب على كل لافتة اسم أحـد أعضاء هيئة التدريس الذى يشغل الغرفة وراء الباب ، منها واحدة باسم ، الدكتور حسين أحمد فهمى •

فرغ الدكتور حسين من القاء محاضرة الساعة الثامنـة وعاد الى غرفة مكتبه • اذا كانت غرفة مكتبه فى بيته نصف عالمه ، فهذه فى كلية العلوم النصف الآخر • يعيش فى نصفى عالمه حياة علمية خالصة • ما أبعـد الفرق بين الغرفتين ، واحدة بأثاثها الثمين الفاخر على قدمه ، والأخرى يعريهـا الا من الأثاث الضرورى المتواضع وبعض الأجهزة العلميـة الخالية من الشكل الجمالى ، والتى تقوى على شرائهـا ميزانية

المؤسسة الحكومية المسماة بالجامعة · تطل الغرفة فى كلية العلوم على الجهة البحرية بنافذتين كبيرتين ، يظهر أمامهما صف من نخيل عاليات ، يطاولن برج ساعة الجامعة · أسفل كل نافذة منضدة من الخشب ، فوق واحدة وضع ميكروسكوب وبجانبه صوانى من الصاج الأبيض والصلب الغير قابل للصدأ ، وعلى الأخرى تزاحمت أوعية زجاجية حوت عينات مختلفة من نباتات ·

فى الجانب الأيمن من الغرفة يوجد مكتب متواضع من الخشب المدهون بلون الماهوجونى ، وفى الجانب المقابل دولاب ذو واجهة زجاج لحفظ الكتب ثم بضعة كراسى خشبية ·

كان الدكتور حسين يجرى بحثا بدأه منذ شهر ولم ينته · اختلفت النتيجة مع النظرية للمرة السابعة فوضع القلم فى رفق على دفتر المشاهدة · تأمل الفضاء أمامه عبر النافذة ، أين اختلف معه سير التجربة ؟ وبينما هو فى تأمله سمع طرقات لينة وجلة على الباب وراءه ، رنت فى سكون الحجرة · انتظر أن يفتح الطارق الباب ولكن الطارق أعاد الطرق ولم يدخل · التفت الدكتور وراءه ورجا الطارق أن يدخل · دار المقبض ببطء ثم فتح الباب لتطل من فتحته رأس طالبة ·

قال الدكتور للرأس المطل مشجعا :

ـ تفضلى بالدخول يا آنسة ·

خطت الطالبة داخل الغرفة بعد ما تبينت وجود الأستاذ أمامها فى معطفه الأبيض، ولم تنس أن تقفل الباب وراءها·

لم يتذكر حين وقع نظره عليها أنه يعرفها أو رآها من قبل · بدت له فى زيها الكحلى اللون مختلفة عن طالبات

الجامعة ، أشبه ببنات المدارس الثانوية . قالت وهى تمد له يدها بورقة من ادارة الكلية :

ـ أنا طالبة جديدة محولة من جامعة أسيوط .

ـ أسيوط !

كأنه أراد أن يتأكد من سماعه اسم عاصمة الصعيد . تناول منها الورقة بيد ، مشيرا اليهـا بالأخرى لتجلس على مقعد قريب منه فجلست وهى تشكره . راح يقرأ ما جاء فى الورقة بصوت مسموع :

الطالبة رجاء كمال ابراهيم . محولة من جامعة أسيوط . السنة الدراسية : الثالثة .

تخصص : نبات .

سألها عن المقرر الذى أخذته فى أسيوط ، فأجابته بكل ما عناها أن يعرفه . لم يقاطعها بكلمة وهى مسترسلة فى حديثها . ذلك لأن فكره سرح بعيدا الى أجواء بلا معالم ، لا يصلها بالواقع الا وقع حديثها فى أذنيه . أعاده سكوتها اليها فأسرع يكلمها :

ـ هل تحبين كلية العلوم لأنها تتفق وميولك ؟

تعجبت من سؤاله ولكنها أجابته : نعم .

ـ لمـاذا اخترت تخصصـك فى النبـات دون سـائر التخصصات ؟

وكان جوابها بسيطا ومباشرا ، ومنطقيا أيضا : لأنى أحب النبات .

وجد نفسه يجيبها بلا وعى :

« لجماله ونضرته » « دأبه وثباته » .

حيرها ، كما حيره ، ما نطق به فتبادلا ابتسامة بلا معنى لأيهما . قال ينهى المقابلة :

ـ أرحب بك فى كليتك الجديدة · لن يكون من الصعب عليك الالمام بمقررنا · سنتقابل كثيرا فى قاعة المحاضرات والمعمل ·

شكرته بابتسامة « آضاءت كل وجهها » ، ثم غادرت الغرفة وقفلت الباب وراءها شعر حينئذ شعورا غريبا بأنه ترك وحده ·

افتقد هدوءه ولم يفتقده آبدا · لم يدر ما سر الأثر الذى أحدثه فيه وجودها · كان لها حضور لم يعهده من مثيلاتها· عاوده الشعور الذى أحس به فى الصباح وهو يصلح ربطة عنقه ، حاول آن يتجاهله ويعود لعمله · انتقى عينة من مادة البحث ، قطع منها مقطعا وضعه على شريحة زجاجية ثم لونه بصبغة خاصة ووضع الشريحة على قاعدة الميكروسكوب · نظر اليها من خلال العدسة العينية ولم يجد ما يبحث عنه · أشاح بوجهه بعيدا · وقع نظره على عينات النبات فى أوعيتها المختلفة الأحجام على المنضدة المجاورة · بدت له متشابهة وكأنه طالب يراها لأول مرة ·

فى النهاية قرر آن يرجىء العمل الى وقت آخر · غطى صينية البحث بفوطة مبللة ، ثم غطى الميكروسكوب بغطائه البلاستيك الرمادى · مشى الى مكتبه وجلس وراءه · يحتمى به ، يتعجب مما يعتمل داخله ، قال لنفسه : ليس مألوفا من بنات الجامعة فى هذه الأيام ارسال شعورهن من مفرق وسط الرأس لينتهى بضفيرتين تتدليان على الكتفين · وتساءل : لم يفكر فى طالبة من طالبات ؟

نبهه صوت ساعة الجامعة معلنة الثانية ، موعد اجتماعه بطلبةالدراسات العليا · غادر مكتبه الى المعمل الصغير فى

نفس الطرقة ، وهناك أمضى ثلاث ساعات كاملة · قال أثناءها وسمع وناقش نظريات طرحت مرارا وتكرارا للمناقشة ولم تضجره الا اليوم · ومر الوقت متثاقلا بطيئا الى الخامسة مساء · ولم ينته اليوم الطويل بعد ، كان عليه حضور اجتماع أعضاء هيئة التدريس الشهرى ، قال له زميل بعد الاجتماع :

ـ لست اليوم على عادتك كل مرة ·

كان أول المنفضين من الاجتماع ، ركب سيارته وعاد الى بيتبه · أطفأ محركها وخرج منها المؤذن ينادى لصلاة العشاء ·

## ٣

تخيل الهدوء ينتظره داخل بيته وهو يدير المفتاح فى قفل الباب ، كأنه لم يمتد على هذا الهدوء ولم يضجر أبدا · أضاء نور الصالة الكبير فرأى السكون والهدوء والوحشة رؤى العين · لم يجد فى نفسه ميلا ليفعل ما يفعله كل مساء عند عودته من عمله · أغفل دق الجرس للخالة فاطمة لتصعد لتجهز له طعام العشاء تجنبا لسماعه ملاحظاتها عما حدث أثناء النهار · دخل غرفة المكتب وأضاء نورها فأحاطه طابعها المألوف · ألقى حقيبة أوراقه على المكتب وجلس وراءه ، قربها منه وفتحها ثم قفلها وأزاحها جانبا · شغل المسجل فانبعثت فى أرجاء الغرفة موسيقى « الجار » التى أحبها منذ أن كان فى بعثة فى انجلترا ، زادته الموسيقى العذبة مللا فأسكت المسجل · فتح موضوع رسالة للدكتوراة كان يراجعها فى الليلة السابقة ، تصفح الرسالة مشفقا على جهد الدارس ·

فر أوراقها الى نهاية المجلد ثم نحاه جانبا · تأمل :

أهو الغرام بالعلم ما يلجيء الباحثين الى بذل هذا العناء المضنى ، أم الشهادة العليا والشرف الرفيع ؟ لا شك أن الدارسين أذكياء ذوى همم عالية · ولكن ، هل تحقق الدكتوراه لهم السعادة المرجوة ومعظمهم قلقون بطبعهم وغير آمنين فى معيشتهم ؟ ثم يكتشفون فيما بعد أنهم ما خرجوا عن كونهم « خوجات » فى مدرسة يطلق عليها تباهيا « الجامعة » ، أتكون الدكتوراه تعريضا عن نقص ما فى نفوسهم ؟

أدرك أن عدم استقراره يعود الى زيارة الطالبة رجاء وحديثها معه فى الصباح · لم يتأثر أبدا من علاقته بطالبة ، ولكن كلمة ·· « أبدا » ·· أوقعت فى نفسه أثرا عميقا ·

لم يفرق ·· « أبدا » ·· بين طالب وطالب ، طالبة وطالب ، أو طالبة وطالبة ، وان كان للطالبات ظروفهن الخاصة التى تدفعهن الى منافسة الطلبة فى التحصيل ، ثم ينتهى بهن المصير الى الزواج من الطلبة فيما بعد ·· ممن ينافسن فى مستقبل أفضل !

دفعه شعور ملح الى التنقيب فى ادراج المكتب ، فتحها واحدا بعد الآخر ولم يجد فيها ما أثار اهتمامه · الى أن وصل الى الدرج الأسفل العميق على يساره حيث يضع أوراقه وأشياءه الأقل أهمية دس يده فيه وأخرج أوراقا ما لبث أن

رماها فى سلة المهملات · ثم دس يده مرة آخرى فاصطدمت بما يشبه اطار صورة · نبض قلبه فى صدره وهو يمسك بالاطار · تذكر صاحبة الصورة · آخرج الصورة من الدرج ووضعها أمامه على المكتب ، جاءت مقلوبة فعدلها ·· فاذا بالطالبة رجاء تنظر اليه من خلال الزجاج المترب ·

أحيانا يصاب الانسان للحظة ، تطول أو تقصر ، باختلاف فى الوعى ، حيث يختلط الواقع باللاواقع ، الحاضر والماضى ·· كأن الادراك كله تجمع فى لحظة واحدة · كاد يصدق وعيه المضطرب · وما آن انتهى من مسح الغبار عن الصورة حتى كان وعيه قد صفا · عزا ما آصابه الى الاجهاد فى العمل ·

كان الشبه دقيقا الى حد بعيد بين « حياة » صاحبة الصورة والطالبة رجاء · وربما لهذا اختلط عليه الأمر بين الأصل والصورة · كان لـ «حياة» و «رجاء» نفس استدارة الوجه الباسم دائما، الاطلالة ، الجبين المرتفع يحده الشعر المصقول ، له مفرق فى الوسط وينتهى بضفيرتين تدلتا الى الكتفين · نفس الحاجبين العريضين يحرسان عينين حوراوين ذوتا بريق وابتسامة ، تعكسان نظرة فيها براءة وخفر ونداء ·· نظرة ذكية تشى بتحمل الفتاة عبء ودوام الوجود ، نفس الأنف المتجه طرفه الى أعلا عنوانا على الشموخ · والفم المضموم على كلام لا يباح به الا لـ «حبيب» · لم تفت كل منهما لمحة الا وكانت فى الأخرى · تشابها فى كل شيء حتى لا فرق بينهما ·

الآن آدرك سبب ما اعتراه آثناء مقابلة الطالبة رجاء

له فى مكتبه · الآن عرف سر تطيره فى الصباح عندما عقد ربطة عنقه ولم تنصلح من المحاولة الأولى · قليلون من ملكو الحاسة السادسة ، وكان هو بحكم تركيبته النفسية واحدا منهم ·

كانت حياة فى عمر رجاء أيام كانا معا فى مدرسة أسيوط ، حسب فوجد أن حياة لابد وأنها الآن جاوزت الأربعين · لم تدم علاقتهما سوى عام ثم افترقا وبقيت صورتها هذه معه · قالت رجاء أنها من أسيوط ، أتكون ابنة حياة أو شقيقتها الصغرى ·· أو احدى قريباتها ؟

شعر بتعب وانهاك من فورة ذكرياته وصحوة عواطفه · قام متحاملا على نفسه واتجه الى مقعد طويل مريح فى مواجهة المكتب أطفأ نور السقف فسبحت الغرفة فى ضوء خافت من مصباح ذى مظلة على عامود بجوار المقعد · تمدد على المقعد تحدوه ذكريات أعادته الى الماضى البعيد ·

تذكر طفولته المبكرة فى أسيوط عاش بذكرياتها سنين طويلة حتى انطبعت فى ذاكرته من كثرة ترديده لها · ولد ونشأ فى أسيوط حتى بلغ السابعة · أنضج حر الصعيد حواسه قبل الأوان وأطلق خياله ومشاعره ، كما أنضج الأزهار والفراش الحائم حولها · تذكر «السراية» وحديقتها المترامية الأطراف · كم لعب فيها وحده · تذكر الفسقية الرخام البيضاء الكبيرة أمام السراية ، وسمكها الملون ونافورتها العالية المياه · تناثرت حولها أعمدة المصابيح الوضاءة فى الليل · كان فى أحد أطراف الحديقة خلف السراية مزولة تدل على الوقت ·

كانت مياه الفيضان فى الصيف تغمر الحقــول حــول المدينة • اعتقد ان المياه تآوى العفاريت ، تخرج منهــا فى الليــل تطــوف الشــوارع منــادية فى صــوت عالى مخيف « وحدوه » ، ثم عرف فيما بعد آن تلك كانت آصوات الخفراء ينادون بها بعضهم البعض • كما اعتقد آن قطار الليل الذى يصل مدويا من مصر ينام فى الجبل • كانت عربات الحنطور بعد وصــول القطار تجلجــل بآجراسها فى هدآة الليــل ، معلنة وصول الغــائبين الى آهلهم ، ومنهم فى آحيــان كثيرة والده والمرافقون له •

كان والده محاميا كبيرا يشــتغل على عادة محامى ذلك الوقت بالسياسة • يتذكره عظيم البناء ، جهور الصوت ، يهابه الجميع بما فيهم والدته ،كانت تصغره بخمسة وعشرين عاما • قضى والده معظم آيام شبابه فى القاهر ، فلما آسلمه الشباب الى آواسط العمر استقر فى آسيوط وداوم على صلته بالقاهرة • لم يكن يرى والده الا فى لحظات قصار متباعدة ، لا يعلم بوجــوده فى السراية الا حين يمتلىء طابقهــا الأول بالزوار وذوى الحاجات •

ولم يكن حاله مع والدته بآحسن بكثير منه مع والده • يتــذكرها فى تلك الأيام ملولة ضجرة ، تطيــل البقاء فى غرفتها وحدها وكآنها تســتعذب وحدتهــا • كانت تتــكلم الفرنسية وتعزف على البيانو فى بعض الأمسيات حينما يكون والده غائبا عن السراية فى احــدى ســفرياته • ظن فيها المقربون الكبرياء والغطرســة ، ولكنهــا فى الحقيقة كانت شديدة الانطواء على نفسها • كان لشخصية والده المسيطرة عامل كبير فى احباط شخصيتها وكبت قدراتها وارادتهــا ،

تحول ذلك الى لا مبالاة بقية حياتها · من الاحباط ما جعلها تبالغ الى حد الوسوسة فى نظافة البيت وترتيبه ·

كانت رحمها الله الى وفاتها تتمسـك بالاتيكيت التركى وتداوم على الصلوات فى أوقاتها ، وقراءة القرآن والكتب الدينية · هل كان عنـدها الاسـتعداد بداءة اللانطوائيـة الشديدة ، أو هو بأسها بعد خيبة أملها فى زواجها ما ألجأها الى كره الحياة والزهد فيها ؟ · حتى أصبح الزهد فى الحياة عبادة والوحدة عادة ·

تزوجها المحامى الأسيوطى الكبير عن طريق صـديق له ولعائلتها الكريمة الأصل · كانت عائلتها تسكن الحلمية أيام عز الحلمية · عائلة متوسـطة الحال متمسـكة بعراقة زالت وذهب زمانها · لم يعرف حقيقة ذلك الا الأقارب والأصدقاء المقـربون للعـائلة · لم يطلب المحـامى الـكبير فى السن والمقام ، وقد امتدت به أيام العزوبية واللهو ، الا الجمال الفتى والأصل الطيب · وما كان فى حاجة الى مال أو جاه وعنده منهما الكثير · أصهر بمن فرحوا به ورضى عنهم · وبعد أن نال غرضه من الزواج عاد الى سيرته الأولى ·

عاد الى المدرسة ومازالت مياه الفيضان تغمر الحقول · كانت مدرسة كبيرة للبنات بها روضة للأطفال ، وتقع عـلى الجانب الآخر من المدينة · كانت السنة الثالثة التى ذهبت فيها الى تلك المدرسة · تعرف فيها لأول مرة على معالم المدينة الكبيرة · ولكنه لم يتعلم فى تلك السنة من المدرسة شـيئا يذكره ، ذلك لأن « حياة » اسـتحوذت على كل عقله وقلبـه الصغيرين ·

كانت حياة فى المرحلة التكميلية بعد نيلها شهادة الكفاءة

الثانوية ، وكانت بعض العائلات تبقى بناتها بعد حصولهن على الشهادة المرموقة فى ذلك الوقت ليتقن فن التدبير المنزلى ولغة أجنبية والعزف على البيانو أو العود ٠٠ الى أن يدركهن فوارس الأحلام ٠

كان على حياة الاشراف على ستة من الأطفال وكان هـو واحدا منهم ٠ تتلقاهم فى الصباح عند وصولهم الى المدرسة وتعنى بهم فى بعض أوقات النهار ، وتجلس معهم على رأس المـائدة فى المطعم الـكبير لتـوزع عليهم الأكل وتحث من لا يأكل منهم على تناوله ٠ لعل اهتمامها به واتحافه بقـدر وافر من البطاطس المحمرة والأرز باللبن ما لفت نظره اليها ثم حببه فيها ٠ حرص رغم عزوفه عن الطعام على ارضائها واطاعة ما تأمره به ، فاذا فرغا من الأكل تبعها كظلهـا الى حيث تنضم الى زميلاتها لتجلس معهن فى الحديقة على النجيل الناعم تحت ظل شجرة وارفة ٠ كان يطيل الوقوف وراءها بعيدا عنها الى أن ترق له فتناديه وتفسح له مكانا ليجلس بجوارها ٠ حتى أصبح أحد معالم الشلة ٠

راح وقد تعلق بها ينتظـرها أمام فصـلها أو أى مكان تمارس فيه نشاطها الى أن تخرج فتعيده كارها الى فصله بعد أن تطيب خاطره ٠ لعلها وجـدت فى اصراره على تتبعهـا ما أثار طبيعتها وأيقظ فيها نزعة الأمومة ٠

رأت فيه طفلا هادئا خجـولا ، كثير الصمت والتأمل ، تتطلب نظراته الأرض دائما ، فاذا نظر اليها فكأنما ليسألها سؤالا لا يستطيع الافصاح عنـه ٠ وجـد من تشـجيعها له ما أزكى خياله وأطلق مشاعره ٠ كان فى حاجة الى أن يتعلق بها ٠

كان يكفيه وجودها ، فلا يذكر الآن كيف كان وصفها وشكلها أيام كان ينعم بقربها ، ولم يبلغ بعد السن الذى تتحدد فيه العلاقة بين الطفل والغير · ثم امتد به الخيال الى ما وراء الواقع · فأصبح يعيش معها اذا خلا الى نفسه فى غرفته بالسراية · يرسم لها وردة بالألوان تحوم حولها فراشة ويهديها ما يرسمه فى الصباح · دائما وردة واحدة وفراشة واحدة · أو يبنى لها بيتا من المكعبات يحيطه بسياج من زهور يقطفها من الحديقة · وكان لا يرضى لها بأقل من عشرين غرفة ·

كره أيام العطلات لأنها تبعده منها ، فتحايل ليبقى فى المدرسة بعد رحيل الأطفال ليزاملها فى حافلة البنات · قالت انها تسكن قريبا من بيته · سألته طالبة وهو جالس بجوار فتاته فى الحافلة :

ــ هل تحب حياة ؟

ولم تحظ السائلة المتخابثة بجواب ·· ولم تنتظره ·· كانت تسأل عن شىء واضح · ولم يكن الحب ، مما كان يسمعه، غريبا عن تلك المدرسة وكأن عرضا يتبدل ويتحول·

ولم يكفه كل هذا القرب · طلب من حياة أن يزورها فى بيتها بعد العودة من المدرسة فسمحت له ورحبت · زارها مرة أو مرتين مع المربية · ثم راح يزورها وحده حتى اعتاد على زيارتها · اذا عاد من المدرسة بقى مع أمه قليلا الى أن تأخذه المربية الى غرفته · يظل يستعطف المربية الى أن تأذن له بزيارة حياة اذا كان والده غائبا عن المدينة :

ــ شريطة ألا تتأخر الى المغرب ·

كان يجلس فى الصالة يتلقى الكلام والملاطفة من أفراد

آسرتها اذا تشاغلت حياة عنه فى آمر من أمورها ٠

كانت أم حياة شديدة الكلفة به ، تطيل الكلام معه فى مواضيع لا يفهمها ، يدور معظمها حول الأستاذ زوجها وعلاقته بوالده والباشا المدير :

ــ انت يا حسونة شبه مامتك تمام ٠

رأت أمه مرة فى سرح البلدية وآعجبت بجمالها وأناقتها ٠٠ ( تقولش ملكة ) ٠٠ تخاف ان زارتها آلا ترد والدته زيارتها ٠٠ لأنها لا ترد كما سمعت زيارة لأحد ٠ وكان لا ينقذه من ثرثرة والدة حياة الا وجود حياة معه أو عودتها من الخارج فى آحد مشاويرها ٠ حتى اذا جاء الوقت الذى لا يسمح فيه للصغار بالبقاء خارج بيوتهم عاد الى بيته بصحبة أحد خدم آبيه آو واحد من اخوانها ٠

# ٧

قابلها مرة صدفة فى الطريق وكانت مع صاحباتها فى طريقهن الى منتزه المدينة العام ٠ رحبت بأخذه معها ولم يجد من تابعه ممانعة تذكر ٠ كان فى ذلك المنتزه متاهة تدعى « سكة آبو زيد » لها جدران من العشب عالية ومسالك ملتوية متداخلة كم راقه البحث عنها فى دروب المتاهة الخادعة المحيرة ، فاذا عجز عن الاهتداء اليها سمعها تناديه من خلف الجدار العشبى ، فيجرى هنا وهناك ولا يجدها ، ثم تظهر فجأة أمامه من حيث لا يدرى وتغيب لتظهر مرة آخرى وهى تضحك من قلة حيلته ٠ وآخيرا جاءته وخرجا من المتاهة وهو ينهج من التعب ٠ سارا بعيدا الى مقعد متوار عن الأنظار ، ألقت بنفسها عليه فجلس بجوارها ٠ خيم عليهما سكون كان يسمع فيه صوت تنفسها ، وبين الحين والحين طائر يشقشق

أو نداء من بعيد • أرادت أن تسرى عنه وكانت تفهمه جيدا ولم يستجب على عادته لمداعبتها • قالت وهى تسلك شعره الطويل بأناملها :

ـ هل تحبنى كما أحبك ؟

أراد أن يفضى اليها بعواطفه ولكنها سبقته مسترسلة :

ـ سأتزوج رجلا جميلا مثلك •

فهم أنها تحبه ولم يجد ما يقوله لها • صمتت برهة ثم مدت ساعدها حوله وقربته منها فأسند رأسه الى صدرها • وفجأة أمسكته منكتفيه وأنزلته من علىالمقعد ثم احتضنته • استكانالى حضنها• ثم راحت تقبله فى فمه وخديه وعينيه • وزادت فأحكمت ساعديها حوله ، ثم أحكمتهما بقوة حتى كادت تزهق روحه •• أرخت ذراعيها فجأة فاستطاع أن ينفلت منها وجرى بعيدا يختبىء وراء جذع شجرة ، وقد روعته مداعبتها التى لم يتوقعها •

مر وقت الى أن جاءته وأخذته من يده ليعودا الى صاحباتها • كانت تقبض على يده بقوة وهى تسحبه وراءها ولم يتذمر • وفجأة توقفت عن السير واستدارت تواجهه ومازالت تقبض على يده وتؤلمه • أمسكت ذقنه بيدها الأخرى وأمالت رأسه الى الوراء حتى تلاقت عيونهما • قالت تحاذره فى نبرة لم يعهدها منها :

ـ اياك أن تقول لأحد •

لم تتكرر تلك الخلوة بينهما وان ود لو تكررت • عاش بذلك التدانى فعظم حبها فى قلبه وقوى هل درت بالأثر الذى أحدثه فيه تلطفها ومداعبتها ؟ داوم على زيارتها بعد انتهاء العام الدراسى كلما سنحت له فرصة • كان يقضى

أيام الأجازة وحده فى السراية حتى ضاقت عليه وضجر بمن فيهـا • عوضـه والداه عن وحدته باللعب الـكثيرة ولـم تعوضه اللعب عن السأم والوحدة ، كانت «الأوامر» ألا يتبسط فى الكلام مع أحد وخاصة الخدم • اذا مل البقاء فى غرفته خـرج يلعب فى شرفة الطـابق الثـانى المحيطة بالسراية كالسـوار • أو ينزل الى الحديقـة يتعقب الفراش ويصطاد الضفادع من حول الفسقية • كانت هنـاك دائما المربيـات العوانس والأرامل من قريبات والده ليكن فى خدمته •

كان لا يرى والديه الا أوقات الطعام أو اذا شاءا رؤيته • كانت أمه ضنينة عليه بعواطفها كما كانت بكلامها •

ــ لا تخرج الى الشارع بالـ « بسكلته » الجديدة •

توفرت له فى السراية كل أسباب الرفاهية الا الحب ، كأن الحب من الرفاهية ! طبع من أسرته على كبت عواطفه فانطلقت نحو أول انسان صادفه خارج الأسرة عطف عليه • • وكانت حياة • الى أن حـدث مالم يكن متوقعا ، مات والده فجأة اثر أزمة قلبية ، فقامت القيامة ولم يعـد الحـال فى السراية الى ما كان عليه قبل قيامها •

## ٨

اختارت والدته أن ترحل عن المدينة بعد موت زوجهـا لتعيش قرب أهلها فى القاهرة • عاشت ثمان سنوات كاملة غريبة بين غرباء عن علمها وفهمها • لم يعارض عمـه فى رحيلها وحضانة وحيدها ، سقابل تنازلها ضمنـا عن جميع حقوقها فى ميراث زوجها •

لم يحزن على موت أبيه حزنه المضاعف على فراق حياة •

هــداه حزن وفكر مع الأرق الى آن يطلب من حيــاة اهداءه صورتها المعلقة فى الصالون ضمن صــور عائلتها • كانت الصورة باطارها المذهب فى مساحة كراسة المدرسة •• مكبرة من صورة صغيرة تؤخــذ للبنات فى ذلك السن لتــكن تحت طلب الخاطبات وأهل الراغبين فى الزواج • خشى أن ترفض حياة طلبه فيخيب آمله ، فصور البنات لا تعطى هكذا لكل طالب وعلى الأخص الصور الكبيرة • ليت خياله الطفل هداه الى طلب صورة صغيرة ، فربما رضيت باهدائها له •

ولما كان حدث بينه وبين صورتها الـكبيرة فيما بعــد ما حدث •

فى صباح يوم السفر خرج من السراية متسللا حاملا معه حقيبته المدرسية • ذهب ليودع حياة مضمرا فى نفســه « أخذ » صورتها الكبيرة دون آن يراه آحد • رحبت كعادتها به وكانت لحسن ، أو سوء ، حظه بمفردها فى البيت • جلس فى مكانه المعتاد فى الصالة فراحت تتلطف معه فى الـكلام فلم تجد معه الملاطفة • وكأنهــا يئست من شروده ووجومه فتركته وشأنه ودخلت الشرفة • رآها من مجلسه فى الصالة تتبادل الاشارات واللفتات مع شاب فى نافذة المنزل المقابل لبيتها • قال لنفسه واللوعة تعتصر قلبه :

ــ ماذا وقد فقدتها الى الأبد •

واتته الفرصة فانتهزها • تسحب محاذرا ودخل غرفة الصالون ، اعتلى كرسيا كان موضوعا آسفل الصورة ثم نزع الصورة من مكانها وقفز بها الى الأرض • دسها فى حقيبته ثم آسرع متلصصا خارج البيت • جرى يحمله الثمين عندما احتواه الشارع ، وظل يجــرى ما آمكنه الى آن وصــل الى

السراية • وجد الجميع فى انتظاره وقد تأهبت والدته للسفر •

من غرائب القدر أن قدمه لم تطأ آسيوط بعد أن تركها مع والدته ، مع اختلاف شعوريهما نحو مسقط رأسه • سنحت أكثر من مناسبة لزيارة آسيوط خاصة عند افتتاح جامعتها سنة ١٩٥٨ وكان وقتها فى بعثة لأمريكا • انقطعت صلته بأفراد عائلة أبيه بعد وفاة عمه • باع عمه لحسابه قبيل وفاته ما ورثه عن والده لصغار الملاك بناء على طلبه • أما السراية فقد وضع عمه يده عليها محافظة منه على مكانة العائلة واسمها فى البلد • بذلك لم يعد له فى آسيوط شىء يربطه بها •

## ٩

استقر به المقام مع والدته فى بيت والده فى حى العباسية الشرقية • فرح أهل والدته بعودتها من منفاها كانوا على قلة عددهم اناسا طيبين فى وظائف متوسطة ، سرعان ما صدموا فى حالة والدته عندما تحققوا من عزوفها عن الناس وزهدها فى الحياة • أثقل ضميرهم شعورهم بالذنب والندم لتزويجها ممن لم يكن لهم أو لها ، لم يقترح أحد منهم وقد تبينوا ما أصابها أن تتزوج ومازالت فى شبابها • احترموا مشيئتها لتكرث حياتها على تربية وحيدها •

لما علمت فاطمة بعودة سيدتها الصغيرة الى القاهرة هجرت قريتها هى الأخرى وجاءت لتكون فى خدمتها • كانت قد تزوجت بابراهيم بعد زواج سيدتها • فرح القروى

الشاب ، وقد خرج من الجندية ، بعروسه القوية الفتية التى تربت فى بيت الأكابر فى أم الدنيا ، ثم أحبها لخصالها الحميدة ·

أخلص ابراهيم لفاطمة الود والحب فكلفت به وسيطرت عليه بطريقتها · رضى الزوجان بحياتهما الجديدة فى القاهرة بعد أن أسكنتهما أمه غرفتى الطابق الأرضى · كان قدرهما ألا ينجبا فوجدا فى سيدهما الصبى عوضا عن الخلف · أحباه كابنهما وكان مصدر سعادتهما ·

فى السنوات الأولى لاستيطانه القاهرة كان عم ابراهيم يرافقه أينما ذهب · الى أن أصبح فى السنة الرابعة الابتدائية فى مدرسة خليل آغا · قال لعم ابراهيم فى أول يوم فى العام الدراسى الجديد وكان ابراهيم فى انتظاره فى الصباح على أول السلم :

ــ أشكرك يا عم ابراهيم · لا تتعب نفسك بتوصيلى الى المدرسة أو مرافقتى فى العودة ·

ومن وقتها لم يعص عم ابراهيم أمرا لسيده ·

لما وجد والدته ممعنة فى وحدتها لجأ هو أيضا الى الوحدة · الا أنه لم يكن وحده · فعلى مكتبه الكبير الذى كان لوالده وضع صورة حياة وبقيت لسنوات فوقه · كان طيلة المرحلة الابتدائية يطيل النظر اليها أثناء مراجعته دروسه مستعيدا ذكرياته الحلوة مع صاحبتها · دفعه ميله للوحدة والبقاء أمام الصورة الى هواية القراءة والاطلاع · كانت غرفة المكتب والمكتبة لعظيم اشتراها والده من ورثته ، حوت مع المكتب وطقم جلد فاخر أربعة دواليب ملئت الى آخرها بكتب حوت العديد من العلوم والمعارف ، بالاضافة الى صور

لمشاهير الرسامين • تعود على حب القراءة فتفوق على أترابه •

من الغريب أن ذكرياته عن حياة أيام المدرسة أخذت تتقلص مع الوقت حتى كادت تتلاشى من ذاكرته تماما • تحول خيال الصبى الى خيال فتى يتصل بالواقع والحاضر ، وان بقيت الصورة فى مكانها على المكتب • كانت مع الصورة صور أخرى وتحف صغيرة تخص والده لا يجرؤ على رفعها أحد من مكانها احتراما لذكراه وهيبته التى لازمت الأسرة لوقت طويل بعد وفاته • لم يكن لوالدته اهتمام بمتعلقات والده وبالأخص ما حوته غرفة المكتب • سألته مرة الخالة فاطمة بعد أن نظفت المكتب وأعادت كل شىء الى مكانه :

ـ صورة مين دى يا حسين ؟

فنظر اليها نظرة جعلتها تبتلع سؤالها ، وأكفتها عن الجواب •

دخل مدرسة الخديوى اسماعيل فى العام الذى انتهت فيه الحرب • لم تؤثر حالة الحرب التى دامت ست سنوات فى حياة الأسرة الوادعة أو حتى شعروا بها • اقتضاه ذهابه الى المدرسة الثانوية فى حى السيدة زينب قضاء وقتا طويلا خارج البيت • وكان اشتراكه فى الأنشطة المدرسية يبقيه وقتا أطول •

فى احدى زيارات عمه الشهرية لأسرة أخيه الكبير المرحوم شكت له والدته من طول غياب ابنها عن البيت فى

مشاويره الى ومن المدرسة ، وخوفها عليه من بهدلة المواصلات ·

قال العم الطيب للأرملة التى حافظت على عهد آخيه ولم تتزوج من بعده :

ــ واحنا يخلصنا ياست أم حسين ان ابن الأكابر يمشى فى الشوارع زى الناس ويتشعلج فى الترمايات · وكان أن أهداهما سيارة جديدة ليست ، على حد قوله : «جد المجام» · سرعان ما تعلم عم ابراهيم سواقتها بعد أن تخلص من السائقين الملاعين وقرفهم واحدا بعد الآخر · قال لوالدته بعد أن رافقهم وشرب الصنعة منهم آنه تمرن جيدا على السواقة ، وانه تعلمها فى الجيش ، ثم آمكنه الحصول على رخصة للقيادة ·

أضافت السيارة الى البيت طابعا وامتدادا جديدا وأصبحت واحدة من معالمه · والأهم من هذا ان السيارة حصرت حياته بين البيت والمدرسة وعملت دون آن يشعر على امعانه فى الوحدة ·

## ١٠

كان عمره خمسة عشر عاما عندما حدث ذلك التحول العجيب فى الصورة · بدأ التحول فى سنة امتحان الثانوية العامة وقد طالت أوقات المذاكرة والسهر · فى ليلة كان يقرأ الرواية المقررة فى امتحان اللغة الانجليزية «اليتيم المعذب» ل « تشارلز ديكنز » غفا قليلا ثم تنبه على سماعه صوتا يناديه باسمه تردد النداء فى الغرفة الهادئة مما جعله يفيق تماما من غفوته · تلفت حوله فلم يجد آحدا سواه فى الغرفة وقع نظره على صورة حياة مصادفة وتخيل صوتها حينما

كانت تناديه أياما كانا معا فى آسيوط · وتخيل انها بادلته نظرته ·

أطال النظر الى الصورة مدققا فلاحظ أن الوجه ازداد حيوية · ظهر له عمق أبعده عن خلفية الصورة ، ثم ازداد تحديدا وتلاشت الخلفية الى آن بان الوجه وكأنه حقيقة · تحولت الصورة لناظرها الى فتاة مجسمة ترنو اليه داخل الاطار المذهب · تشكك فيما رآى وحسبه تخيلا ، فلما كلمته حياة قام فيه شبه يقين انها الحقيقة ·

« هل انتهيت من المذاكرة ؟ »

كان الصوت الحالم صوتها ، والنبرة الحنون نبرتها · تخدرت حواسه شعر بتنميل داخل رآسه · تجمد فكره · ثم خاطبته وهى تبتسم فى عتاب تعوده منها :

ــ هل نسيتنى ياحسين آنا دائما معك آتاملك وأسمعك ·

هزه ما حدث أمامه ولم يتوقعه آو تخيل حدوثه · سكن فى مقعده وقتا لا يعلم مداه الى أن أفاق من ذهوله واسترد وعيه كاملا · نظر الى الصورة فوجدها كعهده بها دائما ، ليست الا مجرد صورة ·

شعر باعياء شديد وتصبب جسمه عرقا باردا · آهمل مذاكرته ولجأ الى فراشه · غطى وجهه بالأغطية من الخوف ، وظل مؤرقا مضطربا الى آن غلبه النوم قبيل الفجر ·

مرت أيام وأسابيع ولم يحدث تغير فى الصورة · خاف اذا أطال النظر اليها تتكرر تجربته معها فيفزع ويتصدع كيانه · الى أن تزاحمت عليه الدروس قبل الامتحان · عاد يطيل النظر الى الصورة بدافع الفضول وليتآكد من انها لن تتحول · ولكن الفضول تحول الى رغبة ، والرغبة الى حنين

الح عليه ، ثم تحققت الرغبة وتجسم الحنين فتحولت الصورة فى النهاية الى « حياة » تكلمه وتسايره ٠

عندما بعثت « حياة » فى دورها الجديد كانت تكلمه بما يود سماعه ويتفق وهواه ٠ ثم آخذت مع الـوقت تتبـادلا الحديث وتدلى بأرائها ٠ وكان هو أيضـا يتحـول ، يفرح اذا أحس انها « آتية » ، يرى اطار الصورة يختفى فى بطء كأنه يذوب ، وتكبر حيـاة لتصبح فتـاة فى عمره او أكبر قليلا ولكنها أعقل وأحكم ٠ هكذا أصبحت « حيـاة » كمـا تمناها ثم أرادها ٠

فاذا فرغ من المذاكرة وغالبه النوم صغرت حياة وعادت الى صورة داخل اطارها ٠ هذا ما كان يحدث وهو مالك تماما لوعيه ٠ ولم ينته الامتحان وتبدأ الأجازة الصيفية حتى كانا يتبادلان الحديث والمناجاة كأى شريكين جمعهما عالم خاص بهما ٠

وكان هذا حالهما لسنوات ٠ يعيش مع حياة ولها ٠ اذا عاد من المدرسة ، أو كلية العلوم فيمـا بعد ، لجأ الى غرفة المكتب وبقى فيهـا مساءه ومعظم ليله ٠ كانت تحثـه عـلى المذاكرة خلال سنة امتحان التوجيهية قبل دخوله الجامعة ٠ ما كان من مسـائل الطبيعة والميكانيـكا والكيمياء صعبـا مستعصيا ، يصبح مع التشجيع والمثابرة سـهلا وكأنه لعبة أطفال ٠ كانت تسأله عما يقرأ فيفضى اليها بما يذاكره ، موضوعـا فى الكم والكيف ، أو التكـامل والتفـاضل ، أو الكيمياء النظرية ، فتبتسم مشفقة عليه مما يحصله « أهذا ما تأخذونه حقا فى المدرسة » ٠

اذا فرغا من المذاكرة تحادثا فى مواضيع خارج المذاكرة ٠

يستشيرها فى كل كبيرة وصغيرة ، ويبوح لها بآماله وأمانيه ٠
وهى التى اختارت له كلية العلوم لأنها ٠
« تناسبك وتتفق وميولك »

ثم اختارت له علم النبات لتخصصه ٠ قالت تتملقه وتمازحه ، تماما كما كانت تفعل معه أيام كانا معا ، « أنت كالنبات ٠ فى بهائه ونضارته ٠ فى ثباته ودأبه وعطائه »

طار به عم ابراهيم عائدا الى البيت يوم ظهور نتيجة البكالوريوس ، لايبالى باشارات المرور فى الطريق ، يريد أن يفرح « الست هانم » الوالدة والخالة فاطمة ، وكانوا يعيشوان بهذا اليوم ٠ فرحت والدته ما وسعتها الفرحة وأظهرت شعورها بدموع تلألأت على خديها ٠ أهداه عمه سيارة جديدة « رالى » تعبيرا عن فرحة العائلة ٠

ــ عربية « زبور » تليق بمجامك يازين شباب العيلة ياسيد الكل ٠

فى ليلة نجاحه ، وفرحته وفرحتها ، طلبت منه حياة ألا يتسلى عنها بحياته العملية فينساها ٠ تحادثا طويلا عن المستقبل ٠ شعر ليلتها انها لا تمت الى الواقع ٠ مجرد خيال ٠ صورة ، ان كان لها ماضى فليس لها مستقبل ٠٠ قالت تسايره :

« ستكون معيدا فى قسم النبات ٠ ثم أستاذا ملء الدنيا ٠ وستنسانى قريبا جدا »

أجابها فى لهجة فيها شفقة وسخرية ٠
ــ لن أنساك أبدا ٠

كذلك كانت أيام جمعتهما المدرسة ، تشفق عليه من قلة حيلته وتسخر من سذاجته ٠ كأن موقع كل منهما من

الآخر قد تبدل أصبح هو الكبير الحانى ، وهى الصغيرة تصبو لعطفه وحنانه ٠

## ١١

شغل فى العام الذى تلى تخرجه بعمله وشؤونه الخاصة ٠ كانت ثورة يوليو قد استقرت ووضحت الرؤية لمجتمع المستقبل٠ كانت كلية العلوم معقل الاشتراكية قبل الثورة ، وكان بحكم انتمائه الى الكلية التى أبهما دائما يكره الاقطاع والظلم الاجتماعى ٠ توفر له ، وهو ابن جناة الثمر ، أكثر من سبب ليكره ظلم استبداد الطبقة الغنية للطبقة العريضة الغارقة فى الفقر والجهل ٠ كان بداخله ، رغم هدوئه وتحفظه ، ثورة فاقت الثورة ٠

سلمه عمه ميراث أبيه بعد أن أخذت الثورة منه ما أخذت٠ لم يكن به رغبة فى الأرض رمز الاقطاع ، لذلك طلب من عمه أن يبيع أرضه لصغار الملاك والفلاحين ٠ اشترى بثمنها عمارة فى مصر الجديدة تدر عليه ما يكفيه ويزيد كثيرا عن حاجاته ، وأرض للبناء فى شارع الهرم ٠ تنازل لعمه عن السراية فى أسيوط عرفانا منه بجميله عليه أثناء فترة وصايته ٠ آمن أن ثروة المرء فى قدراته وعمله وثقته بنفسه ٠

كانت فترة انتقال من عهد الى عهد ، وبالنسبة له من حياة الى حياة ٠ فتحت له آفاقا لم يكن له عهد بها ٠ رأى العالم على حقيقته عندما تعامل مع الناس وخبرهم ٠ يجور انسان على أخيه الانسان اذا تمكن منه ٠رأى العقل والغريزة، كما درسهما فى كلية العلوم ، يعملان جنبا الى جنب ،

ولم يسره ما رأى · أيقن أن الانسان قوى كريم بعقله ، ضعيف جائر بغرائزه ، يبنى حوله قلعة لايراها أو يشعر بها، لبناتها التقليد والعرف ·· والوهم · خداع · كلما تقدم به العمر زاد فى تحصينها · رأى آباه وعمه بنظرة الواقع الجديدة · جاء كل ذلك الادراك متأخرا ، ولكن ليس قبل فوات الأوان ونظر فى نفسه فوجد أنه ، دون أن يدرى ، قد أحاط نفسه منذ طفولته بقلعة جدرانها من نوع آخر ·· الخيال والانطوائية ·· ولم ير قلعته أو خطر على باله يوما انه عاش فى وحدة · الا عندما تكشفت له قلاع الآخرين ·

فى ذلك العام ندر تواجده فى غرفة المكتب · فاذا جلس وراء مكتبه تحاشى النظر الى صورة حياة وتجاهلها · الى أن جاء عام آخر ، عاد الى بيته فى ليلة اشتد بردها · عصفت الريح وانهمر المطر · أظلمت البيوت والحوانيت وأقفرت الشوارع والمقاهى · خيمت الكآبة على الحى كله ونفذت الى أعماقه · دخل بيته متأففا ولاذ بغرفة المكتب · أخذ كتابا كيفما اتفق ثم تمدد على المقعد الطويل وراح يقرأ ، كانت رواية « صرعى الأوهام » للكاتب الألمانى «هرمان سودرمان»، استغرق فى قراءتها الى منتصف الليل · تذكر أن عليه تحضير محاضرة فى الصباح · قام الى مكتبه لتحضير الدرس · وبينما هو يكتبه نظرالى صورة حياة لعلها ترفع عنه وجومه ، خيل اليه أنها تنظر اليه ، وكان فى نظرتها عتاب ، كأنها كانت تنتظره وتترقب حضوره ، ابتسمت له ابتسامة واهنة، أضاءت كل وجهها وكأن شاحبا · كانت تنتظره داخل اطارها ، أكان هذا توهما وتخيلا ؟

كره بمنطقه الجديد أن تعاوده خبرته السابقة مع

الصورة ، معتقدا انه كبر عن العبث وتأثره بها . كلم الصورة ليقنع نفسه أنه قد برىء من جنونه :

« أنظرى الى ما فعلتــه بى . ماذا تــريدين منى ؟ استحوذت على داخلى وسلبتنى نفسى جعلتنى أعيش طول عمرى بلانفس تصلنى بالناس وآتعامل بهـا معهم . لو كانت النفوس تشــترى لاشــتريت لى واحدة ولو ضحيت بكل عزيز لدى . عز عليك أن تفكى أسارى وتطلقى حريتى . »

عبر عما فى نفسه غير مبال ولا مقدر لما كان بينهما . نفس عن وجومه وغضبه حتى عادت اليه طبيعته الهادئة فقال لها مستطردا .

« على أنى أحسن بكثير من غيرى ، ومما كان متوقعا لمن كان فى مثل حالى . نجحت فى الباسى ثوب الوحدة . تباعدت عن الناس حتى لا حاجة لى بهم . لا أكاد أصلهم حتى أقيم سدا بينى وبينهم .

لم تكن لى قدرة على اختراق ذلك الحاجز الغير مرئى . لايكادوا يصلونى حتى يحول الحاجز بينهم وبينى .

لكنى أحب عملى الآن وآتفانى فيه . وأحب الناس أيضا وأتمنى خدمتهم . أعلم الآن أن عمــلى هــو قناعى وقلعتى اللذين أحتمى وراءهما من سهام المغــرضين وما أكثرهم . فلا تشغلى بالك على ولا تهتمى . »

هدأ بعد أن قال ما قاله . نظر الى الصورة ليطمئن الى أن حياة لن تخرج من اطارها . ولكنه رأى الابتسامة الواهنة تغيض عن الوجه الشاحب ، واشراقة الوجه التى تنعم بهـا طويلا تنطفىء . سكنت الصورة كأن الحيــاة قد فارقتها .

أصبحت بعد تلك الليلة مجرد صورة لها ماضى بعيد ٠ وكأنه لم يكن بينها وبينه أشياء ٠

أعاده الاستعداد للماجستير الى غرفة المكتب ٠ أصبحت حياته تدور فى حلقة مفـرغة من الكلية والبيت ٠ وظلت الصورة فى مكانها وان لم يعـرها التفاتا ٠ كان قد خلص تماما من الذكريات والأوهام ٠ حاول بضع مرات أن يضفى على الصورة ماتبقى من خياله ليرى هل تعود اليها الحيـاة ، ولكن الحياة أبت أن تعود اليها ٠ وفى النهاية أهملها ٠٠ بل ضجر بها كما ضجر من ماضيه كله فرفعهـا من مكانها على المكتب ووضعها فى الدرج الأسفل العميق حيث عثر عليها الليلة بعد أن نسيها تماما ٠

## ١٢

لم يكن حصوله على الدكتوراه صعبا ، ولا كان بالنسبة له أملا عزيز المنال ٠ سافر بعد حصوله على الشهادة المرموقة الى بعثة فى انجلترا ٠ فتح الغرب أمامه آفاقا جديدة عريضة فى العلوم والفنون والثقافة ٠ أدرك أن بلده فى حاجة الى معنـويات جـديدة تعينهـا عـلى التغلب عـلى حرمانهـا المادى ، فهل تكسبها الاشتراكية مع الحرية معنويات جديدة ؟

الا أن الغرب لم يـرق له كثيرا ، ولم يطلق عـواطفه المحبطة ، بل زاد من طبيعته الجادة الوقورة ، ومن شـعوره بالوحدة وحنينه الى ماينتمى ٠ حيث الشرق والغرب فى مكان واحـد القـاهرة ٠ ولـكن الحياة فى القاهرة بعـد عودته من البعثة التى دامت سنتين لم تخفف من شعوره بالوحدة أو تملأ كثيرا من فراغه الداخلى ٠ داوى نفسه بالعمل وانخرط

فيه ، وأثمر عمله فعاد عليه تقديرا واحتراما من الزملاء والطلبة سواء ٠

من حسن حظه أن بقيت له من عواطفه الكفاية ليتعامل بها مع المحيطين به ٠ لم تقصر ، كما كان متوقعا ، عاطفته عن تفكيره وذكائه المفرط ٠ كان معرضا بسبب خبرته مع الصورة وصاحبتها لانفصال عاطفته عن تفكيره ولم يحدث ٠ ذلك ماحفظ عليه شخصيته المتماسكة الجاذبة ، على انطوائه وتحفظه ٠

لم يظهر ما بداخله على المحيطين به وخاصة الطلبة ٠ شاء أن يجنب طلبته حاله ومصيره ٠ شاركهم أنشطتهم الاجتماعية والرياضية ، وأعانهم بالتوجيه والنصيحة والدروس الخصوصية دون مقابل ٠ ساعد رقيقى الحال منهم من ماله دون جرح شعورهم فأحبوه وحفظوا له صنيعه ٠ لم تغره المظاهر أو تستهويه الشهرة ٠ ابتعد عن الأضواء والضوضاء ٠ أيقن أن ارستقراطية الفكر والطبقة باقية مهما حاول المغرضون التقليل من شأنها وهيبتها ٠ اعتقد أن الثورة قامت فى مصر قبل أوانها بخمسين عاما على الأقل ٠ كان مثاليا فى جامعة المفروض أنها معقل المثالية ٠

حاول جاهدا الخروج من قلعته ، وكان وحيدا على أشد ما تكون عليه الوحدة ٠ ماتت أمه منذ ست سنوات تقريبا ٠ انزوت فى غرفتها فترة طويلة ، أدارت وجهها عن البيت ومن فيه كما سبق أن أدارته عن الحياة كلها ٠ قالت فاطمة ان ست هانم لم تعد تعرفها أو ابراهيم :

ــ من أنا ياماما ؟

ــ أنت أنت الحبيب الغالى ٠

قال الطبيب انهـــا لا تشـكو مرضـــا · فقط ذهب عقلها · ذوت كما يذوى النبات · ثم ذهبت بعد عام وعمرها أربع وأربعين سنة · لم يحزن على فراقها الا قليلا مع أنها ضحت بنفسها من آجله وكرست حياتها عليه وحده · لم تكن له نفسا يتطرق الحزن اليها · وكيف يحزن من ملأ قلبه الحزن وفاض به ·

توقفت الذكريات بالدكتـور حسين · وتآمـل لمـاذا استحوذت «حياة» ثم صورتها من بعدها على نفسه · عـاش معهما أحلى أيام حياته · ولم يجد لذلك تعليلا الا آنه قدره· دعا مخلصا أن يتحول القدر ويسدل على الماضى كله ستار ·

توطدت الصلة بين أستاذ النبات والطالبة رجاء ، الا أنها لم تتعد التقليد الجامعى · انضمت رجـاء الى مجموعة الطلبة المعجبين بشخصية الآسـتاذ المهتم بشـئونهم الخاصة والحريص على مستقبلهم · شملها الدكتور حسين ، كغيرها ، برعايته وعنايته · كان الحديث بينهما يتطرق آحيـانا الى أمورها الخاصة · عرفت رجاء آن آستاذها من آسيوط أصلا ، ثم عرفت فيما بعد لم آضاع لهجته الأسيوطية · ولم يتأثر الدكتور حسين بشخصية الطالبة رجاء كما كان متوقعا · فى أولالأمر كان يتجنب النظر اليها آو الاسترسال فى الكلام معها ، ومع الوقت ازداد تعارفه بها ولم ير فيها الا آنها طالبة ككل الطالبات ·· لايميزها عن غيرها الا شخصيتها الخاصة ·

كان واقعيا الى حد كبير فلم ير فى رجاء «حياة» بعثت من جديد · بل وجد فى رجاء حلا لعقدته مع حياة · كانت حياة ، هى رمز الحبيبة والأم معا · ولم يجد من ذلك شـيئا فى رجاء · كأن رجاء داوته ممن كانت الداء ·

استمرت العلاقة محددة واضحة بين الأستاذ والطالبة وازدادت وثوقا على مدى عامين الى آن تخرجت رجاء فى علم النبات • حصلت على مجموع لا بأس به الا آنه لا يؤهلها لتكون معيدة فى القسم • لم تكن طالبة ممتازة •

يوم ظهور النتيجة زارت رجاء أستاذها فى مكتبه لتشكره وكانت بصحبة زميل لها تخرج قبلها بعام • وضح آن مابينهما كان أكثر من زمالة • هنأها الاستاذ على نجاحها متمنيا لها مستقبلا سعيدا •

تبادل الثلاثة مايجرى عادة من حديث فى هذه المناسبة السارة ، عن المشاريع والآمال • سر الأستاذ بما سمعه من خيال شابين محبين فى مطلع حياتهما • خيال يسانده الواقع • ووجد نفسه يسأل رجاء سؤالا ألح عليه محاولا اخفاء فضوله •

ــ أعتقد أن عليك مهام آسرية •

أجابت الطالبة وقد سرها اهتمام آستاذها بأمورها الخاصة •

ــ نعم ، فقد ماتت والدتى منذ عشر سنوات تقريبا •

## خاتمة

كان هذا آخر عهدى بالدكتور حسين ، ولكنى كنت أتابع أخباره من بعيد • تحسنت حالته تحسنا كبيرا مضطردا • انطلقت عواطفه التى طالما حبسها داخله كما زايله انطواؤه تماما • خلص من عقدته واستعاد دوافعه كاملة • قد يكون الظن أو الاعتقاد قد ذهب بالدكتور حسين الى آن والدة رجاء التى ماتت منذ عشر سنوات تقريبا هى «حياة» • وآن صورة

حياة انطفأت وزايلها الاشراق ساعة موتها في تلك الليلة الكئيبة من شتاء العام الذى تلى تخرجه فى الجامعة • الا أن هذا الاعتقاد فى تلك الظاهرة العجيبة لم يؤثر فيه • فالعلماء عادة لا يعتقدون كثيرا فى بعض الظواهر غير الملموسة • قد تكون أو لا تكون • فهل هذا يغير من واقع الحياة وهى مليئة بالأقدار والمصادفات ؟

لم يمض وقت طويل حتى قابل من أحبها وتزوجها ، ثم أنجبا طفلين توجا بهما ، كما تقول القصص ، حياتهما • وليس من العجيب أن زوجة الدكتور حسين ، وقد عرفت منه حكايته مع الصورة كما شاهدت الصورة نفسها قبل أن يتزوجا ، أصرت على تسمية طفلتها الأولى « حياة » •

انتقلت الأسرة الى فيلا حديثة البناء فى شارع الهرم ، وكان الزوجان السعيدان قد كرها العيش فى بيت العباسية لقدمه وتداعيه • ولم يبق للدكتور حسين ما يذكره بالماضى الا العجوزان •• الخالة فاطمة وزوجها عم ابراهيم •

# السر فى الاختراع

فى حر الغرفة الخانق كان المهندس ينتظر الطبيب بصبر فارغ فلما دخل عليه صاح قائلا :

ـ هيه طمنى ٠

أجاب الطبيب متهللا :

ـ نجحت التجربة نجاحا مذهلا ٠

كان الطبيب فرحا للنتيجة الباهرة التى حصل عليها من تجربة على مريض ٠ ألقى بنفسه على مقعد اعتاد الجلوس عليه طوال خمسة عشر عاما آخرج من جيبه الداخلى ورقة فردها بعناية ثم وضعها على طاولة الشغل تحت عينى المهندس ليقرأها بنفسه ٠ أمسك المهندس بالورقة فى تلهف وراح يقرأ ما دونه الطبيب :

الوقت : ١٣ : ١١ فراغ

الوقت : ٢٤ : ١٢ أحى أنا أم ميت ؟ هل يشعر الموتى ؟

الوقت : ٣٣ : ١٣ من أكون اذا لم أكن؟ روح بلا جسد!

الوقت : ٤١ : ١٣ أهذه هى النهاية ؟ الآخرة ! ٠

رفع المهندس عينيه عن الورقة وثبتهما على عينى الطبيب الجامس أمامه · سأله :

ـ أهذا كل ما فكر فيه مريضك ؟

ـ نعم ، وعلى مدى أربع ساعات كاملة · انه فى غيبوبة تامة ·

ـ هل تمتد به طويلا ؟

ـ الأمل كبير فى خروجه منها ، الا أن أحدا لا يمكنه التنبؤ بما قد يحدث له من مضاعفات ·

ـ اذن ، نستمر فى سماع « أفكاره » الى أن يسترد وعيه ·· قد لا يكون أمامنا وقت طويل يفى بالغرض · هل أبان رسم المخ من أين تأتى الأفكار ؟

ـ الى الآن ، لا · لعل القائلين أن العقل والمخ شيئان مختلفان على صواب ·

ـ كلام فارغ · العقل والمخ شىء واحد · العقل نتيجة عمل المخ ·· كومبيوتر ·

ـ إعتقادك هذا لأنك مهندس ·

ـ صحيح · نسيت انك طبيب وفيلسوف · هيا ، عد الى عملك واتركنى لعملى · كفانا مناقشات ومتاهات ·

الى هذا الحد كانت أعصاب الاثنين مشدودة ومرهقة ·

غادر الطبيب قسم « الصناعات الطبية » فى المبنى العتيق · يعتريه شعور بالفرح والرهبة من عظم الاختراع الذى توصل اليه هو وزميله المهندس بعد بحث وعمل شاق متواصل استمر خمس عشرة سنة · اجتاز الطبيب بسيارته المرسيدس القديمة بوابة كلية الهندسة وانعطف يمينا مرتين ثم انطلق بها مسرعا لا يلوى على شىء الى أن وصل الى

المستشفى الجامعى . ترك سيارته تحت الشمس الحــارقة وأسرع الخطا الى قسم الأعصاب الذى يرأسه . اتجه مباشرة الى غرفة المريض ، دخلها والتقط لــوحة معدنية ثقيلة من على منضدة بجوار السرير عليها أوراق مشاهدة المريض ، راح يتفحص الأوراق .

التاريخ : ١٩٨٢/٨/١٠

الاسم : مجهول .

السن : حوالى ٤٠ سنة .

التشخيص : ارتجاج فى المخ ــ غيبــوبة تامة ــ كسر بسيط فى عظمتى الترقوة والفخــذ الأيسرين . ( حادث سيارة )

النبض : ممتلىء ــ منتظم ــ ٦٦ فى الدقيقة .

الضغط : ١٤٠/٨٥

التنفس : هادىء ــ عميق ــ منتظم ــ ١٨ فى الدقيقة .

الجهاز العصبى : الأفعال المنعكسة ، ضعيفة . حــدقة العين ، متسعة ثابتــة . الانعكاســات الحيــوية ، موجودة ، ضعيفة .

ملاحظات : توقف المحاليل فى الوريد . يغذى صناعيا كل ست ساعات . تؤخذ المؤشرات الحيوية كل أربع ساعات . قسطرة للبول عند اللزوم . يراعى الهــدوء التام . تمنع الشرطة من استجوابه الى آن يفيق تماما من يبوبتغه .

امضاء : نائب قسم الأمراض العصبية

جاء الطبيب النائب وحيا استاذه باحترام ملؤه الاعجاب والتزلف . نطق خليطا من الانجليزية والعربية :

ــ أعتقد أن المريض يتحسن يا سيدى .

تكلف الأستاذ ابتسامة ليظهر رضاه على الطبيب النائب .

ـ في يدك البركة • انقلوه الى مكتبى لأعاود معه رسم المخ •

كان النـائب قد لمس اهتمـام الأستاذ بالمريض مادام المريض فى غيبوبة •

ـ حالا يا سيدى •

هرول النائب بهمة الحريص على مستقبله ونادى عـلى ممرضين دفعا بالمريض على سريره عبر الطرقة الى داخـل مكتب الأسـتاذ ، ثم خرج الجميع تاركين المريض فى رعاية الأستاذ نفسه •

لم يضيع الأستاذ وقتا • قفل البـاب عليـه والمريض بالمفتاح وأضاء المصباح الأحمر المثبت فوقالباب من الخارج• اتجـه الى دولابه الخـاص وفتحه بمفتـاح يحتفظ به فى جيبه ، ثم أخرج منه جهازا متوسط الوزن والحجم ، أبعدها ما يكون عن جمال ولمعان الأجهزة الطبية • وضـع الجهاز على المكتب ثم وصله بسلك غليظ بجهاز رسم المخ الكهربائى على يمين المكتب ، اتجه الى المريض الساجى على سريره عـلى يسار المكتب وألبس رأسه طاقية من البلاستك رمادية اللون يخرج منها عشرة أسـلاك طويلة تتصل بجهـاز رسم المخ • جلس الطبيب الى مكتبه ووضع على أذنيه سـماعتين نصف كرويتين ، متصلتين بجهـاز الاختراع ثم شـدهما الى أذنيه بابط وسط ركاب حول رأسه •

ـ الآن نبدأ اجراء التجربة المثيرة •

شغل الطبيب جهاز رسم المخ فتحركت على طاورته عشر ابر متجاورة تخطط بمداد أسود على شريط من الورق ذبذبات مختلفة الأشكال • انصت من خلال السماعتين الى ما عسـاه

يجود به المريض من « أفكار » فلم يسمع الا صوت فحيح الابر على الورق ٠٠ حيح ٠٠ حيح ٠ ليته يفكر ٠ ومرت ساعة خالها الطبيب دهرا ٠ شريط الورق يزحف ببطء على جهاز رسم المخ من بدايتها الى نهايتها ، الى حيث يطوى طية فوق فى درج مثبت بجانب الجهاز ٠ طية فوق طية لا تتوقف ٠

فجأة نشطت حركة الابر نشاطا محموما ، كأنها كلاب صيد تريد الفكاك من عقالها ٠ تقلصت أصابع الطبيب على القلم استعدادا لتدوين أفكار المريض :

الوقت : ١٤ : ١١ ظلام ٠ الشاحنة تقبل مسرعة كالطود ٠ حانت لحظة الخلاص ٠ ما أجمل الموت ، ما أرحمه ، أنا أفكر ٠ هل يفكر الموتى ؟

الوقت : ١٠ : ١٧ ما هذا الذى أسمعه ( يسمع الطبيب طنينا ) ٠ رأسى تؤلمنى ٠ صداع ٠٠ نعم صداع ٠

الوقت : ٤١ : ١٧ أمينة ٠ كم بكت منى ٠٠ هل تبكى على ؟ مت لأرتاح ويرتاح الجميع منى ٠

الوقت : ٥٦ : ١٧ أمينة أرجوك لا تبكى فأنا أتعذب ٠ لست غيرى من سعاد أختى ، انما أنا غاضبة عليك يا خائن ( صوت مغاير لصوت المريض ) كم غفرت لك خطاياك ، انشغالك بأختى خطيئة لا تغتفر ٠

أشارت الذبذبات الى دخول المريض فى حالة نوم عميق من الدرجة الرابعة ، ثم تباطأت مرة أخرى الى ثلاث فى الثانية ، دلالة على دخوله فى حالة غيبوبة ٠ لم يكن فى الحسبان سماع الطبيب للحلم ٠ من أين تأتى الأحلام ؟ من العقل الباطن كما قال « فرويد » العظيم : الحلم رسالة

ناطقة ملونة · فكر الطبيب « هل نتمكن من تصوير الأحلام على أفلام كما نسمع الآن الأفكار ؟ »

لم يتمالك أن ضحك على شطحات تخيله ، سكتت الأفكار واستمر الطبيب ينصت الى السماعتين عسى المريض يجــود بقدر أوفر ·

أخيرا أمكن لزميله المهندس تحويل النبضات الكهربائية للمخ الى موجات صوتية ، حلم عاود أخيلة أطباء الأعصاب منذ اختراع جهاز رسم المخ الكهربائى · أفضى الطبيب الى المهندس بالحلم ، ومن وقتها وهما يعملان بنشاط ودأب على تحقيقه · كم أخفقا ويئسا ، ثم تبدو بادرة أمل تعيدهما الى حيث انتهيا ، فيبدأ من جديد بصبر ومثابرة · تملكت فكرة الاختراع منهما حتى آفنيا فيه حياتهما · فلما آثمر الجهــد وتم صنع الجهاز ، منعتهما « الأخلاق » من تجربته على الغير حتى لا يضطرا الى الافضاء بفكرة الاختراع · جرباه عــلى نفســيهما آولا فســمعا ضــوضاء وهمهمة وقعقعة ، ربمــا لاختلاط الأفكار الشعورية باللاشعورية · وربما ، فى رأى الطبيب ، بسبب خوفهما ومقاومتهما شــعوريا ولا شــعوريا لفكرة الاختراع · وأخيرا اهتديا الى فكرة تجربة الجهاز على مريض فى غيبوبة تامة حتى يتفــاديا الأفكار الشــعورية ، وها هى التجربة تنجح نجاحا باهرا ، سيمكنهما طبعا تعبئة الأفكار فى « كاست » ، آو تحويلها الى كلمات مطبــوعة · سيجلس كاتب المستقبل على شاطىء البحر آو فى حديقة آو برجه العاجى ، استرسل الطبيب فى تآمله ، ويملى آفكاره دون أن يتعب نفسه فى الكتابة ·

كـوفىء الطبيب عـلى صبره وانتظاره بسـماع الابر
تتصارع على شريط الورق ·· حيح ·· حيح ·· حيح ·
الوقت : ٢٤ : ١٩ سعاد ، حولت صحراء حيـاتى الى
جنة · أرحت عنائى ، أسعدت شقائى ، أضأت ليلى،
كم تعذبت فى حبك ·

الوقت : ٥١ : ١٩ ليتك ما كنت شقيقة زوجتى ، أو
زوجة ذلك الغافل عنك بعمله ، آه من الصداع ،
الضياع ·

سـمع الطبيب طنينا طـويلا ، أعقبـه همهمة وقعقعة
وضـوضاء · أفاق المريض من غيبـوبته · سـمع الطبيب
ضوضاء الوعى فى عقل المريض ، نظر الطبيب الى المريض
فوجده قد فتح عينيه · تباطآت حركة الابر الى عشر ذبذبات
فى الثانية ·

يا للحظ العثر ، لم يغربل المكثف أو المحلل اللعينـان
الأفكار الواعية عن اللاواعية · ولـكن الطبيب حمـد الله
على سـلامة المريض · خلع السـماعتين عن آذنه ووضعهما
عـلى المكتب ، فصـل التيـار الكهربائى عن جهـاز رسم
المخ ، ثم قام وخلع الطاقية عن رأس المريض ، نظر اليـه
المريض نظرة مستفهمة ··
ـ ما اسمك ؟
ـ أحمد ··
ـ أحمد من ؟
ـ أحمد عبد الرحمن الرشيدى ·
عاد الطبيب الى مكتبه وفصل جهاز الاختراع عن جهاز
رسم المخ ، ثم حمله ووضعه فى الدولاب وقفل عليه بالمفتاح ،

جمع الأوراق الخاصة بالتجربة ووضعها فى حقيبته ، غادر القسم بعد أن أعطى تعليماته الى النائب ٠

فى المساء اتصل المهندس بالطبيب ليطمئن على سير التجربة ، قالت زوجة الطبيب أنه سافر الى البلد لأمر لم تتبينه :

ـ قال أنه سيكون فى المستشفى غدا ان شاء الله ٠

وفى الصباح استقبل النائب آستاذه كالمعتاد بالترحاب ٠ كان حائرا فيما سيقوله لأستاذه ، هل يفرحه أم يحزنه :

ـ استرد المريض وعيه كاملا فى المساء يا سيدى ٠

سارا معا الى أن دخلا مكتب الأستاذ ٠ قال النائب مسترسلا :

ـ اتصلنا بزوجته عن طريق شرطة المستشفى وهى الآن معه ، اعتقدت أن المريض كان مسافرا فى عمل ٠ سيدة راقية من عائلة طيبة ٠ فى عينها مسحة من حزن لم تمحها الفرحة بسلامة زوجها ، هل تود رؤية المريض الآن ياسيدى؟

ـ لا ، فيما بعد ، آشكرك ٠ فقط أرسل لى أوراق مشاهداته ٠

التاريخ : ١٩٨٢/٨/١١

اسم المريض : أحمد عبد الرحمن الرشيدى ٠

السن : ٤٣ سنة ٠

المهنة : تاجر ٠

العنوان : ١٣٥ شارع جابر بن حيان ، الدقى ٠

الحالة الاجتماعية : متزوج وعنده ثلاثة أولاد ٠

ملاحظات : يؤخذ رأى السيد نائب قسم الأمراض النفسية (محاولة انتحار) ٠ ملاحظة دائمة وتؤخذ

المؤشرات الحيوية كل ست ساعات • راحة تامة فى الفراش مدة أسبوع ، يسمح لأفراد أسرته فقط بالزيارة •

غادر الطبيب المستشفى الى كلية الهندسة حيث كان زميله المهندس ينتظره على أحر من الجمر • بادره بسؤاله :

ـ بالله عليك ، أين كنت البارحة ؟!

ـ أعطيت نفسى أجازة منك ليلة واحدة •

أخرج الطبيب من حقيبته الأوراق الخاصة بالتجربة ووضعها على طاولة الشغل أمام المهندس ، رائحة الأسلاك الملحومة والزيت الطيار مع الحر الخانق تزكم الأنوف ، تضيق الصدور ، تفرى الأعصاب المرهقة •

قال الطبيب بينما المهندس يتفحص الأوراق :

ـ هذا كل ما حصلت عليه من المريض الى أن أفاق تماما من غيبوبته • ان اختراعك هذا رهيب حقا • فوت المهندس ملاحظة الطبيب الأخيرة وكأنه لم يسمعها • راح يقلب فى الأوراق مضاهيا الأفكار بذبذبات التخطيط مع التوقيت • أسف أسفا شديدا على خلط الأفكار حالما استرد المريض وعيه •

مرات لا يحصى عددها أخفق المهندس فى تعديل المكثف والمحلل ليؤديا الغرض • وما كاد ينتهى من فحص الأوراق المكومة أمامه حتى أصابته نوبة من الزهور والفرح • انتفض من على كرسيه واقفا ودار حول طاولة الشغل الى أن توسط الغرفة وهو يتثنى ويهلل :

ـ الله أكبر • سمعنا الأفكار وهى تدور فى العقول ، الله أكبر ، أعظم اكتشاف طبى بعد اكتشاف الدورة الدموية

سنة ١٦٢٠ ، والأشعة السينية سنة ١٨٩٦ . لا أقل من جائزة نوبل . سنتقاسمها انت وآنا يا عزيزى فتصبح من الأغنياء ، حقيقة ، من جد وجد ومن صبر نال .

فوجىء المهندس بفتور مشاعر زميله فتوقف عن الهرج وقال له معاتبا :

ــ ماذا دهاك يا رجل ! ألا تدرك أهمية اختراعنا فتشاركنى فرحتى ، لم يعد الاختراع حلما داعب خيالنا .

ــ لا تهمنى الشهرة ولا أطلب مالا . لو جريت وراء المال لاتخذت لى عيادة خاصة أو بنيت مستشفى . مايسعدنى أن يقال انى من أنبل الأطباء . ولكن هذا الاختراع ، مع الأسف ، لن يؤهلنى لهذا الشرف . مازال الطريق أمامنا طويلا حتى نصل بالجهاز الى الكمال المنشود ، لن يرضينا التوقف عند هذا الحد الوليد وان حققنا الفكرة . لا تكن خادعا لنفسك . اننا فى حاجة الى « فريق » من الخبراء فى علم الكومبيوتر والشعع المقطعية الملونة و « جيش » من المعاونين فى العلوم الطبيعية والانسانية . لا تكن مكابرا ، اننا نتعامل مع لغز الألغاز وهو العقل .

ــ فى هذه الحالة ، سيعرف سر الاختراع ، وتتحول عنا الأضواء ، ونتوه فى الزحمة .

ــ انت لا تفكر الا فى نفسك ومجدك فقط . انى مقدر لما وصلنا اليه ، فتحنا الباب أمام العالم لاكتشاف سر الكلمة منذ أن قيل « فى الأول كانت الكلمة » . تلك المعجزة التى تسعد وتشقى ، تنير وتظلم ، تبهر وتخسف ، تحيى وتميت ، تنشر سلاما أو تقيم حربا . الكلمة أصل الفكر والذكاء والابداع والعبقرية ، يكفى اننا فتحنا أمام من سيأتى بعدنا آفاقا عراضا لسبر غور أعمق أعماق العقل ، ذلك السر

الالهى الذى تبخسه قيمته بقـولك أنه كومبيوتر ٠٠ فقط حاصل مخ ٠٠ وحتى هذا المخ لا نعلم عنه الكثير ٠

ولكننى أفكر أيضا فى المضار الوخيمة لهذا الاختراع ، مما سيلقى الرعب فى قلوب الناس ٠ اخترعنا « جاسوسا » على حرية الفكر ، أعز ما ملك الانسـان ٠ ان اختراعنا سيكون أكثر خطرا على البشرية ٠٠ من القنبلة الذرية ٠

راع المهندس ما سمعه من الطبيب فعـاد متخـاذلا الى مقعده ٠ رأى نظرة الأسى والحيرة فى عينى زميله فأراد أن يسرى عنه :

ــ هون عليك يا أخى ٠ لقد فكرنا فى هذا ولم نتغاض عنـه ٠ الى الآن مازال الفكر مقيـدا ، بل انه أكثر أنواع الحرية تقيدا ٠ ان البحث العلمى شىء والنتـائج المترتبـة عليه شىء آخـر ٠ لم يكن عنـدنا الى وقت قريب أمـل فى تحقيق النظـرية البحتـة ، ولم تكن المضـار ، مهما تكن ، لتثنينا عن المضى فى تحقيقها ٠

ــ أعترف ، نعم ، ان حماسى لفكرة البحث أعمانى عن مضار تطبيقه ، منها على سبيل المثال واجبى نحو مرضاى ، وهو ألا أقحم نفسى فى شؤونهم ، ولا أفشى أسرارهم ٠

ــ يا صديقى ، لكل اختراع فوائده ومضاره ٠ هل يكون اختراعنا هذا أشد خطرا ، اذا تلمسنا الأخطار ، من اختراع البارود ٠٠ أشعة الليزر ٠٠ المضادات الحيوية ٠٠ العقاقير المهدئة ٠٠ عقاقير منع الحمل ٠٠ جهاز كشف الكذب ٠٠ على فائدة كل هذه جميعا ؟ انظر مثـلا الى ما تسـببه مضادات الحيويات من أضرار بالانسـان ، على فائدتهـا القصـوى ، أضعفت مناعته فأصابته أمراض علمناها مؤخرا كال «ايدز» وأخرى كثيرة لانعلمها ٠ أطالت عمر الانسان عما ينبغى حتى

لحقته الشيخوخة المتأخرة بمنغصاتها له ولذويه • أتريد أن أعدد لك مضار كل اختراع والقائمة طويلة •

ـ وفر عليك مواعظك ، فأنا أعلم كل ما قلته وستقوله انى أتكلم منوحى الضمير الذى رزحت تحت وطأته طيلة فترة التجربة • أشعر أنى سرقت أفكار مريض ، بل سرقتها فعلا •

قال المهندس مقاطعا وقد ضاق صدره بضمير زميله :

ـ أهى أزمة ضمير اذن •• يا سلام يا أخى •• أين منطقك العلمى المجرد ؟ ألا يكفيك أننا أثبتنا ظاهرة معروفة وهى وحدة الفكر والكلمة • أليس هذا ما ذكرته فى كتابك، «فسيولوجية التفكير والكلام» •• نفكر بكلام ونتكلم بفكر، ماذا علينا وقد دللنا على صدق نظريتك بتجربة أولية على مريض ، وان كان فاقد الوعى •• الغاية تبرر الوسيلة • ، ثم تأتى فتقول : سرقت أفكارا !

ـ ••••

ـ من هو مريضك هذا على أى حال ؟ انه زيد من الناس •

ـ بل انسان مثلك ومثلى ، يعيش وجوده حائرا • أغرته الدنيا وغررت به ، أخطأ فى حق أقرب الأقربين منه • قد تكون « سعاد » مظلومة معه ، ليس لأن زوجها غافل عنها لأى سبب، بل لأن حب المريض لها قد يكون من جانبه فقط، جسمه افتنانه وتخيله • « سعاد » فى هذه الدراما هى « حواء » كل عصر ، حائرة بين رجلين غافل وجائر • الله وحده أعلم بالسرائر • وعلى كل ، فقد حاسب المريض ضميره وحكم على نفسه بالانتحار بارادته • كفر عن خطيئته ، وقد يكون قد توهمها ، بتضحية حياته •

ـ ومد الله فى أجله ، مجانا ، على يديك الماهرتين •

خالصين يا سيدى . ألا تحق لك عليه تجربة لا خطر منها على الاطلاق ؟

شوقتنى حكاية مريضك على علاتها الى معرفة اسمه . ربما أعاده القدر الى الحياة ليكتب اسمه معنا فى سجل الخالدين . ولكنى أعفيك من ذكر اسمه وهويته حتى لا تفشى سرا فتقع فى المحظور .

ضحكا . أفلح المهندس فى تهدئة خاطر الطبيب . وقال الطبيب للمهندس كل ما عرفه عن المريض . امتقع وجه المهندس وتراجع فى كرسيه . رانت على الاثنين سحابة صمت كئيبة ، وأخيرا قال المهندس بصوت مبحوح :

ـ حقا يا دكتور انه اختراع رهيب . عزائى انه لن يرى النور فى حياتنا .

قال الطبيب متصنعا الدهشة وكان فى الحقيقة مشفقا على زميله من السر الذى أباحه الاختراع .

ـ ما دفعك الى تغيير رأيك واخماد حماسك ؟ آهو السر الذى أفشاه الاختراع ؟

ـ نحن فى حاجة الى فريق كبير يتولى عنا تطوير الجهاز . وأحسب انهم لن يتوصلوا الى اكماله ولو فى مائة عام .. حينما تكون الدنيا غير الدنيا ، والناس غير الناس .

قام المهندس وخلع معطفه الكاكى ثم علقه على مسمار فى الحائط وراءه ، قال للطبيب وهو يتأبط ساعده تاركين الغرفة :

ـ هيا بنا يا صديقى .

ـ الى أين ؟

ـ الى المستشفى ، لأطمئن على أحمد ·

والى الآن ، مازال فريق من العلمـــاء النـــابهين يعملون بدأب وحماس فى كليـــة الهندســـة والمستشفى الجامعى فى سرية تامة لتطوير جهاز سيكون آخطر على البشرية ·· من القنبلة الذرية ·

## دفاع عن الأطباء

أخطأ من قال انه لا ينبغى لى الدفاع عن الأطباء ، خطأ المعتقد انى أولى بالدفاع عنهم • وكانت حجتهما فى كلتا الحالتين واحدة ، وهى أنى طبيب • ومنصف طلب منى اذا أردت أن أدافع عنهم أن أتجرد من صفتى كطبيب ، وأتقيد بضميرى كمواطن يعلم عن الأطباء مالا يعلمه من هو غير طبيب • ولا يعتقد أحد أنى فى هذا المقال سأرفع ، أو أخفض ، من شأن الأطباء لحاجة فى نفس يعقوب • بل سأحاول بقدر المستطاع أن أنظر الى الأطباء بعين مجردة ، مع العلم ان الانسان غالبا ما يرى نفسه وغيره بعينه هو لا بالعين المجردة •

مهنة الطب :

فى الآونة الحديثة ، زمن الحرية والاشتراكية ، ينقسم العاملون الى فئتين : مهنيين وحرفيين • المهنى من يعمل بعقله ، والحرفى بيده • المهنى يتطلب عادة اعدادا فكريا الى المستوى الجامعى ، أما الحرفى فله عادة اعدادا فى معاهد خاصة يتدرت فيها على حرفته بلا قدر كبير مما يدخل فى

نطاق التعليم المهنى • لكن هناك فئات تتطلب اعدادا مهنيا وحرفيا فى نفس الوقت ، من هؤلاء الأطباء ، وخاصة فى الجراحة والتوليد وأمراض العيون وكل من يعتمد فى عمله على المشرط • وحتى الباطنيون يعتمدون على أيديهم فى الكشف على المرضى ويستعملون الآجهزة الالكترونية المعقدة فى التشخيص والعلاج •

واذن ، فالطب مهنة وحرفة • بعض الأطباء ،كالباطنيين، أكثر مهنة والبعض ، كالجراحين ، أكثر حرفة • وان اعتبر الأطباء بعامة مهنيون لعلو شأنهم فى المجتمع ، ولأن المجتمع ، صوابا أو خطأ ، يقدم المهنيين على الحرفيين ــ حتى فى عهد الاشتراكية !

وجد الطب كمهنة وحرفة قبل التاريخ • نقل الينا من رسومات الكهوف وعلى الآثار الحجر وورق البردى وما أشبه ، أن الأطباء الأقدمين ، السحرة وأطباء القبائل والكهنة ثم من امتهن مهنة الطب فيما بعد ، كان لهم تفسيرات ونظريات وعلاجات للظواهر المرضية • ثم تطورت وارتقت التفسيرات والنظريات مع النمو الحضارى الى ما اعتقد أنه الأوفق أو الأحسن فى التطبيب ، ومازالت هذه تتوارد الى الآن ومستقبلا •

منذ فجر التاريخ الى ما قبل النهضة الأوروبية كانت النظريات الطبية أبعد ما تكون عن اليقين • كذلك التطبيق ، التطبيب ، لم يؤد فى أغلب الأحيان الى الفائدة المرجوة منه • مثلا ، وصف أطباء العصور القديمة والوسطى مرض الصرع، دقق الأقدمون فى الوصف وبرع المتوسطون فى اجلاء مضاعفاته ، ببراعة العلماء العارفين لـ « ظواهر » الأمور •

سمى الصرع بـ « المرض المقدس » لان الملك شؤول ، أول ملك لبنى اسرائيل ، كان مصابا بهذا المرض · ويجهل أطباء اليوم أيضا سبب مرض الصرع ، وان عالجوه منذ الخمسينات من هذا القــرن بفــاعلية أكثر بفضــل التقدم العظيم فى علم الكيمياء الحيوية والدوائية · نعرف اليوم من دراسة كهرباء المخ أن سبب مرض الصرع هو اضطراب مفاجىء فى سريان كهرباء المخ ، أما لماذا يختلف سريان التيار الكهربائى فى المخ فجأة فيتسبب التشنج العصبى فهذا علمه سيتحقق للأجيال القادمة · ومثل آخــر ، من آلاف الامثلة ، عرف الأقدمون مرض النقرص وســموه مرض الملوك (أيضا !) ولم يعرف الا مؤخرا أن سببه ارتفاع نسبة أملاح البولينا فى الدم ، ثم اكتشف حديثا العامل المانع لتكون الملح ·

جهل أطباء العصور القديمة والوسطى الكثير من حقائق علوم التشريح ووظائف الأعضاء والكيمياء الحيــوية ، ومع ذلك اشتهر منهم أطباء عظام مثــل أبو قراط ( فى اليونان سنة ٣٣٧ ــ ٤٦٠ ق·م· وجالينوس ( اشتهر فى روما فى القرن الثانى الميلادى ) · قال الشاعر المتنبى بعد ما يزيد عن ثمانية قرون من موت جالينوس :

يموت راعى الضأن فى جهله موتة « جالينوس » فى طبه
وربمــا زاد عــلى عمـــره وزاد فى الأمــن على سربــة

وابن سينا ( ٩٨٠ ــ ١٠٣٧م ) ، ولا ننسى الحكيم لقمان الذى عرف فى الجاهلية ثم أصبح شخصية أسطورية على مر العصور ·· « اشتهر بوصفاته ، وصــفات لقمان ، وصيته لابنه ليلتزم بالصبر والتواضع ·· الى آخره » · عالج أولئك الأطباء أعراض الأمراض وان جهلوا أسبابها ولم يألو جهدا فى علاجها ·

وبقى الطب مهنة وحرفة ٠ وعرف ذلك الأطباء العرب أيام مجد الطب العربى فى العصور الوسطى ، وأطلقوا على الشق المهنى من الطب « حكمة » والشق الحرفى «تطبيب» ٠ الأطباء نوعان : حكيم وطبيب ٠ الحكيم من غزر علمه ، وعظم فكره ، واتسع أفقه ٠ وكان ابن سينا حكيما ، ولغويا، وشاعرا ، وعالم رياضة وفلك ٠ قيل أنه كان رجل مدينة ، يجرى وراء ملاذه ويتصيد الشهرة ، وقيل لم يعرف الطب ، فحبس نفسه أسبوعين عكف فيهما على دراسته فحذقه ، ثم مارسه بنجاح عظيم ، وألف كتابه الشهير « القانون » فى الطب والذى أصبح فيما بعد من النصوص الهامةالتى تدرس فى مدارس الطب فى الشرق والغرب لمدة خمسة قرون ٠

الحكيم عليه اسداء المشورة والنصيحة ، ويأخذ عنه ويقتدى به ٠ أما الطبيب فهو المشتغل بالجانب العملى أو الحرفى فقط ٠ وما أشبه الليلة بالبارحة فأطباء اليوم منهم الأستاذ الجامعى والمستشار الطبى وهم الحكماء ، ومنهم الأخصائى والممارس العام وهم الأطباء ٠ وبديهى أن طبيب اليوم بما يعرفه من حقائق ونظريات وتطبيق فى الطب الحديث لأحكم ألف مرة من حكيم الأمس ٠

كان عندنا فى مصر أيام القدماء المصريين طب مصرى خالص نبع من البيئة المصرية ، طبقت شهرته آفاق تلك العهود ٠ كان من أطبائهم الطبيب المشهور «سنوحى المصرى» الذى اشتهر بأعمال « التربنة » فى الدماغ ومن ثم جراحة المخ ٠ اكتسب الاغريق عن المصريين طبهم وزادوا عليه من خبرتهم وحكمتهم ٠ كذلك فعل الرومان ثم العرب ٠ الطب سلسلة من مهارات حضارية متصلة ٠ لخص ابن سينا فى كتابه « القانون » التراث الطبى وزاد عليه ما أحدثه

العرب • ثم حمل الأوروبيون لواء الطب منذ عصرالنهضة ، ومازالوا حاملين لواءه الى اليوم• وأهم من هذا كله أن الطب الغربى أخذ من البيئة الغربية ، فهو اذن منها ولها أكثر من البيئات الأخرى التى تحاكيه محاكاة نرجو ألا تكون تامة •

كان الطب فى مصر الى ما بعد عهد محمد على طبا عربيا لا يرتكز على حقائق علمية • اعتقد الأطبــاء المصريون الى ذلك الوقت ، القرن التاسع عشر ، فى نظرية «الاخلاط» ، وهى أن الانسان اما دموى ، أو صفراوى ، أو هوائى ، أو بلغمى، وكل له أمراضه الخاصة به تبعا للاخلاط(العصارات) الموجودة فى جسمه والتى اذا اختلفت سببت المرض • كمــا اعتقدوا فى الشيطان والجن والسحر والأجرام الســماوية كمسببات للامراض • كان عطار الأمس ، ومازال ، هـــو صيدلى اليوم • وكان الأطبــاء و « العارفين » فى تلك الأيام لا شك يحصلون على نتائج مرضية ، لأن طبهم هذا كان ينبع من بيئتهم • تأمل معى فى تلك العبــارة التى وصــلتنا عن الأطباء العرب « لا يصــلح العطار ما أفســده الدهر » وهى ما معناه فى طبنا الحديث ، لا تفيد العقاقير فى علاج أمراض الشيخوخة المتقدمة • حقيقة أمس مازالت حقيقة اليــوم ، ولا ييأس الشيوخ فلربما تغيرت الأمور فى المستقبل القريب وأتعجب ، ماذا سيقول كاتب مثلى فى مقال كهذا عن أطباء اليوم بعد مائة وخمسين عاما ؟

لا يزال الأطباء الى اليوم يصفون الطمأنينة وراحة البال أكثر بكثير مما يصفون العــلاج الشــافى • لأن الأطبــاء لا يعرفون فى أحوال غير قليلة أســباب الأمراض وبالتــالى لا يضمنون منع عواقبها ومضاعفاتها • ولأن أعضاء جسم الانسان متراتبة الخواص بحيث اذا تداعى عضو تداعت له

سائر الأعضاء • ولأن سلامة الجسم كله تعتمد آكثر ما تعتمد على مقدار احتمال الخلايا المكونة للأنسجة ، وهذه تتحكم فيها عوامل وراثيـة وبيئيـة • فضلا عن آن كثيرا من الأمراض بطبيعتها اما طويلة المدة ، أو مزمنة •

يلطف الأطبـاء الأعراض ويسـكنون الآلام المصـاحبة للأمراض آكثر مما يشفون ، وهـذه فى كل الحـالات تريح المرضى وتساعد فى الحالات القابلة للعلاج على الشفاء • من آقدم وأعظم الاكتشافات الطبية اكتشاف عقـار الأفيون ثم مشتقاته ومفعولها القاتل للألم • والطب يأتى على الدوام بكل جديد ومفيد من الاكتشافات والعلاجات ، ولـكن ذلك الكم الكثير قليل بالنسبة لما نريد ويجب آن نعرفه • ولا ينبأك كأساتذة الطب ، الحكماء ، بأنهم لم يؤتو من العلم الا قليلا •

الأطبـاء :

التزم الأطباء منذ عهد النهضـة الأوربيـة بما يعـرف باليقين لما تحققت لهم الانتصـارات المبنية على المحسـوسات الـواضحة لتفـكيرهم العلمى البحت • قالوا ، من لا يلتزم باليقين يعتبر دجالا • كان ذلك سنة ١٧٧١ • ولكن اليقين بعد أن التزموا به قرنين من الزمن لم يؤد بهم الا الى الحيرة أمام كثير من الأمراض، فأطلقوا عليها الأمراض المستعصية ، أى مستعصية عليهم • كثير من الأمـراض ، ولا داعى لذكر أسماءها فالقائمة طويلة ، مستعصية •

الأطباء محـاربون بواسـل ، كلما انتصروا فى موقعة فتحت أمامهم مواقع • وكأنما يئس عدد غير قليل من الأطباء من كثرة الحروب وطولها بلا كثير من الانتصارات أو الأمل

فيهـا ، فقامت ثورة من بين اليائسـين • فى الآونة الأخيرة انشق بعض الأطباء ، يتزايد عددهم باضطراد، عن المجموع •

يقول المنشقون : مادامت مهنتنا الى الآن لم توفر لنـا وسائل فعالة ضد عديد من الأمراض ، فلا بأس اذا طبقنـا علاجات أخرى لا يقرها طبنـا وتطبقها شـعوب أخـرى ، يقصدون الشرق الاوسط والأقصى ، فقد يكون فيها الشفاء لمرضانا • نحا المنشقون اليقين جانبا وطبقوا علاجات اليوجا، والتأمل ، والرقص والموسـيقى ، والأعشـاب والمـأكولات الصـحية ، والابر الصينية والمغنـاطيس •• الى آخـره • وأشاعوا انهم حصلوا بهـذه العـلاجات على نتائج طيبة • وأطلقوا عليها اسم « العلاجات البديلة » •

كان أطباء جيلنا السابق يعالجون ضيق الشرايين المغذية لعضلة القلب ( الذبحـة الصـدرية ) بالراحة التـامة ! ، والاقتصاد فى المجهود الجسـمى والعـاطفى ، وخاصـة فى الحب ! ، والأكل المسلوق بدون ملح ، والحبـوب المسـكنة والموسعة للشرايين • علاج معقـول حقـا ، وطبى مائة فى المائة ، لولا انه منغص لعيشـة المـريض حتى يود لو مات أحسن • تنبه أولئك الأطباء ، بعد توفر الاحصائيات لهم ، أن مرضى الذبحة الصدرية يعيشون عشرين وخمسة وعشرين عاما بعد اصـابتهم بهـا ، أى العمر الافتراضى للانسان • فتحولوا يعالجون الذبحة بالرياضة والمشى لمسافات تطول كل يوم ، بل بالجرى ، مما لم يجرؤ على التفكير فيه فى السابق، وبالعمل والاستمتاع بالحياة كأنهم سليمون معافون • تبين الأطباء أن كثيرين من مرضى الذبحـة ، ومعظمهم رجال فى أواسط العمر ، يقلقـون وييأسون من حيـاتهم ، ويكرهون

عملهم فيهملوه ، ويقطعون صلاتهم العاطفية بزوجاتهم مما يؤدى فى كثير من الحالات الى خراب البيوت ، ويقضون بقية حياتهم بين قلق واكتئاب ولا مبالاة ثم الشلل النفسى . لم يبق لهم الا آن ينتظروا الموت سنة بعد آخرى ، والموت لا يجىء .

والآن يعالج الأطباء ضيق الشرايين المغذية للقلب بتركيب « قطع غيار » بدلا من القديمة الضيقة ، وبتوسيع ما يستدعى التوسيع من الشرايين بالقساطر و «البلونات» ، ثم أخيرا بازالة هذه المضيقات والانسدادات بأشعة الليزر . أليست الجراحة حرفة ، كحرفة السباكة مثلا !

ومازال السؤال محيرا لطبيب اليوم كما كان لزميله بالأمس : ما هو السبب ، آو الأسباب ، وراء تصلبالشرايين وضيقها ثم انسدادها ، لماذا فى آواسط العمر والصحة عال العال وفى آوجها ، وفى الرجال آكثر بكثير من النساء ، وماذا يفعلون مع القلق بعد علم المريض باصابته بالذبحة ، وهو أشد ضررا على المريض من الذبحة نفسها ؟ ؟ أسئلة وأسئلة .. ولا جواب الى الآن .

أخذ الطب الشرقى ، آو البديل ، ينتشر فى الغرب حتى أصبح تخصصا فى حد ذاته ، ولاقى اقبالا وتشجيعا من المرضى . آدخله مؤخرا عدد لا بآس به من الأطباء الشبان المتحمسين له فى مصر فلاقى اقبالا من الجمهور وخاصة بين المثقفين . حتى أصبح الطب البديل حديث العامة فى الصالونات والمقاهى ، تماما كما كان الطبالنفسى فى أوائل هذا القرن .

كان الى الستينات ، منذ عشرين عاما فقط ، اذا وصف

طبيب لمريض علاجا لا تقره الأوساط الطبية « المحترمة » ، خاصة اذا أصيب المريض بضرر أو مات ، يحاكم الطبيب من لجنة عليا من نقابة الأطباء ، ويعاقب ، وقد يشطب اسمه من السجل • أما فى هذه الأيام ، فالعلاجات البديلة تطبق من العديد من الأطباء جهارا دون أن يحاكموا • وحجة الأطباء المنشقين منطقية ووجيهة حقا : ما دمنا لا نعرف ، فلماذا لا نطبق ما يطبقه غيرنا ، غير التقليديين ، وقد خبروه ونجحوا فيه ؟ ماذا أفادتنا كثرة النظريات والبحوث فى عديد من الأمراض ومازال الطريق أمامنا غير واضح الى أمد لا يعلمه الا الله ؟

## عيادات الآلام :

لما يئس الأطباء من علاج وشفاء الأمراض المزمنة والمستعصية ( عليهم ) تحولوا الى الآلام المصاحبة لها محاولين القضاء على الآلام أو تسكينها • آملين أن يعيش المرضى مع أمراضهم بدون ألم • وكان ان انتشرت العقاقير المسكنة والقاتلة للألم دون تأثير كبير على الوعى • ولم تألو شركات الأدوية فى استنباط العديد منها ، ثم وجد أن بعضها له خطورة بالغة على صحة المريض فسحبت من السوق ، والبعض الآخر لا يتميز فى مفعوله عن الاسبرين • ومازال الأفيون ومشتقاته ، المورفين والبيثيدين وغيرها ، العلاج الأمثل للقضاء على جميع الآلام ، لولا أنه وعائلته تزيل الآلام والوعى أيضا حيث ينام المريض فى سلام • مازال المورفين العلاج الأمثل لحالات السرطان المتأخرة •

لهذا نسمع مؤخرا عن عيادات الآلام ، يذهب اليها المرضى « المتألمون » بغض النظر عن أمراضهم المزمنة المسببة

للآلام . والآلام أشكال وأنواع ، بعضها موضعى أو منتشر، بعضها ، متوقفا على شخصية المريض ودرجة تحمله للألم ، حاد لا يطاق أو « مكتوم » أو « ممدود » ، وكلها لها تأثيرها العضوى والمعنوى . الغرض والأمل شفاء الآلام لا الأمراض .
في عيادات الآلام يتتبع الأطباء الآلام فى مراكزها المختلفة ، وهناك فى الجهاز العصبى مراكز عديدة للآلام ، بعضها فوق بعض ، بدءا من أطراف الأعصاب الى المراكز السفلى والعليا فى المخ . يتتبعونها بالحقن والشمع السطحية والعميقة والجراحة . أحيانا يفشلون ، وأحيانا ينجحون ، فاذا فشلوا عادوا الى الحبوب . وتسأل المريض :

ـ لماذا تأخذ هذه الحبوب ؟

ـ عندى روماتويد ، وقاق الله شره .

ـ وهل أفادت الحبوب ؟

فيجيبك المريض والألم باديا على وجهه :

ـ أحسن من لا شئ .

ومازالت الأبحاث قائمة على قدم وساق فى كليات الصيدلة والمعامل التابعة لشركات الأدوية العلمية لاكتشاف العقار الأمثل الذى سيقضى على جميع الآلام ، بجانب الأبحاث فى المراكز الطبية لاكتشاف أسباب الأمراض المزمنة والمستعصية المسببة للآلام . أمل المتخصصين الجدد فى علاج الآلام أن يصلوا بالانسان الى عهد حياة بلا ألم ، كما توصلوا من قبل الى جراحة بلا ألم ، وولادة بلا ألم .. وموت بلا ألم .

قد يطول بهؤلاء المتخصصين الطريق أو يقصر حتى يصلوا الى هذا الهدف . وأحسب أن هذا الهدف سيتحقق باذن الله على يد طبيب على رأس فريق من الأطباء والصيادلة والباحثين . سيذكر التاريخ هذا الطبيب بكل فخر ، سيصبح

بين يوم وليلة أشهر الأطباء • ولن يهمه أن يقول عنه الناس حينئذ ، وقد خلصهم من آلامهم ، انه أشهر أو أعظم ، أو أغنى الأطباء •• بقدر مايهمه قول الناس أنه •• أنبل الأطباء •

## الناس والايحاء :

يلعب الايحاء دورا كبيرا فى حياة الناس • يوحى المرء بطرق شتى من غيره ومن نفسه • كثير من معتقداتنا تتكون نتيجة الايحاء ، ويتحكم الايحاء الى حد كبير فى العلاقة بين الطبيب ومريضه • لأن الايحاء طبيعة فينا ، يزداد ويطفو الى السطح خاصة فى حالة المرض • الطبيب الذى « يوحى » الثقة فى مرضاه أنجح من الطبيب الذى يفتقد لهذه الصفة التلقائية والتى تتفاوت من طبيب الى طبيب • وللايحاء مظاهر وجوانب عديدة لا نلم بطبيعتها الماما واضحا • بمعنى ، وبكل بساطة ، ما هو الايحاء ؟!

تطالعنا الصحف بين الحين والحين ، دائما بقصص عن دجالين قبض عليهم متلبسين بمزاولة مهنة الطب فى عيادات، وبعضهم لهم عيادتان • فاذا مشيت مع سطور الخبر فى الصحيفة قرأت عجبا ، وهو تزاحم المرضى على هؤلاء الدجالين ، وليس كل المترددين عليهم بسطاء ، لفترات تزيد على سنوات وسنوات • بديهى أن هؤلاء الدجالين معرفتهم بالطب معرفة سطحية ، فمن أين لهم ذلك النجاح وتلك الشعبية ؟ كيف وصلوا الى النتائج المرضية مع مرضاهم المقدرين لفضلهم عليهم ؟ ان المرضى يريدون من الأطباء الشفاء ، مهما كانت الوسيلة ، وهؤلاء المرضى وجدوا عند

أطبائهم المزيفين الشفاء ، مرة بعد مرة ، لا جدال فى ذلك ٠ انها قوة الايحاء التى يتميز بها البعض عن البعض ، أطباء كانوا أو غير أطباء ٠

اشتهر طبيب فى فرنسا يدعى « فرانس مزمر ، ١٧٤٣ ـ ١٨١٥ ، كان يعالج المرضى بالمغناطيس ، تماما كما جاءت بعثة من فرنسا نفسها بعد مائة وسبعين عاما ، ١٩٨٥، الى مصر بموافقة وزارة الصحة المصرية وعالجت الأغنياء والمشاهير من المصريين بالمغناطيس ، وقيل بنجاح شهد لها به ٠ نعود الى « مزمر » فنقول انه تحققت على يديه نتائج طيبة حتى أن مدرسته ( المدرسة المزمرية ) اشتهرت وذاع صيتها فى أنحاء أوروبا وانجلترا ووصلت الى الهند ٠ ولكن سرعان ما أفل نجم مزمر كما تألق قبل أن يموت الطبيب العظيم منسيا معدما لمحاربة الأوساط الطبية الموقرة له ، ولطريقته فى العلاج غير العلمية ٠ شهرة مزمر فى تاريخ الطب أنه أوضح لنا قوة تأثير الايحاء فى العلاج ٠ ومن ناحية أخرى ، خلد مزمر اسمه فى اللغات الأوروبية بأن أصبح اسمه عنوانا على الايحاء أو السحر ( السحر نوع من أنواع الايحاء ) ٠ يقول الأوروبيون فى لغاتهم اليومية الدارجة : ان فلانا « مزمرنى » ومعناها انه سحرنى فسلبنى ارادتى وجعلنى أعطيه ما أراد دون أن أريد ٠

اشتهر فى تاريخ العالم أطباء طبقت شهرتهم الآفاق على أيامهم ٠ ذكرت لك منهم بعض أسماء فى العصور القديمة والوسطى ٠ من الانصاف أن نقول انه لم يشتهر طبيب فى الغرب فى العصور الحديثة الا وكان اسمه مقرونا باكتشاف علمى ومحقق علميا ومعترف به الى الآن ، والقائمة طويلة ،

هل تذكر الطبيب من جنوب أفريقيا ، كريستيان برنار ، أول من زرع القلب فى الانسان فى أواخر الستينيات ، من قبله من اكتشف عقار اللارجاكتيل ، ومنع الحمل اللذين غيرا من شكل المجتمع المعاصر ؟ نعود الى العصور القديمة والوسطى ، فنشير الى أنه مما لا شك فيه تحقيق أطباء تلك العصور نتائج باهرة مع مرضاهم والا ففيما كانت شهرتهم؟

والسؤال هو : كيف حصل أولئك الأطباء على تلك النتائج مع مرضاهم ، وعلى تلك الشهرة العريضة التى مازالت الى الآن ، ولم يعرفوا الا القليل الأقل لما نعرفه الآن فى الطب ؟ صحيح أنهم كانوا علامات على طريق المعرفة ، ولكن جمهورهم لم ينظر اليهم على أنهم علامات للمستقبل ٠ كيف عالج « لقمان » بماء اللفت ، و « ابن سينا » بشراب البنفسج ،و « ابن النفيس » بنقيع صمغ شجر المر ٠٠ « وهو دواء نافع للسعال ، ولسع العقرب ، ولديدان الأمعاء ٠٠ » ؟ ولم نذهب بعيدا ، قال أحد مشاهير نجوم السينما أن الطبيب «طانيوس» الذى كان ضمن البعثة الفرنسية التى حضرت الى القاهرة سنة ١٩٨٥ للعلاج بالمغناطيس، أنه تمنىلو كان قد كشف عليهالطبيب طانيوس وعالجه منذ عشر سنوات ٠ *

الجواب هو الايحاء ٠ وشىء آخر هو شخصية الطبيب العلاجية ٠

ولا نعرف الكثير عن « الشخصية العلاجية » أيضا ٠ ولكن المعروف بين الأطباء أن شخصية الطبيب هى أقوى وسائله ومعداته وأسلحته العلاجية ٠ والا فكيف نفسر نجاح علاج معين من طبيب بينما يفشل نفس العلاج على يد طبيب آخر ٠ كما يبدو أيضا أن شهرة طبيب أكثر من زملائه فى

نفس المستوى العلمي والخبرة يعود في الغالب الى كيف يستعمل شخصيته العلاجية بذكاء ، أكثر أو بجانب نواحي شخصيته الأخرى • كان عندنا في مستشفى «القصرالعيني» أستاذان لمادة اكلينيكية واحدة ، طبقت شهرة أحدهما الآفاق ولم تدرك الشهرة الآخر • ودرست شخصية كل منهما فوجدت ان الأول كان، بجانب علمه ومقدرته اللتين تساويتا مع الثاني وكلاهما أستاذ ، لبقا ، ظريفا ، مبتسما دائما ، أنيقا ، كريما ، اجتماعيا ، سياسيا ، حاضر البديهة والنكتة، وتاجرا بالدرجة الأولى •

قال لي أحدهم انه يعرفني ولم يرني لكن سمع عني • سألته وقد أخجل تواضعي :

ــ كيف ؟

أجاب والحيرة بادية على وجهه :

ــ طبعا يا دكتور ، أراك في النادي ، ثم أنت الدكتور الذي يكتب !

وليست شخصية الطبيب الجراح كشخصية الطبيب الباطني أو الممارس العام •• أو الطبيب النفسي •

## المدعون والمدعى عليهم :

أبدأ من المدخل فأقول ان الأطباء بشر • لهم ما لهم وعليهم ما عليهم • لم يقل أحد انهم معصومون • ولست أنا الذي أطلق عليهم لقب « رسل الرحمة » • وعذرهم أن أحسنوا أو أساءوا ، أصابوا أو أخطأوا ، الظروف التي تتحكم في طبيعة البشر •

يتحدد سلوك انسان بالمهنة أو الحرفة التي يمارسها •

سلوك الطبيب يحدده أولا أنه طبيب ٠ وثانيا : وهو الأهم ، أنه طبيب مادام يتعامل مع مرضى ٠ لولا المرضى لما كان أطباء ٠ بحيث لو تعطل طبيب ، لسبب أو آخر ، لما أصبح طبيبا بالمعنى المتعارف عليه ٠٠ طبيب لمن ؟ لايتساوى طبيب يعمل فى الاحصاء الطبى وزميله الممارس للمهنة فى المستشفيات ٠ واذن ، فالطبيب بمرضاه ، اذا لم يكن هناك مرضى أصبح الطبيب غير ذى موضوع ٠

من المعروف فى علم الاجتماع أن لكل شعب ما يليق به من مؤسسات ومدارس ومستشفيات ومحاكم وسجون ، الى آخره ٠ وعلى هذا لا يمكننا الدفاع ثم الحكم على الأطباء المصريين الا من خلفية الشعب المصرى ٠ من الانصاف أن ننظر فى الشعب المصرى قبل أن نحكم على أطبائه ، فالشعب والمرضى هما المقرران الأولان لمستوى الطبيب وسلوكه ، وما يدعى بتقاليد أو آداب المهنة ٠ المرضى همالذين يوجدون أطباءهم على المستوى اللائق بهم ٠ لا توجد ، فى رأيى ، مدرسة طب فى بلد ما تفوق مثيلتها فى بلد آخر ، فدراسة الطب ومقررها واحد فى جميع أنحاء العالم ، كلها ست سنوات ونصف ٠ ولكن ، هناك فرق بين مريض يسأل طبيبه عن تركيبة الدواء ومفعوله ، ومن لا يسأل أو يهتم ٠ بين من يناقش طبيبه فى طبيعة مرضه ، ومن يطيعه طاعة عمياء أو لا يطيعه ٠ من يفاصل ويدقق فى الأتعاب ، فى البلاد التى ليس بها تأمين صحى راق ، ومن يدفع ما يأمره به الطبيب ٠

يجب أن نسأل أنفسنا أولا قبل أن نشرع فى الدفاع ومحاكمة الأطباء ، أو الأطباء والمرضى ؟ فهما متلازمان لا يفترقان : ما هى العوامل البيئية التى تتحكم فى العلاقة بين الأطباء والمرضى ؟ مهما آخلص الأطباء فى « رفع » مستوى الخدمة الطبية فهذه أولا وآخرا تتوقف على «نوعية»

مرضاهم ونوع الخدمة التى يطلبها المرضى • لا أحدا يدعى قدوة حسنة الا اذا كان هناك مقود حسن •

فى ندوة شعبية فى احدى محافظات شمال الدلتا ناقش الجمهور ( المدعى أو الزبون ) صحيفة اتهام ضد أطبائهم المدعى عليهم ، جاء فى صحيفة الدعوى :

الأطباء لا يهتمون بمرضاهم ، خاصة الفقراء ، الاهتمام الواجب والمرجو منهم •

يعاملون المرضى فى تعال وكبرياء •

يأخذون أجورهم الباهظة قبل أن يلمسوا المريض •

يهتمون بالأمراض وليس بالمرضى ومشاكلهم الخاصة التى تؤثر فى مرضهم •

يثيرون القلق فى مرضاهم بحجة حثهم على العلاج •

لا يعترفون بخطئهم اذا أخطأوا وكأنهم معصومون من الخطأ •

وضح بعد الندوة أن المدعين ، على كثرة وفداحة الشكاوى ، يحبون ويحترمون المدعى عليهم • كما كان الأطباء لبقون ، عطوفون كعادتهم دائما ، ومبشرون بالخير •

لم يقدم المدعى عليهم ، الأطباء ، عريضة دعوى ضد المدعين ، الجمهور •

لماذا ؟

لأن الزبون دائما على حق •

لايزال الطب فى مصر ، فى غالبيته ، طبا غربيا ، يدرس ويطبق بالأساليب الغربية ولاينبع من بيئتنا • من العجيب أن الطب النفسى أيضا طب غربى متفرنج مع أن «النفوس» فى مصر غيرها فى الغرب أو أى مكان آخر ، لذلك

فالطب فى مصر هو فى اعتقادى ، لايأتى بالفائدة المرجوة • نسمع بين الحين والحين صيحات تنادى بتعريب الطب مغلفة فى شعارات ومؤتمرات : الطب الاسلامى والطب النفسى الاسلامى والطب والقضايا الاسلامية (كان آخر مؤتمر للطب الاسلامى فى القاهرة سنة ١٩٨٧ ، وهناك مجلة دورية باسم «النفس المطمئنة» ) • من الانصاف آن ننوه بالتقدم الملحوظ والمشكور للأطباء المصريين فى طب وجراحة المناطق الحارة المتوطنة فى مصر • وحتى عندما آنشئت كلية الطب فى جامعة الأزهر سنة ١٩٦١ كان الأمل آن تتدارك هذا النقص فى طبنا ، وتقوم على الأقل بتعريب الطب كما هو الحال فى سوريا • وظل الأمل أملا ، والمحاولات لاتخرج عن كونها محاولات •

من المسلم به أن الوقاية خير من العلاج ، درهم وقاية خير من قنطار علاج ، ولن يكون عندنا وقاية فعالة بغير معرفتنا بالعوامل البيئية التى تساعد على انتشار الأمراض فضلا عن حدوثها • فمثلا ، يعلم الأطباء المصريون عن أمراض المناعة ومنها حديثا مرض «الايدز» ، وآن العوامل التى تساعد على انتشار هذا المرض هى الاباحية فى ممارسة الجنس مع العاهرات وذوى الميول الجنسية المثلية (اللوطيين) فهل ينتشر هذا المرض فى مصر كما انتشر فى الغرب ؟

لايوجد فى الطب سؤال محدد ، وانما سؤال يتبعه سؤال يستدعى سؤالا وهكذا الى آن نتحقق من أصل الداء ومنشيء العلة • فلو سألنا عن العوامل التى تساعد على انتشار مرض الايدز أو حدوث قرحة المعدة مثلا ، فيكون الجواب فى حالة الايدز الاباحية ، وفى قرحة المعدة القلق • ولكن ، ماسبب الاباحية ولماذا القلق ؟ وقد نتوه وراء تتبع

الأسباب ، لأن لكل الأمراض نواحيها وأبعـادها الاجتماعية والسياسية والمادية ، الى آخره ٠

بعض الأمراض تكثر فى طبقة اجتماعية عن الأخرى ، فى الرجـال عنها فى النســاء ، بغض النظر عن اختـلاف الهرمونات ٠ ماسبب ارتفاع نسبة وفاة الأطفال وخاصة فى الريف والطبقة العاملة فى المدن ، أهو الحر ، أو الجهل ، أو الفقر ، أو سوء الصرف الصحى ، أو تعـدد الزوجات ، أم انتشار الطفيليات المستوطنة ، أو هذه جميعا ؟

عندنا فى مصر لجان طبية عليا تضم كل المتخصصين فى جميع نواحى المجتمع ، نادت بوجوب وجود طب صناعى ، ورياضى ، واسكانى ، وللشيوخ كما هو للأطفال ، وطب أسرى ، الى آخر النواحى الاجتماعية ٠ ونست اللجـان العليا ، أو تناست ، أنه يجب أن يكون عنـدنا طب زراعى ٠٠ ومصر قبل كل شيىء بلد زراعى !

### أنتم الناس أيها الأطباء :

لايختلف الناس فى رأيهم فى الأطباء ٠ انهم ، الأطباء ، أذكياء أفاضل ، نشطون مجدون مثابرون ، طيبون رحماء مضحون ، أغنياء محظوظون ، طلائع وزبدة المجتمع ، حاملوا نصاب الحيـاة والموت ٠ فهل يطمع انسـان بأكثر من هـذا التشريف من بنى قومه ؟ ولان الأطبـاء قلة تخدم مجتمعا ، فان عائدهم الأدبى والمادى كبير ٠ كان الأطباء المصريون منذ جيليين قلة نادرة ، وفى الجيل الســابق لجيلنا أصبحوا قلة ليست نادرة ٠ لذلك كان مقياس نجاح أطباء الجيل الأسبق لجيلنا السابق الكسب الكثير ، أما فى هذه الايام فعدد الأطباء لابأس به (تخرج فى كليات الطب البشرى سنة ١٩٧٦/٧٥

أربعة آلاف طبيب ، زادوا ألفا بعد عشر سنوات ، وعلى أقصى تقدير يوجد طبيب مشتغل لكل خمسين ألف مواطن فى محافظة القاهرة) ، ومع اختلاف مجتمع أمس واليوم ، لم يعد ، ولن يكون بالتأكيد مستقبلا ، الغنى المادى عنوانا لنجاح وشهرة الطبيب ، ولا حتى تلك المكانة المرموقة التى كان يتربع عليها طبيب أمس · سيبقى القطاع الخاص فى الطب لفترة طويلة الى أن ترسو أقدام الاشتراكية وينتشر التعليم ويزداد الوعى · ستقل ثم تنقطع هجرة الأطباء ويعود المهاجرون منهم ليشاركوا مع الموجودين فى نهضة الطب فى مصر · أطلق الشعب ، لايجد حاجته الطبية كاملة ، على المستشفيات الخاصة ، تفكها ومرارة اسم « مستشفيات الاستثمار » ، أطلق الأطباء أصحاب تلك المستشفيات وعياداتها الخارجية اسم « العلاج الحر » ·· لمن شاء أن يدفع الثمن ! ·· ثمن الصحة التى يجب أن تكون كالماء والهواء للجميع ·

أرى الناس نوعين ، مطمئن لايشغله الخوف على صحته أو حياته ، وموسوس يخاف أو يحرص عليهما أشد الحرص · كلا النوعين يلجأ الى الأطباء فى حالات المرض · يذهب النوع الثانى الى الطبيب لأقل سبب ، بل ويعنى بالذهاب الى الطبيب الأشهر فى الحالات العادية التى يمكن معرفتها وعلاجها من الممارس العام · كثير من هذا النوع ينطبق عليهم المثل ، من خوفهم من المرض فى مرض ، والكثير يزيف الأمراض وكأنهم مدمنون أطباء · ومع الأسف ، يشجع الاطباء « ادمان » هؤلاء المرضى عليهم بطريقة أو بأخرى فيلتف المرضى حولهم ، أما لداعى الكسب أو حاجة الأطباء النفسية الى شعورهم بأهميتهم والحاجة اليهم · لم أر طبيبا يرد أحدا من هؤلاء المرضى عن بابه ، فلربما كان مريضا حقا · كم من أطباء تلوى أيديهم

ليكتبوا أدوية لمرضى هم ليسـوا فى حاجة اليها ؟ ويسـتمر القلق من الطبيب الى المريض الى الطبيب فى حلقة مفرغة ٠

من المعروف عنى أنى داعى لتمصير الطب وخاصة الطب النفسى ، فلا شأن لى بفروع الطب الأخـرى كمـا ينصحنى الزملاء ٠ من هنا جاء اهتماعى ، وشغلى الشاغل ، بالتحليل النفسى لأنى أعتقد أن الطب النفسى يبدأ من حـل المشاكل (المصرية) قبل أن تستفحل فتصبح أمـراضا ، لذلك نادرا ما أكتب وصفات الا فى حالات المرض لاعتقادى أن العقاقير لا تحل مشاكلا ٠ دخل على سكرتيرى ، الأستاذ ابراهيم ، يوما «لاويا بوزه» وقال :

ـ يادكتور العيادة مش ماشية ٠

ـ اذا كان هذا اعتقادك ، فقل لى لماذا ؟

ـ لأنك حضرتك ، ولا مؤاخذة ، لاتكتب روشتات ٠ روشتات ٠

ـ انى أقوم بواجبى وبالطريقة التى أراها أصلح ٠

أجابنى متماديا فى عتابه :

ـ ألا تعرف ، وأنت سيد العارفين ، أن الزبون دائما على حق ٠

ـ وأين ٠٠ أنا ٠٠ من هـذا ٠٠ المريض دائمـا على حق !

فتركنى يائسا وقفل الباب على ٠

## المورستان

كان المورستان بيتا كبيرا .. كئيبا موحشا . يبعد كثير عن مشارف المدينة ، وقيل انه كان مخزنا للذخيرة ابان الحكم التركى . يصل طوابقه الأربعة سـلم حلزونى مظلم ضيق كسلم المئذنة . قاعاته معتمة غير منتظمة ، سقوفها واطئة ومنافذها ضيقة كأنها شقوق تصفر مع الريح . وكأنما بناه جحا سدادا لدين .. لهذاأطلق عليه العامة «بيت جحا» .

كان يحوى عندما تولى الطبيب ادارته مائة وخمسـين مريضا ومريضة وعدد من الخدم ، وعلى رأسهم «السيد» .. المشرف على المورستان .

تمنى الطبيب فى أول يوم عاين فيه المورستان لو تريث السائق قليلا لعاد معه فى الشاحنة التى أوصلته الى المورستان ونفض يده من الأمر كله . تذكر ذلك جيـدا وكأنما حدث أمس فقط ، لا منذ عام مضى . أفاق من تأمله على صـوت جميلة ، زوجة السيد الشابة ، وهى تقدم له شرابا ساخنا . سألها عن زوجها فلم يكن موجودا أثناء كل ما جرى .

كان منهارا مجهدا . صعد وهبط السلم مائة مرة .. وأجاب على مئات الأسئلة :

ـ كيف وقع الحادث ؟
ـ أين كنت حينما وقع ؟
ـ من ، فى رأيك ، المسئول عن مقتل الخادم ؟
ـ هل اتخذت اجراءات فعالة لمنع وقوع مثـل هـــذا الحادث ؟

ـ هل كان من الممكن تفادى الحادث ؟
وأسئله ٠٠ وأسئله ٠٠

عاوده سـماع قهقهة المارد تسخر منه وتموج فى ليـل الصحراء ٠ الآن جاء دور المارد اللعين ليسخر منـه ٠ طالما أنكر وجوده واستخف بأراء الناس والخدم عندما حاولوا أن يقنعوه بوجود المارد ٠٠ وأنه يسكن الدار ويتقمص أرواح المرضى ٠ وأخيرا جاء السيد مع الفجر ٠ سأله :
ـ أين كنت ؟!
فلم يسـعفه السـيد بجـواب ٠٠ أو لم يعى الطبيب ما همهم به السيد ٠ أخـذه السيد الى منزله ، وما أن أوى الطبيب الى فراشه حتى راح فى نوم عميق ٠
٠٠ رأى نفسه فى المنام مقيدا الى العـامود فى ميـدان الجامع الكبير وهم يريدون القصاص منه ٠
صاح مدير الشرطة :
ـ مسئول عن قتل الخادم ٠
ثم ظهر السيد وفك وثاقه ، مثلما فعلا معا لما فكا القيود عن معاصم المرضى ٠٠ وليتهما ما فعلا ٠ صاح الجميع :
ـ بل لابد من كفارة ٠
فاجأ بهم السيد مشيرا الى مئذنة الجامع :
ـ سيصعد ويهبط سلم المئذنة مائة مرة ٠

صحا الطبيب من نـومه مع أذان الظهـر ٠٠ تنبه على صوت زوجته فى الغرفة المجاورة يحاور صوت السيد الأجش فى أمر لم يتنبه ٠ قام من فراشه ودخـل عليهمـا ليرى نظرة الاشفاق فى عيونهما ٠ قال لنفسه : وهل بقى شىء تأسيان عليه ؟

بادره السيد بقوله :

ـ لا عليك ياعمى ، فكل شىء على ما يرام ٠

وقد كان ٠٠ فلم يترك حادث قتل الخادم أثرا الا فى نفس الطبيب ٠ استمر يعمل فى المورستان ثلاث سنوات بعد الحادث حتى تم له ما آراد : بناء مستشفى جـديد للأمراض العقلية على أحدث نظم مستشفيات ذلك الوقت ولكنـه تـرك العمل قبل افتتاح المستشفى ٠

أما السيد فقد أحيل الى المعاش بناء على طلبه وبتزكية من الطبيب ، قبيل مغادرة الطبيب للمورستان ٠ كان التعقيد الطبى الحديث آكثر مما احتمل ، حمل آمتعته من غرفتيه فى الطابق العلوى بجوار عنبر النسـاء وغادر المورسـتان مع جميلة ٠ راح وكأنه لم يكن ٠ وهكذا افترق الزميلان عـلى غير موعد بعد أن جمعهما قدر فى مكان وعمل واحد ٠

كان السيد فى الستينات من عمره ٠ آصابته السـنون بحنية خفيفة فى الظهر ، وآكسبته نفسا مفعمة بالرضى ٠ كان حكيما ، رحيما وعطوفا على المرضى ٠٠ عليمـا بطبيبة العربى ٠ يحفظ الكثير من الوصفات العربية ، ويدلل على نفعها بالشعر الحديث ٠٠ وأحيانا كان يضربهم ضربا خفيفا بالعصا ، لا عقابا لهم على عربدتهم ، ولـكن ليخـرج الجن الساكن آجسامهم النحيلة المرهقة ، ويضـع من يتهيج منهم

فى « الزنزانة » ويعالجه بالحمية والمسهلات القوية حتى يشفى أو يموت ، وما مات الا الشيطان .

أما الطبيب فكان على نقيض السيد . لم يتعد سن المراهقة بكثير ، اذا سلمنا أن المراهقة قد تمتد بالمرء الى ما بعد الخامسة والعشرين . كان مزيجا من الفطن العربى والفكر الغربى . أخذ طبه عن الغرب ، ومن الكتب «الانجليزى» التى تراصت فى أركان غرفة مكتبه بالمورستان، وزحفت الى كل مكان فيه .. وكأنها زحفت على فكره .

انتميا الى عالمين مختلفين وكأن كل منهما قد جاء من كوكب آخر . ومع ذلك أخلص السيد للطبيب وقد أمل فيه خيرا ، أكثر بكثير مما قدمه هو الى مرضاه الى ذلك الوقت . أدرك السيد بسريرته أن الطبيب جاد فيما يقصده وهو بناء مستشفى حديث فى بلد لم تطأ قدم طبيب نفسى من قبل . وقدر الطبيب للسيد جهوده السابقة ، وأشفق عليه لو أشعره انه بتوليه ادارة المورستان وتطبيقه طرق الادارة والعلاجات الحديثة .. أصبح السيد غير ذى موضوع .

اختلف الناس أول الأمر فى ظنهم بالطبيب ، فمن قائل أنه يفسد عقول المرضى بأن يسلط على رؤوسهم الكهرباء من صندوق عجيب ثم بعد ذلك يلاعبهم كرة القدم . وقالوا مجنون مثل مرضاه لأنه يرضى بالعمل فى بيت جحا . وقالوا يراود زوجة السيد الشابة عن نفسها : ويأخذها الى البساتين مع المريضات بحجة الترفيه عنهن . وأخيرا انتهوا الى أنه روحانى ، فأطلقوا عليه هو أيضا لقب « السيد » .

ترك الطبيب للسيد شئون الخدم وكان عددهم يقارب العشرين . جاءوا جميعا من قبيلة واحدة . دفعوا الى المدينة دفعا ولم يكن لهم فيها ناقة ولا جمل . كان العمل فى المورستان بالنسبة لهم ملاذا ولهوا . اختلطت عليهم القيم ،

ما كان شرا رأوه خيرا ، وما كن واجبا اعتبروه عبثا • ولم يشأ الطبيب ،تهاونا أو غرورا منه، أن يشغل نفسه بأمورهم• حاوروه مرة فى أمر « المارد » الذى يتقمص أرواح المرضى •• فتركهم وشأنهم •

هكذا بدأ العمل فى المورستان متخبطا كاالأقاويل ، يخطو خطوتين ويتأخر خطوة ولم يمر العام حتى حدث مازلزل كيان المورستان ، وكاد أن يودى بالطبيب وعمله ، لولا حكمة السيد واخلاصه للطبيب •

أمر الطبيب بوضع مريض فى زنزانة منفردة لخطورته على المرضى • كان المريض شيخا قويا يصعب تحديد عمره ، تغلبت عليه غريزة القتل لما ضعفت غرائزه الأخرى • لم يفد معه لا العلاج الغربى ولا العربى • خصص السيد للمريض خادما توسم فيه النشاط والطاعة • وكان الخادم ــ كما شهد له زملاؤه فى التحقيق ــ « غاية فى الاخلاص والأمانة » !! اعتاد على سرقة قدر من شاى المرضى يخفيه فى زنزانة المريض حتى تحين ساعة انصرافه • راقب المريض فعلة الخادم المتكررة وبيت له شرا • فى عصر يوم الحادث ، دخل الخادم زنزانة المريض المعتمة ليسترد حمله المسروق • اجتمعت غريزتا القتل والسرقة فى زنزانة • فاجأ المريض الخادم بضربة حجر انتزعه من حائط الزنزانة على مؤخرة رأسه ثم انهال عليه ضربا حتى صرعه •

•• انهار الطبيب تماما عندما رأى عمله يتبدد على حجر فى يد مريض • ولكن المسئولين تمسكوا به تقديرا لجهوده ، بل أجابوه الى كل ماكان يطلبه ، وماكانوا ليستجيبوا لأكثر ما طلب لولا وقوع ذلك الحادث •

تحسنت الأمور كثيرا فى المورستان ، وتبدل فيه الحال

ولم يعد كما كان • قال السيد للطبيب وقد رآى المورستان يزخر بالأطباء والممرضين الفنيين •

ـ « رب ضارة نافعة » •

وأخيرا تم للطبيب ما أراد ودخل المورستان باكتمال المستشفى الجديد فى ذمة التاريخ •

***

قال لى الطبيب الذى أصبح مشهورا بقدر ما صعد وهبط سلم المئذنة :

ـ أبدا لم أقابل انسانا كالسيد آخلص لعمله ولم يقدره أحد • ووجدتنى أسأله سؤالا ألح على ، ولم يفتنى أن الطبيب أصبح فى مهنته هو «السيد» •

ترى أين اختفى السيد ليلة قتل الخادم ؟

قال الطبيب وقد علت وجهه ابتسامة مفعمة بالرضى :

ـ قالت لى زوجتى بعد آن تركت العمل فى المورستان مدة طويلة أن السيد ذهب فى تلك الليلة ليقنع شيخ القبيلة بالعفو عنى • اعتبرونى مسئولا عن قتل الخادم • ولم يتركه حتى أخذ عليه العهد •

# دفاع عن المرأة

تطالعنا الصحف من وقت لآخر بآراء في أحوال وشؤون المرأة المصرية • ولا غرابة فى أن يرجع الى الدين والكلام يدور غالبا حول علاقة المرأة بالرجل • ولكن الغريب حقا أن يعتقد المعارضون لحرية المرأة فى اكتساب حقوق لا تخالف النص فى القرآن الكريم وما يتوافق مع الشريعة السمحة ويتطلبه التطور المعاصر ، بأن المنصفين للمرأة يعارضون الدين •وعند هذا يتحول الكلام عن المرأة الىجدل فى الدين• فتتوقف الأقلام الى حين • ثم تعود الأقلام تصر على الورق لأن القضية هامة ، ويتكرر الجدل فلا يحسم أمر ولا ينتهى الى شيء • وأنا هنا لا أدافع عن المرأة لأنها أدرى بطبيعتها وحقوقها وواجباتها ، ولذلك فهى أجدر منى فى الدفاع عن نفسها • وانما ، فقط ، أريد أن أوضح مفاهيما قد تغيب عن فكر الرجل والمرأة •• وخاصة الرجل •

ولا أعتقد ، بداءة ، فى وجود شقاق بين المرأة والرجل• ولا أن المرأة تريد مساواتها بالرجل فىجميع شؤونها الدينية والدنيوية • فكلاهما يكمل الآخر ويتوافق معه ، «ومن آياته

أن خلق لكم أزواجا لتسكنوا اليها » صدق الله العظيم • وقد يكون منشا الخلاف ان المرأة ترى نفسها تعيش فى دنيا الرجل • وزادت هذه الرؤية وصاحبها شعور ، بلغ أحيانا حد الألم ، عندما تعلمت المرأة مثل الرجل ولم تتح لها فرص العمل مساواة للرجل • كم عدد السيدات فى مجلس الشعب والشورى بالنسبة الى عددهن فى الأمة ؟ كم عدد الطبيبات فى المستشفيات بالنسبة لخريجات كليات الطب ؟ كم عدد عضوات التدريس فى الجامعات بالنسبة الى مجموع الأعضاء • وكم •• وكم ؟ كفل الدستور للجميع حق التعليم والعمل ، بينما نجد أن المرأة تطالب بحريتها وحقوقها من الرجل • تدرك المرأة ، خاصة المتعلمة ، أن حريتها وحقوقها يجب أن تؤخذ ولا يطالب بها •• ولكنها الى الآن تتبنى سياسة «وجادلوهم بالتى هى أحسن» ونجحت فى ذلك نجاحا لابأس به •

## المعنويات والماديات :

المعنويات والماديات كلمتان محدثتان فى لغتنا العربية لذلك لا يلم أكثر الناس بمفهوميهما الماما واضحا ، لولا أن المعنويات خلاف الماديات • ولعلهما انطباعان عامان فى مخيلتنا ( مرآة عقلنا ) ندركهما ادراكا عاما نسقطها على غيرنا وما يجرى حولنا •• أو على أنفسنا • من المعنويات العلاقة الروحية ، والمتصوفة أحيانا ، بين المخلوق والخالق عن طريق الأديان ، وتراثنا الثقافى بأنواعه والتربوى • ومنها أيضا المشاعر الراقية والتقاليد والأعراف • ماذا نعنى تماما عندما نقول : ان فلانا ( أو شعبا ) روحه المعنوية عالية •• أو منخفضة ؟ ولكنا ندرك مانعنى • ومن الماديات،

مظاهر السلوك الحيوى للانسان • والعلوم الدنيوية وتطبيقاتها فى الأعمال المهنية والحرفية والتى أوصلتنا الى عصر التكنولوجيا • وليس كالدين والروحانيات أدل على المعنويات ، كما أن المال أدل على الماديات •

ولا توجد حدود بين المعنويات والماديات ، وهما متصلتان وتخدم كل الأخرى • فمثلا ، التلفزيون من الماديات ، أما ما ينقله الينا من برامج دينية وثقافية فهذه معنويات • والحب بمعناه الكبير لايستمر ويثمر الا بالماديات ، والمثل يقول : اذا دخل الفقر من الباب خرج الحب من الشباك • والدافع المعنوى غالبا يسانده الحافز المادى ، ما جدوى المركز المرموق اذا لم يسنده المرتب الكبير ؟

كذلك النفس تتزن وتتوافق بالمعنويات والماديات • بعض النفوس ذات نصيب أوفر من المعنويات ، والبعض الآخر نصيبها من الماديات أكبر • ولكن لا غنى لأى نفس عن كليهما • الملاحظ أن الماديات تزيد فى الشباب الى أن يبلغوا منتصف العمر حتى ينالوا حظهم من الدنيا • بينما تعظم وتتضخم المعنويات فى الشيوخ وقد شبعوا من الحياة وزهدوا فيها • ولما كانت بعض النفوس كبار والبعض صغار ، فان لكل نفس ما وسعها من هاتين الصفتين •

من ناحية أخرى ، ونحن نتكلم عن الاتزان النفسى ، اذا اختلت المعادلة كأن تقل المعنويات ولا تزيد الماديات أو العكس حتى يكون مجموعها ثابتا على أكثر الدوام ، فان النفس تضطرب محاولة المحافظة على اتزانها بضبط المعادلة بشكل أو آخر من السلوك • فان لم تعتدل المعادلة مع الوقت

تعرضت النفس المضطربة للاحباط أو الانهيار · ويحضرنى هنا قول شوقى :

انما الأمم الأخلاق ما بقيت
فان هموا ذهبت أخلاقهم ذهبوا

كذلك الحضارات · بعض الحضارات ، كالحضارة الاغريقية ، غلب عليها الطابع المعنوى · وبعضها ، كالحضارة الرومانية ، الطابع المادى · أما حضارة العرب خاصة فى صدر الاسلام فكانت حضارة دين ودنيا · · معنويات وماديات · وحضارة الأمة العربية المعاصرة حضارة مادية ، ولكنها لا تفتقر الى الجانب المعنوى لتأصل الدين فى قلوب العرب ، ولا عجب ، فنحن فى عصر البترول والمعونات الأمريكية والغزو التكنولوجى الغربى · وبديهى لا غنى لأى حضارة عن المعنويات والماديات · أما الخطورة ففى تحول المعنويات الى شعارات تلوكها الألسن ولا يعمل بها ، أو تتضخم الماديات على حساب المعنويات وما يتبع ذلك من مشاكل · قال ابن خلدون فى مقدمته ( فى أواخر القرن الرابع عشر ) ما معناه : ان الحضارات ، ويقصد الشعوب ، تولد وتكبر وتترعرع وتنضج وتبلغ عظمتها وقمة مجدها ، ثم تشيخ وتضعف وتنهار فتموت · كان المؤرخ العظيم متأثرا بما يحدث فى عصره للحضارة العربية ·

## وقفة على التاريخ :

لم يصب شعب من الشعوب فى معنوياته ومادياته بمثل ما أصيب به الشعب المصرى على أيدى المماليك ثم العثمانيين · حكم المماليك مصر من سنة ١٢٥٠ الى ١٥١٧ م من قلعة صلاح الدين الأيوبى · كانوا جنودا مرتزقة ، خليطا من

الأتراك والشراكسة والأكراد ، وأقليــة من مختلف البلدان الأوروبية • انتشر منهم ، الأقل شأنا وقوة ، فى أنحاء البلاد شمالا وجنوبا ، مقتطعين لأنفسهم الأبعديات المترامية تبعــا للنظام الاقطاعى فى العصور الوسطى • كان هم السلاطين المماليك الأول والأوحد استغلال خيرات مصر لاعلاء شــأنهم وتوطيد حكمهم • وكانت ثقافة الشعب المطحون من الحــكام دينية خالصة ، تنبع من الأزهر والجوامع والكتاتيب فى المدن والقرى كان الجامع والمدرسة فى مكان واحد • والذى حدث للمصريين نتيجة لحكم المماليك أنهم سلبوا مادياتهم فتضخمت معنوياتهم ( الدين ) حتى تتزن نفوسهم •

حكم العثمانيون مصر من ســنة ١٥١٧ الى ١٨٠٥م • عندما استولى السلطان العظيم سليم الأول على مصر بعد أن انتصر على اماليك فى سعركة مرج دابق قرب حلب شــمال الشام ، أقام بالقاهرة ثمانية شهور • قتل أثناءها ما قتــل من شباب مصر ، وسلب كل ما غلا ثمنه وخف حمله ، ثم جمع خيرةالعلماء والقضاة ومهرة الحرفيين وشحنهم الى القسطنطينية التى أصبحت فى أيامه عاصمة الخلافة الاسلامية •

خطط العثمانيون لمصر سياسة استعمارية الغرض منها القضاء على معنويات المصريين حتى لا تقوم لهم قائمة أثناء حكمهم • ولم يجد الاعلام العثمانى المســلم وسيلة لتحقيق هدفه الا بالدين المتأصل فى قلوب المصريين • ولم يجد فى الدين أشد أثرا فى النفوس من علاقة الرجل بالمرأة •

روج الاعلام التركى أن المرأة عــورة وفتنـــة • تفتن الـــرجال عن دينهم ودنيـــاهم • اســتعان برموز الأســاطير والروايات والنوادر ليدلل بهــا على أن المرآة : حية تلدغ

وعقربة تلسع وساحرة تسحر للرجال وتربطهم ( تسلبهم فحولتهم بالسحر ) نادوا ، ألم يقل عزيز مصر لامرأته زليخة لما وجد قميص يوسف قد من دبر ، «انه من كيدكن ان كيدكن عظيم » • آكد الاعلام التركى أن المرأة ما خلقت الا لخدمة أغراض الرجل ، ومنها انجاب البنين الذين هم أحد زينة الحياة الدنيا • هذه الترهات الاجتماعية ذات الصبغة الدينية لم توجد فى مصر فى عصر النهضة العربية التى بلغت أوجها فى عهد العباسيين وانتهت بأفول دولة الأيوبيين سنة ١٢٥٠م •

بذلك نجح العثمانيون فى شطر المجتمع المصرى الى شطرين : رجال وحريم • أصبح المجتمع فى ظل حكمهم وسيطرتهم مجتمعا أعورا لا يرى الا بعيون الرجال ، وهم على كل حال رجال بلا حول أو طول • كان غالبية الشعب أجراء فى الحقول ( مصر شعب من الفلاحين ) وقلة فقهاء ، يقرأون القرآن ويعلموه ، وكتاب دواوين وعرائض وتجار حوانيت وحرفيين يعملون فى حارات فى المدن ( النحاسين ، المغربلين ، الصاغة ، الخيمية ، العطارين ، السروجية ) وصيادين وبدو رحل •• وكلهم عبيد لأمير المؤمنين التركى الجالس على عرش امبراطورية لم تلبث آن تركت الولايات التابعة لولاة يصرفون الحكم كيفما شاءوا ماداموا يدفعون الخراج ، وكان الوالى التركى يحكم البلاد بواسطة المماليك البكوات والعساكر الشراكسة •

لم يجد المصريون من ضيقهم مخرجا الا فى الدين ورجاله • فعظموا من شأن المشايخ واهتموا بالمواسم الدينية وموالد أولياء الله • وآكثروا من حلقات الذكر يفرجون

بها عن كربهم • وكان رواتهم ومنشديهم شعراء الربابة • وأصبح الشعب مستسلما قدريا على أشد ما تكون عليه القدرية • كل شيء يحدث له مقسوم ومقدر ومكتوب على الجبين • كانت أمثال الشعب تجرى بما يرضى الحكام : « من يجرى وراء رزقه يتعب » ، «اللى يبص فوق يتعب» ، «تروح فين يا صعلوك بين الملوك » ، « العين لا تعلوعلىالحاجب » ، « يا بخت من بات مظلوما ولم يبت ظالما » ، « لقمة هنية تكفى مائة »•• انخفضت معنويات وماديات المجتمع المصرى اضمحلت (صغرت) النفوس حتى تتزن وتتماسك أمام القهر •

أصاب ذلك المناخ المرأة المصرية باحباط آشد وأنكى من احباط الرجل • رأت فى عين رجلها نظرة الخضوع والاستسلام فرضيت بمكتوبها فى الظاهر وان حنقت عليه فى داخلها • أدركت بفطنتها آن رجلها ، متأثرا بالدعاية التركية ، اساء اليها وظلمها • رأته أسدا فى البيت وحملا وديعا خارجه • ولم تستكن « الحرمة » « الولية » ، المحجبة وراء المشقبية ، القابعة فى عقر دارها • أصبحت العلاقة بين الرجل والمرأة قوامها الجنس ثم العاطفة وأقلها الفكر • غالا الرجل فى الغيرة الزوجية ، وقام الشك والتخون بين الطرفين ، وكيف لا ، وهى الحية الغادرة • قالت النساء : يا آمنة للرجال يا آمنة للماء فى الغربال • غالت المرأة فى اللجوء الى السحر واستحضار الأرواح ( الزار ) وكشف الغيب ( قراءة الفنجان ) وكانت الخاطبة والبلانة والماشطة والعجائز وسائل الاتصال المشروع وغير المشروع بين الجنسين •

أرضعت المرأة المصرية أطفالها حقدها ، فشبوا محبطين

كأبويهم . واستمرت عجلة التحطيم والهدم والتخلف تعمل بلا هوادة فى الأسرة المصرية جيلا بعد جيل لقرون عديدة ( قدرت تلك الفترة الزمنية بعشرين جيلا على الأقل ) الى آن جاء نابليون على رأس الحملة الفرنسية ودق للمصريين ناقوس الصحوة ، وكأن أحدا لم يسمعه . بقيت الحملة الفرنسية ثلاثة سنوات من ١٧٩٨ الى ١٨٠١ ثم رحلت تاركة لاشك ، أثرا .

ثم اختار العلماء محمد على باشا ( ١٨٠٥ ــ ١٨٤٣ ) ليكون واليا على مصر وقد تنبهوا لسوء حالهم ، ولعل الزيارة الفرنسية لم تذهب سدا . أدخل مخمد على التعليم الغربى الى مصر لتخريج مهنيين وحرفيين للخدمة فى جيش محمد على . وبعد وفاته قفلت المعاهد مع انهيار الجيش . ورث الخديوى اسماعيل طموح محمد على . أراد آن يجعل من مصره قطعة من أوروبا فأدخل التعليم والحضارة الغربية ليحقق غرضه . ولا شك أن المصريين وقد تنبهوا من رقدتهم متعطشين للعلم ، ولا ينقصهم ذكاء فطرى ، أقبلوا على التعليم باضطراد على مختلف مستوياته .

تدفق تيار الحضارة الغربية على مصر فى عهد الخديوى اسماعيل (١٨٦٣ ــ ١٨٧٩) وكان من جراء ذلك أن اكتسب المصريون معنويات جديدة غربية ولم يتنبهوا فى غمرة انتصارهم المعنوى وانبهارهم بالغرب الى انخفاض مادياتهم . بلغت ديون مصر فى عهد اسماعيل خمسة وثلاثين مليون جنيه . ثلاثة أجيال فقط منذ آن دق نابليون ناقوس الصحوة حتى وقف فلاح أمام الخديوى توفيق فى ميدان عابدين ( سبتمبر ١٨٨١ ) مطالبا بعزل رئيس الوزراء واعادة فتح مجلس النواب . فى ذلك اليوم قال عرابى للخديوى توفيق

(ولى النعم) قولته المشهورة : لسنا عبيدا ولن نورث بعد اليوم •
وسار الركب المعنوى الغربى قدما على الرغم من الاستعمار البريطانى ( ١٨٨٢ ـ ١٨٥٦ ) • انتشرت المدارس الابتدائية والثانوية فى أنحاء البلاد وفتحت الجامعة المصرية فى سنة ١٩٠٩ • خرج التعليم والثقافة عن نطاق اللغة والدين اللذين تركز عليهما التعليم فى الأزهر ، وفى سنة ١٩٦١ ساير الأزهر الركب الحضارى الغربى وأنشأ جامعته على غرار جامعات القاهرة وعين شمس والاسكندرية •

بجانب المكاسب المعنوية المتزايدة باضطراد تحصل المصريون على مكاسب مادية • ألغى نظامى الالتزام والسخرة، الالتزام هو ملكية الدولة، فى شخص محمد على باشا ، لجميع الأراضى الزراعية • والملتزم عليه أداء المحصول للوالى للتصرف فيه بمعرفته مقابل أجره على عمله ، والسخرة اجبار الناس على العمل بلا أجر ولا ثمن ، حفرت قناة السويس بالسخرة واستمر العمل فيها عشر سنوات الى أن افتتحت سنة ١٨٦٩ • نتج عن الغاء هذين النظامين أن انتعش الاقتصاد المصرى فتكونت طبقة بورجوازية مصرية مترفة ، أصبحت فى أوائل القرن الحالى عماد التقدم الثقافى والاقتصادى لمصر •

لما شاركت المرأة المصرية فى ثورة سنة ١٩١٩ طالبت بحريتها • ثم رفعت الحجاب عن وجهها رمزا لتصميمها على اكتسابها حريتها • وكان ان فتحت المدارس الحكومية أبوابها للفتيات • كان التعليم على اختلاف مستوياتها الى أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات بمصروفات عالية مما أعاق انتشار التعليم وقصره على الطبقة المتوسطة وما فوقها • فى سنة ١٩٢٢ حينما منحت مصر استقلالا اسميا وتغير لقب

السلطان فؤاد بالملك فؤاد الأول كانت نسبة الأمية لا تقل عن ٩٢٪ من البنين و ٩٧٪ من البنات ٠

كانت ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بدأ تحول من حال الى حال ، وكانت الفترة منذ آوائل القرن الماضى الى منتصف هذا القرن ( ستة أجيال ) فترة انتقال من عهود الظلمات الى النور ٠ أتيح التعليم للجميع كالماء والهواء عندما لقب المرحوم الدكتور طه حسين بلقب « قاهر الظلام » لم يقصد به انه انتصر على اظلام بصره فأصبح سياسيا ووزيرا للتعليم بل انه قهر ظلمات الجهل عندما نجح بعد كفاح طويل فى استصدار قانون اباحة التعليم مجانا للجميع ٠ عمل المصريون وجاهدوا طويلا على اكتساب معنويات وماديات الغرب ونجحوا فى ذلك الى الآن الى حد كبير ٠ ولكنها على كل حال مكتسبات مضافة لم تهضم بعد أو تتبلور فى طبيعتهم ٠ وان كانت المكاسب غير جديدة على الرجل المصرى الا انها جديدة على المرأة ٠ فلم تشارك المرآة الرجل كفاحه الطويل خارج البيت الا منذ جيل واحد فقط ٠ اذا حللنا الثقافة المصرية فى هذه الأيام وجدناها كالآتى : معنويات شرقية غربية وماديات غربية ، لم يبق لنا من المعنويات الشرقية الا الدين واللغة والقيم والتقاليد والأعراف ٠ ونحار فى المفاهيم ( آيديولوجيات ) فهى غربية ونحاول تطويرها الى شرقية ، الديموقراطية ، الاشتراكية ، القوانين المدنية والتجارية فى غالبيتها غربية ٠ آما الماديات فكلها غربية ٠

**عودة سريعة الى الماضى البعيد :**

ان من يقرآ مافى القرآن الكريم ويطلع على تاريخ المصريين فى عهود ما قبل الانهيار (٦٤٣ ــ ٨٤٧ م) يجد أن

الدين والدنيا كانا متناسقين ، يقوى كل منهما الآخر ٠٠ الدين المعاملة ٠٠ مخافة الله فى السر والعلن ٠ الصدق فى القول والاخلاص فى العمل ، البر والتآخى والترابط والتراحم ، القضاء العادل والقصاص بالمثل ٠ لهذا عم الرخاء مصر التى اشتهرت فى الدولة العربية بكثرة انتاجها الزراعى من الحنطة والذرة والقطن والكروم والزيتون وقصب السكر ٠ وفى الصناعة ، راجت صناعة الزجاج والخزف ، والورق من نبات البردى وكان الوراقون يشتغلون بصنع الورق وتجارته (توقفت هذه الصناعة فى القرن العاشر الميلادى بسبب ظهور نوع آخر من الورق مصنوع من الكتان) ، والمنسوجات القطنية والحريرية فى الفيوم ودمياط ، واشتهرت مصر فى العصر العباسى الأول بصناعة المراكب النيلية كما تفوقت فى صناعة السفن الحربية ٠ وكان الذهب يستخرج على مقربة من أسوان ٠ وفى التجارة ، كانت الاسكندرية (مع بغداد) تتحكم فى التجارة العالمية وتحدد الأسعار لمختلف البضائع ، وانتشرت الطرق التجارية التى يسرت للتجار نقل بضائعهم ٠

أما الحركة الفكرية فكان هناك نوعان من الدراسة : دينية حول القرآن والحديث ، ودراسة دنيوية حول الطب والفلسفة والكيمياء والمنطق والرياضيات والتاريخ والجغرافيا ٠

قال ابن خلدون العلوم نوعان :

١ ـ علوم نقلية مختصة بالملة الاسلامية وتشمل ، علوم التفسير والقراءات والحديث والفقه والكلام والنحو واللغة والأدب ٠

٢ ـ علوم عقلية وهى مشتركة بين الأمم ويهتدى اليها

الانسان بطبيعة فكره • وتشمل ، الفلسفة والهندسة وعلم النجوم والموسيقى والطب والكيمياء والتاريخ والجغـرافيا والرياضيات •

هذا كان حال المصريين فى ذلك الزمان • فرق كبير بين ذلك العصر وعصر المماليك والعثمانيين • كانت المرأة تتمتع بنصيب وافر من الحرية ، فلم تظهر مشكلة الحجاب وما تبعه من اجحاف بحقوق المرأة الا فى عهود الانهيار • وكان المجال مفتوحا أمام المرأة للدراسة ، فكن يذهبن الى الجوامع لسماع خطب الجمعة ودروس الفقهاء ويتعلمن علوم الدين واللغة ولم تقتصر دراستهن على مطالعة المبادىء الشرعية والأحاديث النبوية بل درسن الشعر والفنون والآداب •

قال الشيخ محمد عبده بعـد أن قضى فترة فى أوروبا للدراسة : وجدت المسلمين فى أوروبا والاسلام هنا ، يقصد مصر •

قطع الرجل المصرى شوطا طـويلا على طـريق الرقى الحضارى الغربى • ونسى أو تشاغل فى صعوده أن يأخذ بيد شريكته فى المجتمع لتصعد معه كما فعل الرجل الغـربى ، بحجة أن المعنويات الشرقية لا تسمح بذلك • من المسئول عن هذا ؟ الحقيقة انها المرأة التى ربت أبناءها منذ الزمن الغابر على الاحباط مع الغرور والصلف والاثرة والغيرة فى ستار من التقاليد والاعراف التى لا تتفق والعقل والمنطق • لما ظلم الرجل المرأة حقدت عليه وأصابته فى مقتل ، فى أبنائه • ولم يدر الظالم أنه ظلم ولا الحاقدة أنها حقدت •

نحن الآن فى زمن الحرية والاشتراكية والنور ، أو هكذا نعتقد • بدأنا صفحة جديدة منذ جيل مضى ، وأنزلنا ستارا على الماضى • مازالت جذورنا متصلة وان كنـا لا نراها •

اكتسبنا ماديات كبيرة مضـافة حتى تغلب عـلى معيشـتنا وتحضرنا الطابع المادى • عـوامل كثيرة تسببت فى هـذا : الهجرة الى المدن ، الهجرة الى البلاد النفطية ، تضخم التعليم المهنى العالى والمتوسط الى حد تكدث الموظفين فى القطاعين الحكومى والعام (البطـالة المقنعة) ، نقص الأيدى العـاملة وتضخم أجور العمال ، تشجيع الدولة للقطاع الخاص وحرية الاستثمار ، سهولة وسرعة الاتصال بالعالم ، تدفق البضائع الأجنبية ، دعم الدولة للأمن الغذائى (٨٠٪ منه مستورد) ، التضخم المالى والغلاء •ومع زيادة الماديات زادت المعاناة عشرة أو خمسة عشر أمثالها منذ عشر سنوات مضت •

زادت الماديات ، بعوامل خارجة عن ارادتنا ، الى ألف أو ألف وخمسمائة فى المائة ولم تزد معنوياتنا الا بجـزىء يسير من هذه النسبة • ولهذا اضطربت النفوس وعمها القلق والحيرة والخوف على المستقبل • وباتت نفوس متوسطى العمر والشيوخ أكثر قلقا لحاجتهم الى معنويات مضافة حتى تتوازن مع زيادة الماديات •• ومن آين لهم بمعنويات مضافة وعندهم مايكفيهم ؟ أما الشباب فانه ، لانشغاله بالماديات حتى يلحق بالركب ، لاه عن المعنويات •كتب آستاذ جامعى قارب السبعين من عمره خطابا الى كاتب عمود فى صحيفة كبرى يقول : ان دخله الشهرى من الجامعة يزيد كثيرا جدا عن حاجته • وعدد مصادر دخله من الجامعة فاذا به يشمل مرتب آساسى ، علاوات تدريس وآبحاث وآستاذ وتفرغ ، بالاضـافة الى عـلاوات آخرى • آراد آن يستقيل حتى يريح ضميره فرجته الجامعة ألا يفعل لحاجتها الى خبرته • وآخيرا سـأل الأسـتاذ الكبير الكاتب الكبير ماذا يفعل مع قلقه وتآنيب ضميره • خذ هـذه الحكاية على علاتها ، آلا تدلنا على اضطراب ميزان المعنويات والماديات فى نفسية هذا الاستاذ الشيخ !

وكأن معنـويـاتنا تخلخلت أو تبخرت بتأثير المـاديات المتزايدة ، فسمعنا صيحات مبعثها القلق تنادى بالعودة الى الدين والتمسك بأحكامه وشريعته ،التحلى بالفضيلةوالأخلاق الكريمة ، العودة الى أخلاق القرية ! ، الحـرب على الفســاد والتسيب والرشوة ، عودة المرأة العاملة الى بيتها ، انقذوا الشباب من الانحلال والتخنث والانقياد وراء التقاليع الغربية والادمان على المخدرات • صيحات عالية: فيها قليل من الصحة وكثير من القلق ، كل هـذا موجود فى كل الشـعوب بنسبة معروفة ولا تعالج بالصيحات • ونسأل : وأين ذهب ديننـا ودين أبائنا وهو متأصل فى قلوبنـا ، أين ذهبت الأخـلاق والمبادىء وما زلنا مجتمعا متماسكا ، ما هى آخـلاق القرية التى يريدوننا آن نعود اليها ؟ آلا توجد أخلاق فى المدينة !• لماذا الحرب على الفساد والتسيب والرشوة وأى حرب يريدونها وهنـاك القوانين الكفيلة بمحاربتها من يعـول الأسرة ذات العائل الواحد اذا عادت عائلتها الى بيتها لترعى آبناءها ، أين ذلك التحلل فى الشباب وهنـاك ما يقرب من ثلاثمائة ألف طالب يتقدمون لشهادة الثانوية العامة كل عام ؟ صيحات وصيحات مبعثها ودافعها عدم التناسق بين مادياتنا ومعنوياتنا • نحن فى حاجة الى معنويات جديدة بالاضافة الى معنوياتنا حتى تتزن نفوسنا ، وهذا يحتاج الى دراسات وتخطيط من المعنيين المتخصصين لا الى صيحات •

سمعنا ، على سبيل المثال ، عن آغانينا وآفلامنا وفنوننا الهابطة • كان عندنا فى الجيل الماضى بضعة مغنيين وممثلين وفنانين عظام ، والآن عندنا مئات من كل نوع وعظام أيضا، وانما الحنين إلى الماضى وتمجيد السلف ما جعل فنانى الجيـل السابق أعظم من فنانى جيلنا ، وهكذا الحال فى كل زمان •

قيل لى عن فيلم «الحريف» بطولة الفنان الموهوب عادل امام انه فيلم هابط ، فلما شاهدته أعجبت بفكرة القصة وبالتمثيل والاخراج غير الممل وقلت : على انى لست خبيرا ، هذا عمل لا يصح أن يوصف بالهبوط ·

**عودة الى المرأة :**

يحكى أن رجلا يدعى أدم ذهب الى شيخ لقبيلة كبيرة وطلب منه امرأة تؤنسه فى وحدته · لبى الشيخ الحكيم الذكى طلب آدم وأعطاه امرأة اسمها حواء · فرح آدم بحواء وأخذها لتعيش معه فى نجع بعيد · ولم يمض وقت على آدم وحواء معا حتى وجدهما شيخ القبيلة أمامه · قال آدم للشيخ ان حواء كثيرة الطلبات ، رغاية ، تلهينى عن عملى ثم هى خميرة عكننة · وطلب آدم من الشيخ أن يبقى حواء لأنه كان مرتاحا بدونها · وعاد آدم الى نجعه وحده · ومضت أيام ثم فوجىء الشيخ بمثول آدم أمامه · قال آدم للشيخ : يا شيخنا الكبير ، رد لى حوائى فلا أطيق فراقها · قال الشيخ لآدم : خذها ولا تعودا الى مرة ثانية ·

وكل رجل آدم وكل امرأة حواء · واضح ان قائل هذه القصة رجل ، وضوح اننا نعيش فى عالم الرجل · ولكن ، هل غاب على الرجل اننا نعيش فى عالم نصفه رجال والنصف الآخر نساء ؟

فى الماضى ، عهود الاقطاع والرأسمالية التى امتدت الى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، كان الاقتصاد موجه لخدمة الرجل · وكانت الأجور والمرتبات تقدر على أن الرجل يعول أسرته · أما فى هذه الأيام ، حيث مفاهيم الاشتراكية التى نشأت وتطورت بحكم وحتمية التاريخ ، فالتعليم

والعمل متاح للجميع • لم تفرق الاشتراكية بين الرجل والمرأة لأسباب أخذتها من التاريخ• كان الرجال فى الماضى يخرجون للصيد ثم الزراعة ثم التجارة والملاحة والحرب ، وهــذه لم تقدر عليها النساء • أما اليوم ، فالرجل يذهب الى مكتبه فى السيارة ويصرف عمله بالتليفون والتلكس والبريد، والعامل يذهب الى عمله بالسيارة أيضا ويدوس على زر يدير أضخم الآلات بلا مجهود عضلى • أعمال تستطيع وتقوى على عملهــا المرأة • كانت معظم الأعمال فى الماضى تحتاج الى قوة العضلات أما فى هذه الأيام عصر التكنولوجيا فلا تحتاج الا للفكر • كان الرجل فى الماضى يمتاز عن المرأة بقــوة عضــلاته وان تساويا فى الفكر • والآن ولسنا فى حاجة الى عضــلات فى أغلب الأحــوال فلمــاذا نفــرق بين الاثنين ؟ أصبح البقاء للأصلح •• فكريا •

وهناك ، أيضا ، أعمال تناسب طبيعة كل نوع • أعمال تلائم طبيعة المرأة وأخرى تلائم طبيعة الرجل ، وكل حر فى اختيار ما يلائمه • ولا يصح للرجل ، لأننا مازلنا نعيش فى عالم الرجل ، أن يملى على المرأة الأعمال التى يعتقد هو أنها تلائمها • ولا يصح ، أخلاقيــا ، أن نفــرق فى الأجور بين العامل والعاملة مادامت العاملة تقوم بنفس العمل •

كانت المرتبات والأجور فى الماضى تكفى الموظف والعامل وعيالهما • كان مرتب جدنا عندما تزوج ستة جنيهات ذهبية فى الشهر ، سكن فى بيت فى حى العباسية ثلاثة أدوار (من بابه) بجنيه فى الشهر • وكان والدى يتقاضى حينما تزوج راتبا اثنى عشر جنيها فى الشهر ، وكان خيرا وزيادة فقد اشترى سيارة بمبلغ ستة جنيهات • أما مرتبى حينما تزوجت

فكان ثمانية عشر جنيها ونصف ، وبقى كذلك ثلاث سنوات رزقت أثناءها بطفل ثم زاد الى خمسة وعشرين جنيها • كان ذلك هو الحال ولم أشعر أنا أو زوجتى بعوزنا الى المال ولم تعمل هى لنربى طفلنا ثم أطفالنا • ولكن ، كم ملايين من المصريين كانوا تحت حزام الفقر بسبب النظام الاقطاعى فى تلك الأيام ؟

واليوم ونحن فى عهد الاشتراكية والمساواة والعدل الاجتماعى وتفتيت الملكية ، هل يكفى مرتب الموظف أو أجر العامل اذا تزوج وعال أسرة فى بدء حياته العملية ، ويعيش عيشة كريمة ؟ بعض الشباب يقولون متوهمين قبل الزواج ، نعم •• أقول متوهمين ! تعلمت الفتاة بارادتها الحرة ، وبموافقة الاسرة ، وعملت باختيارها فاكتسبت حريتها الشخصية واحترامها لنفسها ولتختار ، على طريقتها ، شريكها • فكيف نطلب منها بعد الزواج أن تضحى بما كسبت لتحقيق مشيئة الرجل ، أيا كان غرضه ومشيئته • لن تضحى المرأة العاملة بكل مكاسبها الا لشيىء هو الأمومة وحضانة طفلها ، هذا اذا كانت ظروفها المادية تسمح •

ليست مشكلة المرأة العاملة مع الرجل مشكلة عمل خارج البيت واهمال الزوج والأولاد كما يدعى بعض الرجال • وان تكن هذه عرض من أعراض خلاف كجبل الثلج ، جزء يسير منه طاف فوق السطح والباقى الأعظم مختف تحت سطح المحيط• انها النظرة التقليدية البائدة التى ينظر بها الرجل الى المرأة • نظرة الجدود ، الجد والجدة ، مع الفارق المعنوى بين السلف والخلف • من المعنويات الجديدة التى نتمنى أن تضاف الى معنوياتنا تغير النظرة التقليدية المتبادلة بين الرجل والمرأة • ليس معنى أن الرجال قوامون على النساء سيادتهم

على النساء • لم يعد هناك (سى السيد) التى ذاعت بين النساء تنادرا على الرجال بعد ثلاثية الأستاذ نجيب محفوظ • قالت لى آنسة على وشك الزواج : مامعنى ، وآنا شابة متعلمة موظفة رشيدة ، آن يكون آخى الأصغر وكيلا عنى فى وثيقة الزواج •• ولماذا لاتكون العصمة فى يدها كما هى فى يد الزوج ؟ قلت : لأنك تعيشين فى عالم الرجل •• ولكن هل هذا يفسد من قضية الحب والمعاشرة ؟ قالت : الحب لا •• ولكن المعاشرة نعم •

تقول الاحصاءات ان نسبة الطلاق فى المدن آخذة فى الزيادة بسبب تحرر المرآة ، كما آن نسبة الزواج بآكثر من واحدة قد انخفضت انخفاضا كبيرا • وهذه ظاهرة اجتماعية سليمة لها مبرراتها ، ومنها آن الزواج آصبح تحقيق للسعادة ، فاذا لم يجد الشباب سعادتهم فى زواج يطلقون آملين فى زواج آخر يسعدهم • لم يسعد الزواج فى نظر الأزواج ان آكثره واجبات وآقله حقوق • انه واجبات وحقوق • ساعد على ايجاد هذه النظرة وسائل تنظيم الأسرة ( منع الحمل ) آصبح من وسائل تنظيم الأسرة اعادة بنائها على أسس سليمة •

لعلك تعجب اذا قلت لك اننا نخلق فى آرحام أمهاتنا نساء ورجال فى جنين واحد • من يدرس علم الأجنة البشرية يعلم ان الجنين الى الأسبوع السادس يكون قد اكتمل تكوينه العضوى ، ولا يبقى الا آن ينمو الى آن يكتمل نموه فى الأسبوع الثامن والعشرين • يولد الأطفال عادة بعد تمام الأسبوع السادس والثلاثين ، والقليل يولدون آحياء بين الأسبوعين الثامن والعشرين والسادس والثلاثين • كل الأجنة من حيث التشريح يكونوا ذكورا واناثا فى نفس

الوقت الى آن يبلغوا نهاية الأسبوع السادس • اذا شاهدت جنينا سقطا فى أسبوعه السادس ( بعد شهرين من ابتداء الحمل ) فلن تستطيع أن تميز نوعه اذا كان ذكرا أم أنثى • بعد الأسبوع السادس تفرز الغدة الصماء فوق الكلية فى الجنين الذى سيتحول الى ذكر نقطة من هورمون التستوستورون، وبهذا يتحول الجنين الى مذكر • أما الجنين التى لا تفرز غدتها فوق الكلية هورمون الذكر ( تستوستورون ) فتبقى أنثى •

واذن ، فكلا النوعين جاءا من تكوين واحد ثم تفرعا الى ذكر وأنثى • ذلك ، من حيث الوظيفة التناسلية فقط ويبقى الولد والبنت فيما سوى ذلك متساويين فى التشريح ووظائف الأعضاء الى سن البلوغ • ما يلاحظ من فروق بين الجنسين قبل البلوغ انما يعود الى عوامل التنشئة والبيئة والتقاليد • أما ما يحدث عند البلوغ فمرده الى نشاط الغدد الجنسية فى كل نوع فيتحول الصبى الى فتى والصبية الى فتاة • الفرق بين الفتى والفتاة فى الشكل والحجم والميول والطباع والقوة العضلية و ــ بداهة ــ الأعضاء التناسلية • كل هذا ولا يوجد اختلاف من حيث التشريح ووظائف الأعضاء بين أجهزة الجنسين التى لا تخدم الجنس • لا يوجد فى جميع فروع الطب ، ماعدا التوليد وأمراض النساء ، طب للرجال وآخر للنساء على مدار أعمار الرجال والنساء • حتى الطب النفسى فيما أعلم ، لا توجد فيه أمراض للرجال وأخرى للنساء ، وانما توجد اضطرابات تكثر فى أحد الجنسين عن الآخر بسبب الضغوط الاجتماعية التى يتعرض لها كل جنس بسبب نوعه •

فما بالنا نسمع من المغرضين غير العارفين ان مخ الرجل أكبر وزنا من مخ المرأة ( الفرق بينهما مائتين جرام ) ومن

هنا استنتجوا ان الرجل أذكى من المرأة وأكثر ملكات عقلية عليا • فاتهم ان الفرق بين المخين انما يعود الى اختلاف وزن وحجم الرجل عن المرأة •• هل يقول أحدا ان ذكاء الفيل ، اذا أخذنا بالحجم والوزن ، يقارب من ذكاء الانسان ؟

ثم تحول المغرضون غير العارفين الى حقيقة أخرى ليسموا بالرجل على المرأة وهى اختلاف شقى المخ الأيمن والأيسر • من المعروف ان لمخ الحيوانات الراقية شقين متماثلين فى التكوين والشكل، الشق الأيمن يخدم النصف الأيسر من الجسم، والشق الأيسر يخدم النصف الأيمن • ولما كان أحد نصفى الانسان ، الأيمن عادة ، أقوى حركيا وأكثر استعمالا ، فقد وجد اختلاف فى التشريح الميكروسكوبى لخلايا وألياف الفص الجدارى الأيمن والأيسر • لذلك سمى الشق من المخ الذى يخدم الجانب الأقوى من الجسم بالشق الأقوى عادة الشق الأيسر • وقالوا ان الشق الأقوى فى الرجل يحوى خصائصا تفضله عن المرأة فى المجالات التى نبغ فيها ولم تطاوله المرأة • ولا يوجد اختلاف بين فصى المخ المقدم وهو الخاص بالذكاء والكلام وكل ما يميز الانسان عن الحيوان فهما سواء فى الجنسين • نظريات ان أثبتتها التجارب المعملية ، العضوية والوظيفة والنفسية ، فلم يثبتها الواقع العملى • أثبتت المرأة كفاءات ممتازة فى مختلف المجالات فى المدة القصيرة التى أتيحت لها منذ تحررها ، وصلت الى الجامعة وزاحمت الشباب فيها ووصلت الى كراسى رئاسة الوزارات ، فى آسيا وانجلترا •

ولم تغلب الحاقدين الحاسدين للمرأة الحجة فقالوا عن النساء المتفوقات •• آه •• ولكن هؤلاء نساء مسترجلات !

ولحكاية النساء المسترجلات هذه التى اتخذها المغرضون سندا للهجوم على المرأة ظل من الحقيقة وظلال من الزيف •

عرفنا ان مايفرق الرجل عن المرأة هو هورمون التستوستيرون الذى هو فى الرجال أكثر بكثير عما هو فى النساء ، كلما زاد مقدار التستوستيرون كان الرجل أكثر رجولة • ولو أخذنا ، افتراضا ، هورمون التسترستيرون من الرجل الى آخر نقطة فيه لتحول تماما الى امرأة وظيفيا ونفسيا • ستفقد المرأة سحرها على هذا الرجل ، ولن يقول فيها بيت شعر واحد ، أو يقتل نفسه للحصول عليها • سيقلدها ويفعل مثلها ، لولا انه مع الأسف لن يؤدى وظيفتها الحيوية ، الحمل •

من دراستنا للهرمونات الجنسية عرفنا ان كل الرجال ليسوا رجالا مائة فى المائة ، ولا كل النساء نساء مائة فى المائة • هناك بعض الصفات الأنثوية فى الرجال وبعض الصفات الرجولية فى النساء • لو أعطيت رجلا هورمون الأنثى ، الاستراديول ، صفا جلده ورق وفقد الشعر الذى عليه ، وتضخم ثدياه وتكون الشحم على أركانه وأردافه •• كذلك يكون الحال مع المرأة لو أعطيناها هورمون التستوستيرون • وحتى فى ميولنا واتجاهاتنا لسنا رجالا أو نساء مائة فى المائة • أنظر الى صنعة الطبيب ، انه يحنو على مرضاه ويسهر على علاجهم وراحتهم ، ويهتم بشئونهم الخاصة وبأطفالهم ، ويهتم بشكاواهم ومتاعبهم وهمومهم ، وهذه خصائص أنثوية • مثل الطبيب فى ذلك المدرس والبقال وغيرهم من ذوى المهن والحرف • وحتى رجل الشرطة ، الا يعمل على أمننا ويسهر على راحتنا فى أعمالنا وراحتنا وينظم المرور ويبعد عنا الأشرار ؟ هؤلاء يختلفون عن المهندس والجندى وضابط الجيش والتاجر من حيث الميول والاتجاه •

لذلك اتجه رجال الى أعمال هى أنسب للنساء ، والنساء

الى أعمال أنسب للرجال • ولكن الرجال فى الماضى قاموا بكل الأعمال خارج البيت، فلما تحررت المرأة مؤخرا وطالبت بحقها فى مساواتها بالرجل فى العمل احتج الرجال بأنها تزاحمهم فى رزقهم •

استغل الرجال منذ الأزل غريزة وخاصية الأمومة فى المرأة أسوأ استغلال • وساعدت المرأة فى تمادى الرجل فى استغلاله لها نزولا على حكم الغريزة • وكما اننا لسنا رجالا او نساء مائة فى المائة ، فاننا لا نكون رجالا ونساء بنفس القوة الجنسية طوال عمرنا • تبلغ المرأة قوتها ودوافعها الجنسية فى نهاية سن المراهقة ومطلع الشباب • تختلف الشابة عن الشاب فى دافعها الجنسى لأنها تشتهى أن تكون أما • عندما تغرى الشابة شابا على طريقتها وأسلوبها ، فان رسالتها له تقول : تعال لتجعل منى أما • أما دافع الشاب نحو الشابة فدافع جنسى لا أكثر : أريدك لنفسى • ومن هنا كانت المرأة هى الأساس والأصل والأرض الطيبة لتكرار ودوام الكون • ويستمر الدافع الغريزى للأمومة فى فورته بضع سنوات ثم يضعف تدريجيا الى أن ينتهى ، وعندئذ تتساوى المرأة من حيث الدوافع الدنيوية بالرجل •

للأنثى فى حياتها دوران ليسا على الدوام متلازمان ، الأمومة والمرأة • تكون الأنثى فى دور فترة الأمومة ضعيفة أمام الرجل •• يجب أن تخضع له والا فلن تحمل منه • هذه هى نقطة الضعف عند المرأة • فاذا خضعت للرجل وحملت منه وفرغت من الأمومة وأرادت أن تتساوى معه فهل يصبح ذلك بعد فوات الأوان • تقدم الرجل عنها بسنوات وتمكن من عمله وتربع على عرشه • وهيهات أن يفسح لها مكانا معه خارج البيت ويريدها أن تبقى فيه لخدمته

وخدمة أولاده الذين هم أولادها أيضا • وتغلب المرأة على أمرها بسبب قوة الرجل المادية وسيطرته المعنوية اللتين اكتسبهما أثناء تواجد امرأته فى البيت لتربى أولادها الصغار •

أدركت الشابات الحديثات اللاتى لا يملكن نصيبا وافرا من الأمومة ، لسبب أو آخر ومنها الاحباط والتحدى، نقطة الضعف هذه فجحدتها وقررن أن ينحين الى دور المرأة لا الأنثى ، دائما وطوال حياتهن • هؤلاء زاحمن الرجال وتسببن فى اثارة قلقهم ومن ثم معارضتهم • ما ينبغى هنا هو شىء من الفهم والعدل والتسامح والتقدير • ولكن الى الآن ونحن على أبواب القرن الواحد والعشرين نسمع من يقول •• لا •• لحرية المرأة •

وكم من ظلموا المرأة فى القرن الماضى حتى لا نذهب بعيدا • قال نابليون بونابرت ( ١٧٦٩ ـ ١٨٢١ ) الذى نشر مبادىء الاشتراكية فى أوروبا بحد السيف : فتش عن المرأة ، ويقصد تتبع مشلكة أو مصيبة حدثت لرجل تجد أن وراءها امرأة •

قال الفليسوف الألمانى الأشهر شوبنهاور ( ١٧٨٨ ـ ١٨٦٠ ) زعيم الفلاسفة المتشائمين : ان عقل المرأة يأتى بين عقل الطفل والرجل ، ويقصد ان عقل المرأة أقرب الى عقلية الطفل ولذلك فهى أقدر على تربيته ورعايته • يا للتجنى ، رأى الفليسوف عطف وحنان الأمومة انتقاصا للعقل • ثم اتضح فيما بعد أن ذلك الفليسوف العظيم كان يكره أمه كرها شديدا •

ستتحرر المرأة المصرية كما تحـرر الرجـل المصرى ٠ ستأخذ مكانها بجانبه لا وراءه ٠ ولكن ، عليها هى أن تتحرر وأن تثبت لرجلها أنها أهل للتحرر ، دون مهاترات فى الصحف أو حرب أهلية جنسية ٠ وليذكر الرجال أن لكل رجل امرأته التى تليق به وتدل عليه ٠

اذا سألونى ما رأيى فى رجل ما ، أو امرأة ما ، قلت أرنى الشريكة ، أو الشريك ، حتى أتم حـكمى عليـه ٠٠ أو عليها ٠

القطار ينطلق مسرعا • كل دقيقة تمر تبعدني عن فيفي • أشعر بالأمان ولا أزال العق جراحا ساخنة • ربما هذه نفس المقصورة التي جئت بها من أسوان • من ثلاثة شهور • تركت الرياسة قبل عودة جمال وفيفي •

سيمر صيف طويل وينقضي • ويعقبه شتاء قصير وينتهي عام • وقد أحظى بعد طول الانتظار بالترقية • غرمت فيها الكثير • هل أعود بالترقية الى القاهرة ؟ لا •• أبدا •• سأعارض في نقلي حتى لو فقدت وظيفتي • الأعمال كثيرة لمن في مثل سني وخبرتي •

ستقول زينب عندما تراني بالبدلة المستوردة والكرافات الحرير السولكا : تغيرت • وآهمهم كعادتي فلا تسمعني : غيرتني تجربة ••

ايقاع العجل على القضبان يهدهد حواسي • تعيدني لذكرياتي •

وهل أنسى أول لقائى بهـا • وقفت والمسـاء أنتظـر المصعد من طابق الرياسة • كان قد مر أسبوعان على انتدابى • عملت فيهما عملا شاقا متواصلا حتى تسلل الملل والتـوتر والحرمان الى نفسى • ترفقت بى القاهرة نهارا ولكن لياليها أكثرت من وحدتى •

وأخيرا جاء المصعد وفيه فوقية ( فيفى ) • وضح أنها كانت تحتجزه • اعتذرت بلهجة تفيض رقة وعذوبة لا تجيدها الا هى : أسفة جدا والله •

تلاقت عيـوننا وتراضت • خلتها فى معطفهـا الأدكن وقوامها الفارع سوزى عروس منى التى تحتفظ بها منـــذ طفولتها • أغلقت الباب وضغطت على زر الهبوط ، فهبطت بنا الرغبة اثنى عشر طابقا •

لم نبتعد بعد أن غادرنا المصـعد الى البهـو الرخامى الفسيح • سرت وكتفى فى كتفها أتنسم عطرها الخفى حتى مررنا من باب العمارة الموارب الى برودة الطريق • تذكرت الليل الطويل فى انتظارى فلملمت شجاعتى وسألتها :

ـ الهانم عندها سيارة ؟

علمت ونحن فى الطريق انها السكرتير الخاص لصاحب الشركة • تجيد ثلاث لغات وتكتب على الآلة •• قالت :
ـ بسرعة ثمانين كلمة فى الدقيقة • وأحيانا مائة •• حسب المزاج •

تقيم مع أنا ( جدتها ) لطلاقها • وعندها علاء ، روح أمه ، فى البحـرية التجارية • تذكرت مكانتى فى الشركة

والغرض من وراء انتــدابى فراعيت معهــا حــدود الأدب والمجاملة ·

ودعتها أمام بيتها فى شارع البستان وآكملت طريقى مرحا الى ماسبيرو وآنا آدندن يا سـلام على الانفتــاح ·· وصبياه الملاح :

وكيف آنسى جمــال خورشــيد · انه غاية فى الأناقة والظرف · اعتاد حيــاة الترف والأبهة · ليست المصرية فيه خالصة ، فهو أشقر ، متورد الخدين · آخضر العينين ، ناعم الشعر وقد تدلت خصلة منه على نصف جبينه فزادته بهاء · يجيد فن الاصغاء وينتقى لكلامه · خبير بعالم المال والأعمال، عليم بأسرار شركات الاســتثمار · آشــعرنى من الأول أن علاقتنا ستبقى شبه رسمية ·· هو المدير المالى للشركة · ولم آلبث أن تحققت من الفارق بينه وبينى ·· وآنى لا أستطيع أن أعلو علوه ·

كان مطلقا ، وكانت استراحة ماسبيرو كلها له الا فى الفترات القليلة المتباعدة التى ينزل عليــه فيهــا ضيف من ضيوف الشركة الأجانب أو زميل مثلى منتدب فى الرياسة · لذلك ســمح لجمال بالاقامة فى الاستراحة اقامة دائمــة · وما كنت أراه فيهــا الا نادرا · كان كل منــا فى شــأنه وما يعنيه ·

لم تكد فيفى تغيب عن خاطرى حتى فوجئت بها تدخل على مكتبى · اختلقت عذرا ، فآتيت بآخر لأبقيها قليــلا · أخذت آدور وآوارى بالكلام حتى قبلت دعوتى لها للعشاء · قالت وعيناها تبوح غزلا :

ــ هذه أشياء لا تشجع عليها الرياسة يا آحمد بيه ·

ولكنها اقترحت أن يكون العشاء فى بيتها .. بعيدا عن العيون .

ذقت ليلتها طعم الـكلاريت لأول مرة . أدار رأسى من الكأس الثـانى . قالت فيفى ان النبيذ لزوجهـا . لا تحب شرب الخمر ولكنها شربت معى نخب تعارفنا . راحت تسألنى بعد العشاء عن حياتى وعملى فى أسوان حتى استعدت هدوئى وثقتى بنفسى .

ثم غيرت مجرى الحديث وسألت :

ـ وماذا تفعل بكل اللاتى توقعهن فى حبائلك ؟

أسقط فى يدى . فلم يتصيد ابن السـابعة والثـلاثين امرأة اللهم الا زوجته . ولـكن عبارة سمعتها من جمـال أسعفتنى :

ـ لا أسمح لسيدة بالتحكم فى عواطفى .

بدا أنى لم آت بجـديد . قامت تحمـل عـلى وجلست بجوارى على الأريكة ذات المكانين ثانية ساقها تحتها ومسندة ذراعها العارى على ظهر الأريكة .

احتوت كيانى . قالت :

ـ ما الذى يعجبك فى المرأة ؟

نظـرت الى عينيها أستلهمهما الجـواب . ووجـدتنى أسألها :

ـ عيناك جميلتان . ترى ما لونهما ؟

ولابد أنى بدوت فى نظرها سـاذجا . ما أن سـمعت

سؤالى حتى رقعت ضـحكة طويلة مجلجلة رنت فى جنبـات الحجرة ونفذت الى أعماقى ، كادت تفقدها توازنها فتشبثت بى • قالت وهى تدنـو بوجههـا منى حتى كاد أنفينـا أن يتلامسا :

ـ خضرة •• عنيـه خضرة • يعنى أنا بقـة عمتـك خضرة •

القطار يغادر محطة الأقصر • أيقظنى صوت مسـافر يصيح على ولد افتقده فى القطار ، ياواد يا شفيج :

يـذكرنى الفجر الذى يترآى لى عبر النافذة بميعـاد خروجى من بيت فيفى • فى تلك الليلة خجل الفجر البرىء من فعلتى • تذكرت صوت زينب تقول لى وهى تودعنى فى أسوان :

لا تغوينك بنات القاهرة •

ما من خطيئة الا ولها ما يبررها • لم أجـد لخطيئتى مبررا •• أو أوجدته : أول وآخر مرة • أقسمت ألا أعود لعمتى خضرة •

ولكن توبتى لم تطل • طلبتنى على الخط الداخلى قبـل عطلة نهاية الأسبوع • دعتنى لزيارتها حتى تؤنس وحدتى وحدتها • ذهبت ليلتها • وليال بعـدها حتى اعتـدت على زيارتها • فهمت منها ألا أزورها الا اذا دعتنى •

خلعت على فى أسـابيع قليلة حبا وحنانا لم أتوقعه أو أحظ به طول حياتى • غيرت من مظهرى حتى أكون لائقـا بدرجة المدير المرتقية • كنت أحمل اليها مشاغلى ومتاعبى فتنصنت الى ولا تقترح حلولا كما تفعل زوجتى ، وأسـخو

بنصائحى ومعونتى فتتقبلها شاكرة · الى أن تعلقت بها وطلبت أن أتزوجها · قالت :

ـ لا تكن سخيفا فتفسد كل شيء ·

أبطأ القطار فى طريقه الضيق بين التلال · أشعر بجوع يعتصر معدتى ، لم أتناول وجبة منذ يومين · يحسن بى أن أقوم وأحلق ذقنى وأصلح من ملبسى وأذهب الى عربة الأكل ·

المناظر على الجانبين تتحرك من خلفى الى أمامى عبر النافذة المنخفضة · أدفع الحساب للجارسون بعد أن وضع أمامى فنجانا آخر من القهوة ·

لا أدرى كيف كان شبح جمال هناك دائما · فى الشركة ·· فى ماسبيرو ·· كما فى شقة فيفى · وكأن عينه كانت على تراقبنى · ألم أتمن أن أعلو علوه !

كان الحديث بينى وبين فيفى يتطرق أحيانا الى ذكر جمال ، كانت دائما تذكره بالاعجاب · قالت انه مطلق وله ولد · أوجست أن تكون عين فيفى على جمال · ثم امتدت بى الهواجس فخيل الى أن عيون الزملاء كلها على ·

وجاءت النهاية بغير توقع · قالت فيفى :

ـ بعد يومين ، أول الشهر ، أسافر الى الاسكندرية لأقضى مع علاء ابنى أسبوعا · أكبرت فيها أمومتها · وعدتنى أن تتصل بى بمجرد عودتها ·· لأنها لن تطيق فراقى ·

فى اليوم التالى لسفرها عدت الى ماسبيرو مبكرا على غير عادة · كنت أشعر باجهاد · رأيت جمال فى الصالون

فانضممت اليه . تبادلنا أحاديث مقتضبة . وفجأة قال جمال على طريقته : وكأنه لا يعنى أحدا بما يقوله :

ـ لا توجد درجة مدير شاغرة فى الوقت الحالى . ربما بعد عام عندما يتم الاتفاق على المشروع الجديد -

ولم يكد جمال ينهى عبـارته حتى رن جرس التليفون رنينا متصلا زاد من انخفاضى .. أمس سافرت فيفى واليوم طارت الدرجة . ولم ينته الرنين فى أذنى حتى دخل علينـا محمد الفراش يغالب ضحكة بين شدقيه . اتجه نحـو جمال وقال له :

ـ جمال بيه .. فى واحدة ست طلباك من الاسكندرية - بتقول انها عمتك خضرة .

زوجتى وأولادى فى انتظارى على محطة أسوان -
قالت لما وقعت عيناها على :
أحمد .. تغيرت !

## كاميرا

غاص فى مقعده الوثير •• يريح أعصابا مرهقة
صحا من حلم مثير •• أسعده حينا وأقلقه
دام الحلم شهورا

دخل عليه أحد •• وضع أوراقا أمامه
ثم خرج كما دخل •• فى هدوء
يليق بمقامه

رفع سماعة التليفون وآخبر زوجته •• بلسان عرف مؤخرا الكذب
تكاد المسكينة لا تسمعه •• من خوت العيال وضجيجهم
« ألغى السفر فجأة •• لأسباب طارئة »
سرتها المفاجأة

★★★

سلحه الله بكل آسباب النجاح •• ذكاء متقد وحس مرهف
أوصلاه الى ما وصل اليه
لم يتعد الثالثة والأربعين

فى عينيه مسحة حزن •• فى صوته رنة شجن

ماتت أمه فى سن مبكرة ٠٠ ربه والده على الخلق الحسن

وفق بعد حصوله على الدكتوراه ٠٠ الى من حققت له عيشة راضية
أحبها بفكره
فلما أنجبت له البنتين والولد
أحبها بعقله وقلبه
وكان لها مخلصا ٠٠ ومن الغواية محصنا
أو هكذا اعتقد

★★★

الى أن جمعه « وسعاد » عمل مشترك
كانت أول عهده بها تحتج عليه كثيرا ٠٠ ونادرا ما توافقه
تعكس عيناها هدير موج البحر ٠٠ اذا غضبت
وخرير الماء فى الجدول الرقراق ٠٠ اذا رضيت

تقبل منها هذا وذاك
بروح عالية ٠٠ بنفس صافية

ثم رأى فيها حواء عصرية
فكر متحرر وأنوثة مخفية
قرأ عنها فى قصص مصرية

حدث ذلك فى حفل ٠٠ دعيا اليه بسبب عملهما
قصداه على غير اتفاق ٠٠ رفع الكلفة بينهما
زميلان أحيلا للتقاعد ٠٠ قالت
« مالنا والتقاعد ٠٠ ومازال فى العمر بقية »

توثقت صلتهما ٠٠ فى لقاءات مماثلة

رحبا بكل فرصة جمعتهما ·· وبكل صدفة يتلاقيا
قال
« كبرياء ودلال »
ضحكت
« سحر وجمال »

تحولت توافقه ·· وتعارضه لتوافقه
دارت فى فلكه ·· وليس فى فلكها الا هو

★ ★ ★

هى
من عائلة محافظة
مال بختها فى زواج عاجل ·· وطلقت
داوت جرحها بالتحصيل والعمل
تخاف ان تزوجت ·· تجنى الشوك والندم
ضاقت بالحياة ·· وليس فى حياتها الا العمل
قرأته ·· فهمته
أيقظت فيه حبا نائما
لوحت له بحبها ·· شجعته

فلما باح لها بحبه ·· نهته
أنكرت عليه تجرؤه
قالت
« أرأيت منى يا حلو ما شجعك ! »

أفقدها حبه عقلها
استسلمت لهواه ·· وما شاء له الهوى
قالت

« ليس لى غير الهوى مطلب »
« ليت لى بعد الضنى مأربا »

انقلب اللعب الى جد ·· خرج الأمر من اليد
كتب عليهما أن يسلكا ·· طريق الحب الى نهايته

لم يأل جهدا فى غوايتها ·· وعن الغواية مادرى
كان محصنا
أو ·· هكذا أعتقد

فى مكتبه نال قبلة ·· أحلى مذاقا من العسل
قالت
« ياعينى لا تفعل ·· ياحبيبى ألا تخجل ! »

وأخيرا خططا ·· لقضاء نهاية الأسبوع معا
وللمحبين القادرين دروب ·· تشبع الرغبة وتفى بالغرض
سيعطى ضميره أجازة ·· استحقها عن طول حياة فاضلة
قال لزوجته انه مسافر

فى الصباح جاءته ساهمة ·· وردة شحب لونها
سألها ·· مالها
باتت تفكر فيما حدث بينهما
لن تسلم له نفسها قبل أن ··
يطلق زوجته

★★★

خجل كتلميذ أتى ذنبا ·· ولم يره أحد
أحقا ··
لم يره أحد !

# ١

انفض الشمل من « الليدو » مع اطلالة القمر فوق برج الجزيرة • فتيــة وفتيــات فى عمر الورد ، تفرقوا مثنى وفرادى الى خارج النادى • تداعب رؤوســهم الغضة أحلام ان تحققت كان لها أثر لا يمحى فى نفوس بعضهم •

كان « حسام » حائرا فى حبه لـ « حسناء » ، متخيلا أنها تكن له حبا خفيا • يتمنى أحيانا لو كان قد فاز بها • وعلى كل فقد تزوجها « فتحى » منذ ثلاث سنوات • كان قد فضل حريته على الزواج •• حتى ولو من حسناء • أما «علا» ذات العقل المدبر ومشيعة البهجة فى الشــلة ، فقــد آملت أملا شديدا فى الفوز بقلب حسام النافر ، على لهيه عنها وخيلائه وغروره • بالزواج طبعا !

وهم أبناء طبقة عالية وعز • جمعتهم منــذ طفــولتهم مكانة آباء وصداقة أمهات ومدارس لغات • ولا عليهم من

شيء ، فهم أذكياء العقل والقلب ، أخلاء البال ، عليو الهمم • أطاعوا ما كانوا يؤمرون به ، وأدوا ما عليهم الى أن تخرجوا فى غرة الكليات •

أصبح حسام طبيبا ، وان لم تتوفر بعد له الحكمة • وفتحى محاسبا فى شركة كبرى للاستثمار يملكها والده • وحسناء ، بما لها من ارادة قوية ، معيدة فى قسم الاجتماع بالجامعة الأمريكية • أما علا فقد رضيت بأن تكون أمينة مكتبة •

كان قد مر ثلاث سنوات على زواج فتحى وحسناء • سكنا شقة أنيقة فى المهندسين ، دفع والد فتحى ثمنها وزادها بالديكور أناقة ، وجهزها والد حسناء بكل فاخر ثمين من دمياط وشارع قصر النيل • تخالص الحموان بما أديا نحو قرة أعينهما ليتفرغ كل الى شئونه الأخرى •

قررت حسناء قبل دخلتها عدم الانجاب • لا ، ليس الآن • كان حبها لمباهج الحياة أقوى عندها من غريزة الأمومة ، ورعاية حياة جديدة • أعلنت ذلك صراحة لفتحى ووالدته وعنت ما قالت • ربما فيما بعد • كان غرضها الظاهر والباطن الحفاظ أطول فترة ممكنة على سحر جمالها وأنوثتها وقوامها الرشيق ، غصن البان ، داومت على لعب التنس ثلاثة أيام فى الأسبوع ، رياضتها المفضلة ، وتشترك فى مباريات الدورى العام •

قبل أن يفوز بحسناء ، عرف عن فتحى غرامه بقيادة السيارات « الأسبور » السريعة • ذلك كان معروفا ومقابلا بالتشجيع والاعجاب من الأصدقاء والمعارف • والترحيب

والتملق من أصحاب المعـارض ومندوبيهم المتـأنقين الذين يبيعون هذا النوع من السيارات غالية الثمن ٠

استمر الدكتـور حسـام يمـارس هواياته التى تتفق وفكرته عن نفسه ٠ وهى هوايات متعددة ، منها الأناقة فى الملبس ، بلا تكلف ، ليرضى غروره ، وعضوية النوادى العامة والخاصة ٠ ولعبة « الاسـكواش » ، رياضته المحببـة ، كان يهـوى ضرب الـكرة عرض الحائط ٠ وأولا وآخـرا ، من هواياته ، حواء الممتازة من كل نوع وشكل ٠

لم تجد علا بدا من الترقد والانتظار لكى تفوز بحسام ٠ وهى مشغولة وفخورة بنشر الثقافة العامة من خلال « بنك المعرفة » كما كان يحلو لها أن تسمى مكان عملها ٠ لم تيأس أبدا من حب حسام ٠ تسامت بحبها ، وهى حكيمة ، بالقراءة والاطلاع ، حتى أصبح ذلك التسامى هواية لا تكلف أمينـة مكتبة شيئا ٠ اللهم الا وقتا طويلا ينفق فى القراءة ، ويقضى فى أحلام مبعثها الحرمان ٠

## ٢

فى غرفة نومهما الفاخرة ، وقد تهيأ للنوم ، قال فتحى لحسناء :

ـ أرجو منك يا حبيبتى أن تسلفينى مبلغ الخمسة آلاف جنيها الذى قبضتيه من « الجمعية » وسـأرده لك فى أقرب فرصة ٠

فوجئت حسناء بالسؤال فأجابت :

ـ وما حاجتك الى كل هذا المبلغ ؟

ـ هناك سيارة مرسيدس ٣٤٥ لقطة آقايضها بسيارتى الشيفورليه ، وأخشى أن تطير منى المرسيدس، يا ٠٠ جنان، اذا لم تتم الصفقة غدا ٠

ـ ولكن سيارتك مازالت جديدة ! تعلم ان هـذا المبلغ لرحلة الصـيف فى آوروبا مـع مامى ودادى ٠ وآخشى ألا تستطيع تدبير المبلغ فى وقت قريب ٠

ـ اذا لم أستطع استلفته من آمى ، وستعطيه لى خاصـة اذا علمت أنى استلفته منك ٠

ـ لو علمت أمك أنك استلفته منى فلن تعطيك شيئا ٠

دهش فتحى ولم يتوقع مثـل هـذا التعريض بآمه من حسناء ٠

ـ ماذا تعنين بهذا الكلام ؟

أجابت حسناء فى غضب لم تقصـد به اثارة زوجهـا وحبيبهـا ، وانما كانت تعبر فقط عن شـعور تخيلتـه فى حماتها نحوها ٠

ـ بصراحة ان أمك لا تحبنى لأنى لم آنجب لها حفيـدا حتى الآن ٠ ثم انهـا دائمـا تنتقـد تصرفاتى وعـلاقاتى بأصدقائى ٠

ـ كفاية ، حـرام عليك ، ان أمى تحبك كمـا تحبنى وتتمنى لنا كل الخير والسعادة ٠

ـ تحبك انت ، نعم ٠ أما أنا ، فلا أعتقد ٠

شحن جو الغرفة فجآة بالغضب ٠ آراد فتحى آن يحسم الموقف بينه وبين زوجته ٠٠ معالأسف لصالحه ٠ انه الرجل فى بيته ، ولم يكن ذلك تخيلا ٠ يجب أن تكون الكلمة كلمته ، والزوجة المطيعة زوجته ٠ من آين واتته هذه الفكرة الرجعية

رآها بداهة ؟ ولـكنه الغضب الذى يرد النـاس الى حالتهم البدائية مهما ارتقوا ٠

انتفض من استلقائه مندفعا نحو الدولاب حيث تضـع حسناء حليها ونقودها ٠ ولكن حسناء ، لا تقل عنـه غضبا لكرامتها ، أدركت ما انتوى عمله ٠ قفذت لاعبة التنس من فوق السرير ووقفت حائلا بين زوجها والدولاب ٠ لن تمكن فتحى مما يريد ٠

تكهـرب المـوقف غضبا وزادته الـكبرياء ٠ سـقط عن الوجهين الجميلين البريئين قناع الرقى والحضارة ٠ تحفذ كل منهما للدفاع عما توهم انه حق ٠ توقف الكلام٠ أمسكت أيدى وآفلتت ٠ تلاحم جسمان وتراجعا ٠ شهدت غرفة النوم لأول مرة كرا وفرا لم تره من قبل ٠ طارت حسناء وهبطت فوق السرير لتتفادى ساعدى فتحى القـويين حتى لا يحيطا بها ٠ أراد فتحى اللحاق بها ولكنه تزحلق ووقع على الأرض بين السرير ومنضدة الزينة ٠

فرحت حسـناء لمـا وجدت فتحى ملقى على الأرض ٠ خافت اذا طالت المعركة أن يتغلب عليها فى النهاية ٠ ألقت بنفسها عليه ٠ مدت يدها فى سرعة البرق مدفوعة بخوفهـا من الهزيمة وآمسكت فرشاة شعر فضية ثقيلة ثم هوت بهـا على رأس فتحى ٠

عند ذلك فقط انتهت المعركة لصالح حسناء ٠

تملك الرعب منها لما رآت دم فتحى يسـيل عـلى جبينه ويملأ عينه اليسرى ٠ قامت مذعورة من فوقه وآسرعت الى التليفون تطلب النجدة من والديها ٠ بكت وهى تشتكى ٠

قام فتحى من رقدته سهزوما مهانا · عماه الدم والغضب · لف منديلا ضاغطا حول رأسه ثم ارتدى ملابسه على عجل · اندفع خارجا من البيت قاصدا صديقه الدكتور حسام ليضمد له جرحه ·

حضر والدا حسناء وتبينا ما حدث · انتظرا الشاب زوج ابنتيهما الحبوبة الرقيقة ليصفيا حسابا معه ، ولكن الليل انتصف ولم يعد فتحى · يئسا من عودته فغادرا البيت آخذين حسناء معهما ·

# ٣

لم تمر أيام حتى علم الجميع بقرار فتحى أنه لن يعود لحسناء · انقطع عن التردد على النادى · عادت حسناء الى بيتها لتعيش فيه وحدها ، فلما يئست من عودة فتحى اليها داوت آساها بالانخراط فى عملها · وداومت على لعب التنس فى النادى ·

عندما تحقق لحسام الوقيعة والبعد بين الزوجين ، انتهزها فرصة للتقرب من حسناء حتى ينال غرضه منها · خلا له الميدان فراح يصول ويجول حتى توهم أنه أوقع الأثر · هجر ملعب الاسكواش الى ملعب التنس ·

لمست علا تودد حسام لحسناء وهى لاهية عن مقصده فراحت علا تشجع مناوراته · كان مسلك علا غريبا ، ولا غرابة من الشباب ، وهو آن تذكى فى حسام شعوره نحو حسناء لتتقرب هى منه عسى نظره يتحول اليها · أصبح

حسام يدعو حسناء للعشاء معه فى نادى السيارات ·

بعد مباراة حامية فى التنس ، فازت فيها حسناء على حسام ، عرض حسام عليها أن يوصلها الى بيتها · كانت التوصيلات قد تكررت مؤخرا ولم ير أى منهما تحرجا من رؤية الناس لهما معا ·

لما وصلا الى البيت طلبت حسناء من حسام أن يصعد معها ويبقى قليلا حتى تحضر علا فينصرفا معا · حسناء تعلم أن عين علا على حسام ·

بعد أن تبادلا أحاديث عامة استأذنت حسناء من حسام لتعنى ببعض أمور بيتها لغياب الشغالة فى ذلك اليوم · رجته أن يبقى قليلا حتى تحضر علا ·

ــ أنا متأكدة من حضورها بين لحظة وأخرى ، وأتعجب لتأخرها ·

مر وقت وحسام فى الصالون وحده ينتظر وصول علا · قرر أن ينصرف مع رغبته فى البقاء حضرت علا أم لم تحضر · غادر غرفة الصالون متجها عبر الصالة الى باب الشقة الخارجى · ولكن رغبة أوقفته قبل الباب ودفعته الى تغير اتجاهه الى الطرقة المؤدية الى الغرف الداخلية · شاء أن يستأذن من حسناء فى الانصراف ، هكذا يقضى الايتيكيت والأدب · حملته ساقا الرغبة وتوقفت به أمام غرفة نوم حسناء · نظر الى داخلها فرأى حسناء واقفة فى غلالة رقيقة أمام مرآة الدولاب ، تفرش شعرها الحرير وقد انسدل على كتفيها العاريين · سار مترددا ثقيل الخطى منجذبا بسحر منظرها الى أن وقف خلفها ·

ــ ألم تحضر علا ؟ !

أجابها بصوت قطعه جفاف حلقه :

ـ لا لم تحضر بعد · استأذنك فى الانصراف ·

ـ ابق قليلا فأنا واثقة أنها ستحضر ·

قال لها متوددا :

ـ كم أنت جميلة يا «نوؤه» لك روح وجسد الملائكة ·

ـ مرسى ·

زاده الصدود رغبة فوق رغبته ، فلم يتمالك نفسه وتمادى فى تدلهه :

ـ تصبرين على بعد فتحى وأتمنى من كل قلبى أن أسعدك ·

قالت حسناء لتتفادى تهجمه وقد أحست منه لأول مرة بالخطر :

ـ وماذا تريدنى أن أفعل ؟

ـ تطلبين الطلاق من فتحى وأنا أتزوجك ·

ـ ولكنك ستتزوج بعلا · أليس كذلك ؟!

أولع التمادى فى الصدود الرغبة فى قلب العاشق من زمن · أمسك كتفيها العاريين · يداه ترتعشان ، تضطرب أصابعها على ملمس لين ، ناعم كالحرير · آدارها فتقابل صدراهما · أعماه جمالها · هم يقبلها فى فمها ·

وكأنما أدركت حسناء أخيرا نوايا صديقها فغضبت لخدشه حيائها · دفعته بقوة فى صدره بعيدا عنها فتراجع وكاد يتعثر · لم يشأ حسام آن يخسر معركة ويستسلم لهزيمة وهو الذى لا يقهر فى موقف كهذا · عاود هجومه ولكنها كانت قد تحفزت للصراع ·

أحاطها بذراعيه فعملت على الافلات من ضمتهما منزلقة من غلالتها فلم يضم الا الغلالة · ألهب حواسه منظر الجسد شبه العارى فى ضوء الغرفة الخافت فعاود هجومه · قاومته ما وسعتها المقاومة ، ولكنه فى النهاية تمكن منها وأحكم وثاقه حولها · حملها بخفة لاعب الاسكواش وألقى بها على السرير وهو فوقها · لم تستسلم ولكن ضعفت مقاومتها · تولفت شفاهما فى قبلة طويلة طالما اشتهاها ·

هنا تدخل القدر لينقذ حسناء من ظلم لا تستحقه · رن جرس الباب رنينا متقطعا ثم متصلا · انها علا ·· تذكر حسام أنه ترك سيارته أمام باب العمارة · قام مذعورا من فوق غنيمته وأصلح ملابسه ثم أسرع ليفتح الباب تاركا الغنيمة لفرصة لا شك آتية ·

لم تصدق حسناء أو تصورت أنها نجت مما لم تتوقعه من حسام · ارتدت فستانا وتهيأت لتقابل علا · ولم يفت على عين خبيرة كعلا الاضطراب الذى ظهر على صديقيها أثر ما وقع فى غرفة النوم ·

## ٤

أثقل الشعور بالذنب ضمير حسناء · انقطعت ، كزوجها ، عن التردد على النادى · توارت وراء عملها آملة فى يوم يعود فيه فتحى فرح ملعب الاسكواش بعودة بطله بعد هجرانه له ولم يعذب حساب طويلا شعوره بالذنب ·

ومرت شهور من القطيعة بين الأصدقاء .. الا من همزة الوصل .. علا .

قالت علا أثناء احدى زياراتها لحسناء فى بيتها :
ـ باركى لى يا حسناء . رق آخيرا قلب حسام وطلب منى الزواج .
ـ ألف مبروك يا حبيبتى . آخيرا فزت بمن تمنيت .
تعانقت الصديقتان وعمتهما الفرحة . سكتا قليلا يتأملان المستقبل ثم قالت علا وكأنها تستميح حسناء عذرا .

ـ أما وقد ارتاح بالى ياأختاه ، فاسمحى لى أن أسألك سؤالا ينوء به صدرى . هل بينك وبين حسام شىء لا أعرفه ؟
ـ أؤكد لك ياعلا أنه لاشيىء بينى وبين حسام .
رانت على علا سحابة شك أرادت حسناء أن تبددها . قالت مثبتة عينيها على عينى صديقتها .
ـ لم لاتصدقينى ياعلا ؟!
ـ بل أصدقك يا حبيبتى . وانما سرح عقلى فى حكاية قديمة تذكرتها فجأة . أسطورة قرآتها فى كتاب عربى قديم .
ابتسمت حسناء ابتسامة ملأها الحزن والندم والألم . رجت علا أن تقص عليها الحكاية ، فحكايات آمينة المكتبة دائما مشوقة .

قالت علا :
هى حكاية فتاة ذات جمال يخلب النفوس ويسبى العقول

ذهبت الى قاض لينصفها من ظلم فتى ، ذكرت اسمه كاملا ، وقالت انه اعتدى عليها بغير رضاها • آثارت الشاكية الباكية شفقة الحاضرين فى المجلس عليها ، وحنقهم على الفتى • أمر القاضى عساكره بالقبض على الفتى واحضاره اليه قبل أن تنفض الجلسة • فلما مثل الفتى بين يدى القاضى سأله الشيخ المجرب عن صحة ادعاء الفتاة عليه •• وكيف تجرأ •

دافع عن نفسه بقوله :

ــ اننا صديقان قديمان • رعينا غنم الأهل معا • فلما كبرنا وحال العمر بيننا ، كنا نتقابل فى السوق ، آنا أبيع وهى تشترى • حلا الكلام لنا حتى دار الهوى بقلبى •• وربما بقلبها • فى اليوم المقدر حملت اليها حبا وبقولا وحطبا كانت قد دفعت ثمنه مقدما • وكانت بمفردها فى البيت ، فحدث بيننا ما حدث • برضاها •

حكم العادل •

ــ اما أن تتزوج الفتاة بعد آن حدث بينكما ماحدث ، سواء برضاها آو بدونه ، آو تدفع لها مبلغا وقدره خمسون دينارا تعويضا لها عما لحقها بسببك •

اختار الفتى دفع الغرامة ، مفضلا حريته على الزواج ممن فرطت فى عرضها حتى ولو كان بينهما غرام •

فى الجلسة التالية ، وكان القاضى يعقد جلستين فى الاسبوع ، جاء الفتى بالمبلغ وسلمه للقاضى ، وهذا بدوره سلمه للفتاة ثم آمرهما بالانصراف • ولم تنته القضية عند هذا ، وان ظن الحاضرون أنه قضى فيها •

غادرت الفتاة بيت القاضى كسيرة القلب • سارت فى طريقها الى بيتها وكان يبعد كثيرا عن حدود القرية • حتى

اذا وصلت الى ماوراء ربــوة ، فوجئت باثنين من قاطعى الطرق يهجمان عليها ٠

ـ اعطنا الخمسين دينارا والا اغتلناك وآخفينا آثرك ٠

صاحت الفتاة بأعلى صوتها ٠

ـ النجدة ٠٠ النجدة ٠

قاومت الشريرين طـويلا ٠ صفعت وركلت ٠ خمشت وعضت ٠ واستمرت المعركة حامية الى آن تجمع خلق كثير وتمكنــوا من القبض على المعتــدين ولم يتمكنا من سرقــة مالها ٠

ساق الجمع اللصين الى بيت القاضى آخذين معهم الفتاة ، وهناك ظهر ماكان خافيا ومحيرا للحاضرين فى المجلس ٠ كان القاضى متوقعا حدوث شيىء كهذا وينتظر ٠

كان قاطعا الطريق من عســاكر القــاضى ، دبر معهما تمثيلية مهاجمة الفتاة اذا وصلت الى مكان معين فى طريقها الى بيتها ٠ أراد آن يختبر صدق ادعائها على الفتى ٠ واجه القاضى الفتاة بعد ســماعه ماحـدث بينها وبين العسكريين بقوله الذى ذهب مثلا :

ـ لو أنك حافظت على عرضك محافظتك على مالك لما تمكن أحد من النيل منك ٠

ثم أمر بمصادرة المبلغ لصالح المعوزين ٠

سكتت علا قليلا حتى تستوعب حسناء الحكاية وتكشف مغزاها ثم قالت معقبة ٠

ـ الحقيقة أن القاضى ، ضمير المجتمع ، آخطأ فى حكمه على الفتاة ٠ انحاز الى جانب الفتى بداءة ، غير متفهم لطبيعة المرأة ٠ فى الواقع آن دفاع الفتاة عن عرضها كان خالصا وصادقا كما كان عن مالها ٠ ولكن ، لا يتوقع أحد آن يجيىء

دفاعها عن عرضها ، على اخلاصها فى كلا الحالين ، فى قوة دفاعها عن مالها • وقعت أثناء مقاومتها لفتى وسيم صديق، وربما فى ظرف شاعرى ، تحت تأثير دافعين متضادين ، الغريزة والشرف ، فجاء دفاعها ضد الفتى ضعيفا رغما عن ارادتها • لذلك ، رغم تصور القاضى ، أمكنها التغلب على اثنين ولم تقو على مقاومة واحد •

آدركت حسناء ماهدفت اليه علا • غفرت لها تماديها فى علاقتها بحسام وان اعتقدت آنها استسلمت له • نضحت عيونهما بدموع الفرح وتعانقتا ثم جففا دموعهما • قالت علا لحسناء •

ـ هل تودين عودة فتحى اليك ؟

ـ لا شيء أحب الى من هذا الآن يا علا •

ـ اتركى هذا الأمر الى ياحبيبتى وآنا كفيلة بتحقيقه •

## خاتمة

كان فتحى وحسناء أولا المدعوين الى فرح حسام وعلا • عادت الصلة بين الأصدقاء الأربعة وثيقة ، ولكن ليس تماما كما كانت عليه فى السابق • ازداد من كانوا لاهين عن صراع النفوس خبرة بالحياة •

ولم يتم عام حتى فرح الآباء بميلاد طفلين •

تمت

اذا أردنا أن نتمثل بمعنى الحرية فان أول شيء يتبادر الى ذهننا هى حرية الطائر . سندرك أن الطائر مخلوق حر يحلق أين وكيفما شاء فى سماء الحرية . لا عائق داخلى يعوقه ولا مانع خارجى يمنعه . واذن ، فللحرية مستلزمان: الفرد والبيئة التى يعيش فيها . فهل الانسان حر حرية الطائر ، وهل هذا ممكن ؟ الجواب بكل بساطة وكما يتبادر الى الذهن أيضا .. لا .

يولد الانسان وهو معتمد اعتمادا كليا على والديه . ثم يكتسب شيئا فشيئا حرية الحركة ، فى حدود ترفع عنه تدريجيا . حتى اذا بلغ مبلغ الشباب أصبح حرا يذهب ويجىء أينما شاء . هذه هى حرية الحركة التى هى من أولى مكونات الحرية . وأحسب ان أول تعريف للحرية كان : الاعفاء أو العتق من الأسر والقيد أو الحبس ، وما كان يدعى فى الأزمنة القديمة بالعبودية .

كذلك يولد الطفل بلا ارادة . ثم يكتسب ارادته شيئا

فشيئا على مدارج نموه العقلى · حتى اذا بلغ الشباب اكتملت له ارادته ليفعل ما يشاء · وهذه هى حرية الارادة ·

فاذا عدنا الى الطفل مرة آخرى وجدناه وقد ولد بلا فكر · ثم يكتسب ويزداد فكرا حتى يكتمل له الفكر ، فى سن الشباب أيضا ، ويكون له بذلك حرية الفكر ·

واذن ، فمجالات الحرية هى : الحركة ، والارادة ، والتفكير · ولن تجد من هو حر حرية مطلقة فى مختلف مجالات الحرية ·· أو من يقول لك ذلك · أو بمعنى آخر · الحرية المطلقة بدون حدود أمل أو هدف نسعى ولا نصل اليه ·

اذا سألت الطبيب النفسى ما هدفه الذى يتمنى أن يصل اليه بمهنته مع الناس لأجابك على الفور : تحرير الانسان من أى قيد ، أو عقدة ، من القيود التى تعوق النفس من انطلاقها : النفس الحرة ·

لا شك أننا نسعد بحريتنا · وعلى قدر حريتنا تكون سعادتنا · قال ولهلم رايخ ، وهو طبيب نفسى حر عانا من الاضطهاد النازى فهاجر الى أمريكا فى آواخر الثلاثينيات ، والطبيب مشهور بحرية الفكر ، وله نظريات وفلسفة ومدرسة فى ذلك الى الآن · ولكن . مع الاسف ، أدت به حرية الفكر الى السجن حيث مات فيه فى آوائل الخمسينيات · قال رايخ ما معناه :

السعادة فى حرية الحب ، وحرية العمل ، وحرية الفكر ·

بمعنى أن السعادة فى آن نحب من وما نشاء ، وأن نعمل العمل الذى نختاره ونحبه · وليس لداعى الكسب ، وأن يكون لنا الحرية فى اكتساب الفكر والمعرفة حتى نفهم على قدر ذكائنا ، ما يجرى حولنا ·

أو السعادة = حرية ( الحب + العمل + الفكر )
أو السعادة = الحرية ٠

يعرف هــذه المعادلة تماما الســياسيون والاجتماعيون وأولو الأمر فى أى آمة ٠ الدولة تعنى بالأسرة التى قوامهــا الحب والتى هى آساس المجتمع ٠ وتكفل لها الأمن والأمان والاطمئنان بما يتفق والدين والعرف والتقاليد ٠ والدولة تعنى بايجاد عمل لكل مواطن ، ومواطنة ، على قدر مواهبه وقدراته وميــوله ٠ ولا تنى دولة ، فى قطاعيهــا العــــام والخاص ، عن اقامة دورات تدريبية علمية وعملية للعاملين لتزيدهم معرفة ٠ كل ذلك فى اطار من الحــرية الفيردية ٠ والحكومة آو الأحزاب التى تغفل عن ادراج كل هذه المكونات للسعادة الاجتماعية فى برامجها مآلها الفشل فى الحكم آو الانتخابات ٠

ولا توجد حــرية مطلقـــة آو مشروطة آو غير مشروطة مادمنا نعيش فى مجتمع ٠ فأنت حر ما دمت لا تتعدى عـــلى حقوق وحرية غيرك ٠ ومن هنا جاء مصطلح الحريةالشخصية، بمعنى انك حر فى نفسك فقط ٠ فاذا كنت فردا فى مجتمع رأسمالى ، فانت حر فيما تعمل وتكسب ، بشرط ألا تجور على عمل وكسب غيرك ، وما يسمى بالاحتكار الاقتصادى ٠ وأن تدفع الضرائب التى تتنــاسب مع دخلك لتســتفيد من الخدمات العامة ٠ واذا كنت فى مجتمع اشتراكى ، فانت حر فيما تعمل وتكسب فى حدود تضعها لك الدولة ، مناســبة ومساوية لمن فى مثل مؤهلاتك وقدراتك ٠ ولكل مجتمع لونه الغالب عليه ، فهناك مجتمعات رأسمالية خالصــة آو شــبه خالصة ، وهناك مجتمعات اشتراكية آو شمولية ، ومجتمعات

رأسمالية اشتراكية كما فى مصر · ولك فى مصر أن تختار بين الشق الرأسمالى أو الاشتراكى ·· حرية الاختيار ·

يختلف مفهوم الحرية فى الرجال عنه فى النساء · الرجال أكثر حرية من النساء فى مجـالى الحـركة والارادة ، وان تساوى الرجل والمرأة فى حرية الفكر ·

أما لماذا لا تتساوى المرأة بالرجـل فى حـرية الحـركة والارادة فمرده الى طبيعة المـرأة وما خصـها الله من صفة الأمومة · يجب أن تتقيد وتخضع المرأة للرجل حتى تحمـل منه · لم أسمع عن امرأة عرضت على رجـل الزواج ، وأن أغرته به · وليس معنى هذا كما يقولون ان المرأة سـالبة والرجل موجب ·

سألتنى فتاة تحب فتى كيف تظفر به بالزواج ؟ قالت انها واثقة من حبه لهـا · ويتردد عليهـا بين الحين والحين مظهرا وده وشغفه بها · ولكنه الى الآن لم يعرض عليهـا الزواج · قلت لها ربما لأنك سلبية أكثر مما ينبغى ، فردت على قائلة انها سلبية لكى يكون هو ايجابيا ·

وتعجبت ، اذا كان السـالب يجـذب المـوجب فمن هو السالب ومن الموجب ؟!

فاذا أصبحت المرأة أما تقيدت حركتها وارادتها بحضانة وليدها الى أن يكبر ويذهب الى الحضانة أو المدرسة · لا يصح أن يكون للزواج دخل فى حـرية المرأة الشخصية · أما اذا أرادت المرأة أن تحتفظ بحريتها دائما فعليها أن تختار بين الأمومة وعدم الانجاب · هذا اذا مكنتها طبيعتها البيولوجية من ذلك · للمرأة فى المجتمع وضعان : الانثى والمرأة ( أو السـيدة ) الأنثى فى الزواج والأسرة والأمومة ، والمـرأة السيدة فى الحياة العامة وفى العمل · نتعامل مع زميلاتنـا

فى العمل على انهن آنسات أو سيدات لا اناث ، مع الفرق فى الايتيكيت فى التعامل بين الزميلة والزميل ·

تتغلب الأنوثة على المرأة فى صدر شبابها الى سن الثلاثين · لذلك نراها تترك العمل وتبقى فى البيت الى آن تضعف فيها غريزة الأنثى · وتعود آولا تعود السيدة الى العمل تبعا لظروفها الأسرية ، تعود آو لا تعود ، بارادتها الحرة ·

## الحرية والنظام :

اذا كنت فردا يعيش فى مجتمع فلابد آن تتقيد حريتك بنظام ذلك المجتمع · هناك أنظمة داخل المجتمع كالنظام فى الأسرة ، والعمل ، والشارع ، وكلها داخل النظام العام · وأقصد بالنظام كل مجموعة آفراد اتحدت فى المعيشة والدور والوسيلة والغاية · وكما يتآثر الفرد بالنظام فان النظام يتأثر بالأفراد المكونين له · وزيادة على ذلك فان محصلة مجموع أثر الأفراد المكونين للنظام تكون آكثر بكثير من مجموع أثر الفرد كل على حدة ، بمعنى ، آن فى النظام ١ + ١ + ١ + ١ = ١٠ وليس آربعة · وقد لا نرى تأثير قوة النظام ولكنا نشعر به ، وكآنه الريح نشعر بها وقد تعصف بنا ولا نراها ·

لكل نظام ، كبر أو صغر ، شكل هرمى · على قمته الرئيس أو الملك أو القائد آو شيخ القبيلة أو الأب ·· أو الأم كما كان فى الأزمنة الغابرة ، ومازالت فى بعض المجتمعات ، قبل آن يتغلب عليها الرجل بقوة عضلاته وحريته الأكثر فى الحركة والارادة · أما كيف نشأ النظام فمرده الى عهود ما قبل التاريخ ، حينما تجمع الأفراد فى مجتمعات بدائية حول مصادر المياه وفى آودية الأنهار كالمصريين مثلا فى وادى النيل ·

يلى الرئيس فى النظام من يليــه فى القــوة والأهميــة والسطوة الى أن ينتهى الهرم بقاعدة عريضة هى العــامة أو الشعب • وبديهى أن يكون لــكل انســان وضعه فى النظام الهرمى حسب قوته ومقدرته ، وبالتالى تكون مقدار حريته داخل النظام •

أما لماذا يكون لكل نظام رئيس ومتبوعون وتابعون فهذه من خاصية النظام الذى يجب أن يكون على شكل هرم •

وتتعاقب الاهرامات جيلا بعد جيل ، دولة بعد أخرى ، نظام بعد نظام • بدءا من نظام فرعون ( لم تجىء أشــكال اهرامات الجيزة عفوا بل ترمز الى النظام) الى المعز لدين‌الله الفاطمى ، فصلاح الدين الأيوبى ، فالمماليك ، فمحمد على ، الى أنظمة جمهورية مصر العربية •

من خواص النظام الترتيب والاتساق ولكل نظام ترتيبه وعماده وقواعده • خذ مثلا النظام الأسرى :

يوجــد نوعان من الأسر ، صــغيرة ( نــووية ) وكبيرة ( العائلة ) • الأسرة الصــغيرة تتــكون من الأبوين والأولاد فقط ، وتكثر فى المدن • والأسرة الكبيرة تتكون من الآباء والأبناء والأقارب يسكنون فى بيت واحد أو بيوت متقاربة ، وهذه تكثر فى الأرياف • بعض الأسر نظامها محافظ ثابت والبعض الآخر نظامها متحرر قابل للتطور • ولا عيب فى الأسرة اذا كان نظامها محافظا، ولا أقول متزمتا، أو متحررا، وان تمتع أفراد الأسرة المتحــررة بحــرية أكثر من أفراد الأسرة المحافظة • وعــلى كل فأفراد كل أسرة من النــوعين يستمتع ، كما أنه مقيد بالنظام فى الأسرة والنظام الأسرى مقيد بالنظام العام •

مهما كانت طبيعة النظام فان من فوائده الكثيرة الشعور بالانتماء والطمأنينة والتخفف من القلق • للنظام قوةالتملك

والاخضاع · اذا لم نخضع للنظام أخضعنا النظام له أو أسقطنا من حسابه ، وكان مصيرنا النبذ ، ونبقى فى مهب الريح بلا واق أو سند ·

« ونادى نوح ابنه وكان فى معزل يابنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين (٤٢) » قال سآوى الى جبل يعصمنى من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم وحال بينهما الموج فكان من المغرقين (٤٣) سورة هود » ·

وعلى مستوى الدولة ، اذا خالفنا أو تحدينا النظام فلن نجد من يحمينا من النظام ( القانون ) ولن تنفعنا قدرتنا أو قوتنا ( المال ) وقد نفقد حريتنا بدخولنا السجن ·
قليلون فى التاريخ من ثاروا على النظام وتغلبوا عليه · هدموا هرما وبنوا هرما جديدا واستووا على قمته ·

وهكذا الثورات يأتى واحد من الطبقة العريضة(الشعب) بأفكار جديدة لا تتفق والنظام · يستقطب أفرادا تستهويهم أفكاره فيكونوا نظاما سريا · وتتسع الدائرة شيئا فشيئا وتقوى فاعليتها فتظهر فى الضوء فيتصدى لها النظام · الثورات وأفكارها ( آيديولوجيتها ) دائما تأتى من الشعب· ثورات كثيرة حدثت فى التاريخ ولم نسمع الا عن الثورات الناجحة ، لأن التاريخ يكتبه المنتصرون ·· أليفر كرومويل (١٦٥٣ـ١٧١٨) فى انجلترا· جورج واشنجتون (١٧٨٩ ـ ١٧٩٧) فى أمريكا الشمالية · فرانسوا روبسبير فى فرنسا ( أعدم سنة ١٧٩٤ ونجحت الثورة الفرنسية ) لينين فى روسيا (١٩١٧ ) · ماوتسى تونج فى الصين ( ١٩٤٩ ) جمال عبد الناصر فى مصر (١٩٥٢) · آية الله خومينى فى ايران (١٩٧٩) · وغيرهم فى أماكن عديدة جاءوا جميعا من الشعب حاملين أفكارا كانت هدامة فى رأى النظام الأسبق

ثم اتضح انها عظيمة بعد انتصاراتهم • يقول المؤرخون عن هؤلاء انهم حققوا ما يدعى بحتمية التاريخ •

## الحرية والاستقلال :

سبق أن قلنا أن أول تعريف للحرية هو الخلاص من العبودية • ولا يكون الانسان حرا الا اذا كان مستقلا بذاته • والاستقلال هو أن تعيش عيشة كريمة راضية بلا عائل أو سند • فى عهود استعمار وما يدعى بالعالم الثالث ( من القرن الماضى الى منتصف هذا القرن ) ومازال الى الآن عالما ثالثا ! ، كان المستعمرون الغربيون يبررون بأن الشعوب المستعمرة كانت لاتقوى على النهوض بأعباء الحضارة وحدها • شعوب متأخرة لم تتصل من قبل بالحضارة الغربية • شعوب فى غفلة عن مسيرة هذه الحضارة الغربية العظيمة • شعوب لا تستطيع أن تعيش عيشة غربية متحضرة • سواء كان هذا التبرير حقا أو غير حق ، أثبتت الأيام بعد استقلالنا سنة ١٩٥٦ اننا نستطيع أن نعيش مستقلين ولكن لا غنى لنا عن الحضارة الغربية • نحن أحرار ولكنا نعتمد على الغرب ، فأى حرية هذه ؟ أو نحن فى سبيلنا الى الحرية ؟ نسمع الآن عن الأصالة والمعاصرة الأصالة مصرية والمعاصرة غربية ، المعنويات ( الأصالة ) مصرية والماديات ( المعاصرة ) غربية • متى يكون لنا أصالة عصرية ؟ معنوياتنا ومادياتنا ؟ هذه هى الحرية الحقة • هذا كلام للأجيال القادمة •

وهكذا الانسان وهو الطفل الى أن يكبر فيستقل عن أسرته • فى مصر يعتبر سن البلوغ عندما يستقل الشاب بحياته وهذه لاتحدث عادة الا بعد تخرجه من المعهد أو الجامعة

بسنوات • الا من تعلم فى مدرسة السوق أو الغيط أو البحر فهؤلاء تحررون عند سن البلوغ •

تعال ننظر الى ما يفعل بك النظام وقد نضجت وتحررت وأصبحت مستقلا • ستعيش بضع سنوات سعيدا بحريتك ، تحمل بطاقة شخصية مثبتا فيها أنك تعمل • ثم لاتلبث هذه البطاقة أن تتحول الى عائلية • سيدفعك النظام الى الزواج • وستسعد بعروسك ودخلك ، أو دخليكما ، من العمل وبيتك الذى هو عش الزوجيـة • وتنجب أولادا فتتقيد حريتـك بأسرتك والتزاماتهـا عليك • وتمر سـنوات سريعة فتجد نفسـك وقد انتصف بك العمر تكسب ما يكفيك وأسرتك راتبا يكاد يكفيك شهرا • وتتكرر الحكاية كل شهر وكأنك مربوط الى ساقية العمل ذى المرتب • لو أسعدك الحظ ووفرت شيئا من المرتب على مدىالعام فستنفقه فى مصيف أو ماشابه للترويح عن نفسك واسرتك من عناء طـول العـام • وفى الخمسينات من عمرك ستدفع تحويشةالعمر فى تجهيز بناتك ودفع المهور لأبنائك • وبعد طول الرحلة وقد بلغت الستين تجد أن معاشك يأكله الغلاء مع الأيام فلا يكفيك لتعيش به ، مع ضعف صحتك ، العيشة التى تمنيتها مع انك ازددت خبرة وحكمة • ثم يأتيك بعد هذه الرحلة وهذا العناء الموت الذى يضع حدا لحياتك الحرة • هنيئا لك • فقد عشت حرا مكرما داخل وفى حدود النظام •

## وقفة على التاريخ

من العصور الوسطى الى ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، كان المجتمع فى مصر مجتمعا اقطاعيا • وكانت حرية الافراد المكونين للقـاعدة العريضة للنظام الاقطـاعى حرية عجيبة

حقا • كان الهرم الاقطاعى مكونا من الحاكم ، السلطان أو الوالى أو الخديوى أو الملك ، يليه الطبقة الارستقراطية التى كانت تحمى الحاكم فيحمى مصالحها ، ثم طبقة صغيرة الحجم ولا حول لها ولا طول ، العلماء ( المشايخ ) وكتاب الداواين والتجار ، ويطلق عليها الطبقة الوسطى ( وهى التى تسير الأمور فى الدولة وتتوسط بين الشعب والحكام وأطلق عليها في التعبير الغربى (البورجوازية) • ثم الشعب المكون لسبعة إثمان الهرم • كان السواد الأعظم من الشعب يعمل لصالح القلة من المـلاك فى الزراعـة فأطلق الأتراك على المصريين عامة اسم الفلاحين •

كان للشعب حريتـه فى حـدود ضيقة جدا • كان على أفراد الشعب أن يستمتعوا بحريتهم المسموحة لهم على شرط أن يبقوا من الشـعب وفى حـدوده • وعليهم أن يكونـوا سعداء • كانت الطبقة الارستقراطية وعلى رأسـها الحـاكم ترث سبعة أثمان الأراضى المزروعة ( من ٤ الى ٦ مليـون فدان ) ومن عليها بما كفلته لهم حقوقهم المقدسـة • وكان لهم أساليب يبذرونها فى أدمغة الشعب الذى بدا أنه اقتنع بها ولو فى الظاهر • وما كان له الا أن يقتنع أو ينفجر • وما كان له حق فى أن يشـتكى أو يثور • كان الدين هـو المنفث الوحيد للشعب • وكانت ثقافته دينية فجاءت الحجج والأساليب دينية : أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر (الأتراك) منكم • من مات فقيرا فله قصر فى الجنـة • ليس فى الفقر عيب وانما العيب فى الراحة والكسل • لـكل أجل كتـاب فموتوا ولا تذهبوا الى الطبيب •• الى آخره • قال الشاعر النبطى :

محــلاها عيشــة الفــلاح مطمــن قلبـــه مــرتاح
يتمرغ على أرض براح والخيمــة الزرقة ستراه
الشكوى عمره ماقالهاش ان لاقى والا مــالاقاش
والدنيا بقرش ماتسواش طول ما اللى حبه حداه

أين فلاح الأمس من فلاح اليوم ؟!

( كان مرض البلاجرا مرضا خطيرا يؤذى الجلد والأمعاء والمخ نتيجة نقص فيتامين ب٦ الغير موجود فى الذرة ، الغذاء الأساسى للفلاح المصرى ، منتشرا بين الفلاحين . زال وانقطع هذا المرض الخطير بعد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ) .

كانت تلك دعاية اقطاعية أفادت الطبقة الارستقراطية . وأفادت أيضا الشــعب بأن أبعــدت عنــه القلق والأرق . وأكسبته رضاء وغفلة .

انقشعت الطبقة الارستقراطية بعد ثورة ٢٣ يوليو . أصبحنا والحــاكم من الشــعب ، والمجتمع مجتمع الشــعب ، والنظام نظام الشعب . لا توجد فى مصر الآن طبقة تعيش فى حرية مطلقة بلا عمل أو خضــوع للنظام العــام . ولا اقطاعيات ولا نفوس تتورث . فى المجتمع الاشتراكى يولد المواطن حرا فاذا بلغ الشباب عليه أن يكتسب مكانته اللائقة به وبقدراته وكفاحه فى اطار النظام العام .

## حرية الفــكر :

لن تدهش اذا قلت لك انه لم تقيد حرية على مر تاريخنا الحضارى الطويل كما قيدت حرية الفــكر . وليس الغرابة فى هذا ان الفكر شىء معنــوى غير محســوس ، ولــكن لأن الانسان الذى يفصح عن فكره المعادى للنظام يكون خطــرا

على النظام من الانسان الذى لا يفصح عنه • المعروف أن الكلمة قد تكون أقوى آثرا وأبقى مفعولا من الفعل، مايدعى بفاعلية الكلمة • يقول الغربيون عن عالمهم انه عالم حر • ومعنى ذلك انهم يملكون حرية الكلمة والفكر والعقيدة • فى الغرب تستطيع أن تقول وتفكر وتعتقد فيما يروق لك دون حرج عليك ، بشرط ألا تعتدى على غيرك •

ونقصد بالفكر ، الهادف الواقعى • وبديهى أن الفكر يتناسب مع الذكاء ، كلما ازداد ذكاؤك ارتقى فكرك ، وعلى قدر ذكائك يكون وضعك فى النظام الاجتماعى الهرمى ، وكلما ارتفعت مكانتك فى الهرم الاجتماعى تكون حريتك أكثر •• وبناء عليه ، على قدر ذكائك تكون حريتك ، هذا اذا كان النظام عادلا •

فى هذه الأيام لا يتميز انسان عن انسان الا بذكائه وأخلاقه • الذكاء والأخلاق زميلان متلازمان • فى الماضى البعيد ، كانت الحرية للرجل الأقوى عضليا ( قانون الغاب ) وفى العصور الوسطى كانت القوة فى الغنى المادى قال الشاعر عن المادة والفلوس :

وهى اللسان اذا أردت فصاحة وهى السلاح اذا آردت قتالا

فاذا كنت من الأذكياء الأفاضل فستسخر ذكاءك لخدمة نفسك وخدمة النظام • وفكرك مقيد بالنظام • قديما قالوا ان ذكاء المرء محسوب عليه •• ومعناه انك اذا آردت بذكائك أن تجور على النظام انبرى لك النظام فيوقفك عند حدك •

من معوقات الانسان بعده عن الواقع ولجوئه دائما الى التخيل غير الهادف أو الأحلام • وهكذا الفكر اذا كان حرا حرية مطلقة لا يخضع للواقع أو النظام لا يكون له أثر ، أو يقيد مع صاحبه • الواقع انه لا توجد حرية فكر مطلقة

الا فى الأحلام ، أحلام اليقظة أو النوم • تحضرنى بهذه المناسبة أسطورة طريفة :

يحكى أن رجلا قال لجارته وكان يهواها ولا يجد لوصالها سبيلا :

ــ فزت بك البارحة فى الحلم واستمتعت بهواك طويلا •

أجابت المرأة اللاهية عن حبه على مزاحه الثقيل :

ــ اذن ، وجب عليك ثمن تمتعك بى فى الحلم •

ولم تقبض الجارة من جارها المدله فى هواها ثمن ما اقترفه معها فى الحلم اللهم الا قبض الريح •

## الحرية والفضيلة :

الذكاء والفضيلة وجهان لعملة واحدة كذلك الذكاء والحرية • يجب أن تكون فاضلا لتكون حرا • هناك ، قليلون ، أذكياء غير أفاضل ، وهناك قليلون أيضا ، أفاضل وليسوا أذكياء • كلا النوعين لا يلبثا أن يقعا فى مشاكل فتتحدد حريتهم • النوع الأول بسبب اضطراب شخصيتهم ، والنوع الثانى بسبب عدم فهمهم للفضيلة فهما سليما • الذكاء موروث والفضيلة مكتسبة بالضمير الذى يتكون فى سن الخامسة • بعض الناس لا يكتسبون الفضائل بسبب خلل فى تكوين الضمير ، فلا تنفع معهم التربية الحسنة مع أنهم أذكياء • هؤلاء يقاسى منهم المجتمع ولا يقاسون أو يتألمون لثلم ضميرهم وبلادة شعورهم وينتهون ان عاجلا أو آجلا لنبذ المجتمع لهم •

سئل مدير المخابرات المركزية الأمريكية الأسبق عن بقائه رئيسا للجهاز مدة ثمانية وعشرين عاما ، وهذه عجيبة

لحساسية المركز وتعقيده وقوة سيطرته حتى على رئيس الجمهورية فأجاب على الفور :

ـ أنا مسيحى طيب ، ولا أشرب الخمر ، وزوج وأب صالح ، ولا تغرينى النساء ، ولا أرتشى ·

الحرية ليست فقط أن تذهب وتجيء أين وكيفما شئت (حرية الحركة) ، ولا أن تفعل كيفما تريد (حرية الارادة) ، ولكن ، أيضا وهو الأهم ، أن تكون لك نفسا سليمة مطمئنة · ولا تقاس الصحة النفسية بمقدار خلو المرء من المشكل ، ولكن بقدرته على تحمل المشاكل · وعلى قدر ذكائك تكون صحتك النفسية ، يستثنى من ذلك المضطربين نفسيا وقد أشرت اليهم فى الفقرة السابقة · ذكاؤنا يمكننا من حل المشاكل حلا عادلا مرضيا عند أو قبل حدوثها · متوسطو الذكاء اذا صادفتهم مشكلة يستعصى على ذكائهم حلها فلا يقووا على مجابهتها ، نجدهم يلفون ويدورون ويسوفون حتى يعطوا أنفسهم وقتا طويلا ليفهموها ، وقد يفهمونها أو لا يفهمونها فيحلونها حلا خاطئا مما يوقعهم فى مشاكل ثم تتراكم المشاكل مع الوقت ··

النفس المعقدة ولا أقول المريضة ، مقيدة غير حرة · من الأمراض ( العقد ) التى تعوق النفس : القلق المستمر والخوف المرضى والوسوسة أو هى كلها مجتمعة فى شخص واحد ·

سيدة تخاف النزول على السلم فتبقى حبيسة بيتها ·

رجل يخاف الموت ويرتعب من ذكره فيتأثر ويقل عمله ·

موظف موسوس لا يمكنه على حد اعتقاده ، اتمام عمله على الوجه الأكمل فتتوقف ترقيته ·

انسان يأرق ويطول أرقه فتتأثر صحته ·

انسان يصاب بالعى أو البرود الجنسى النفسى فيكتئب أو تنتابه الهواجس ، فيتأثر سلوكه وعلاقته بأهله وبالناس .

وتتعقد الأمور مع هؤلاء عندما يلجئوا الى الحبوب الملطفة والمهدئة ويكثروا منها فتحد من نشاطهم وانطلاقهم ، فيصبحوا عبيد الحبوب .

خاتمة :

عليك أن تكسب حريتك وتحافظ عليها وتنميها . ما دمت تابعا للنظام العام وما يشمله من أنظمة ، العمل ، البيئة ، الأسرة ، فاعلم ان الحرية تتناسب مع وضعك فى النظام . هناك من هم أكثر منك حرية ، وهناك من هم أقل منك حرية . الحرية عمادها الذكاء والفضيلة والنفس السليمة المطمئنة .

للحرية حدود داخل النظم ، اذا تعديتها فقدت حريتك .

والآن أتركك مع قول الشاعر الذى نقل الى مدينة قنا عقابا له على تحديه للنظام :

قالوا نقلت الى قنا      قلت مرحبا بقنا واسنا
قالوا قنا حر قلت      وهل يرد الحر قنا

القن = العبد .

# ابــر النحــل

قبل أن أقص عليكم قصته معى ، أريد أن أذكر شــيئا لا علاقة له به ، وانما قد يفسر لماذا تبقى ذكراه حيــة فى مخيلتى ٠

تعودت كل مساء بعد عودتى من عمــلى أن أرتاح عــلى مقعدى الوثير أمام التليفزيون وأتصفح جريدتى ، وكانت أيضا جريدته المفضلة ، منتهزا فرصة انشغال زوجتى بمتابعة المسلسل اليومى ٠ أتنقل بعينى بين عناوين الصفحة الأولى ، ثم أقلب الجريدة وأفعل ذلك مع الصفحة الأخيرة ٠ وقد أقرأ ما تجود به قريحتا كاتبى العمودين على اليمين والشمال ٠ بعد ذلك أنتقل الى صفحتى ، أو صفحات ، الوفيات لأقرأ ، فى توقع ، ما يجىء فيها من أسماء بعضها مازالت له ألقاب ، وتفاخر عائلى يليق أو لا يليق بأهمية الحدث ووقعه ٠ فاذا انتهيت من صفحات الوفيات ، عدت مارا مرورا سريعا الى أن أنتهى عند الصفحة الأولى حيث بدأت ٠ ولا تسألونى لم أتصفح جريدتى على هذا النحو المعكوس ٠ فهــذه كما قلت عادتى ٠٠ ولا يسأل المرء فى عاداته أو يؤاخذ عليها ٠ ولو

كان ، رحمه الله موجودا . لسألته ، وكان عنده لكل سؤال جواب ·

ذلك ما أفعله كل ليلة مع جريدتى ، وجريدته ، المفضلة ·· الا فى يوم « صفحة الأدب » ·· فأنا أقرأها دائما بامعان ·

فوجئت بخبر نعيه فى يوم صفحة الأدب · واسمه مكتوبا بالبنط العريض فى صفحة الوفيات ·

( بسم الله الرحمن الرحيم ) ( ان المتقين فى جنات ونهر فى مقعد صدق عند مليك مقتدر ) (صدق الله العظيم) ثم توفى الى رحمة الله المأسو فعلى شبابه المرحوم ·· فقيد عائلتى كذا وكذا بالشرقية والقاهرة ·· الى آخره ·

أسفت على شبابه الذى ولى فجأة ولم يتعد الأربعين · وتذكرته حينما قال لى رحمه الله يوما :

« اذا لم يتوقف قلب الرجل ( لا المرأة ! ) فجأة فى سن الأربعين ، فغالبا ، حسب الاحصائيات ، ما تستمر المضخة العضلية فى الضخ دون توقف الى سن الستين وما بعدها » ·

علمت فيما بعد أنه رحمه الله مات بالسكتة القلبية ·

غمرنى حزنى عليه بذكرياتى معه · كان رحمه الله أديبا مطبوعا بكل ما تحمل هذه الكلمة «مطبوعا» من معنى · لم يكن « دكتورا » فى الأدب والنقد ، وما أكثرهم فى هذه الأيام · يملك اللفظ الرشيق ويدرك فاعلية الكلمة · كان عنده ما يدعى به « المضمون » فى الموضوع كما يقول الدكاترة · لم ينقصه القدرة على الكتابة السلسة بالطرق الحديثة ، أو تشويق القارىء الى متابعتها ما يقول حتى النهاية ، يكسى الخيال ثوب الواقع فيبدو وكأنه الواقع نفسه ،

شخصياته التى يبتدعها تتكلم وتتحرك وتعيش الحياة حلوها ومرها ٠

كانت أقصى أمانيه أن يرى انتاجه منشورا فى صفحة الأدب فى جريدته المفضلة ٠ واسمه مكتوبا بالبنط العريض تحت عنوان القصة أو المقال ٠٠ البنط الثمانى عشر ٠

كان ، رحمه الله ، واسع الاطلاع وافر المعرفة ٠ يعرف من كل علم وفن خلاصته وزبدته ٠ أطلق عليه جماعة « الشجرة » الشهيرة ، فى النادى ، اسم « عباس » ٠٠ نسبة الى الكاتب والأديب والمفكر والشاعر المرحوم الأستاذ عباس محمود العقاد ٠٠ الأسطورة ٠

كان اذا أدلى برأيه فى السياسة فكأنه محمد حسنين هيكل أو ابراهيم نافع ، وفى الاقتصاد سلطان أبو على أو على لطفى ، وفى الأدب والنقد عبد القادر القط أو عبد الرحمن فهمى ، وفى الموسيقى والغناء عبد الوهاب أو الشجاعى ٠٠ وهكذا ٠

كان ، رحمه الله ، ذا مزاج اجتماعى قلق ٠ دائما يتمثل بقول المتنبى « كم ذا فى مصر من مضحكات ولكنه ضحك كالبكا ٠٠ ثم يقول :

« اسمع يا أستاذ ، عندنا ، يا أستاذ ، نظام ولا نظام ، فن ولا فن ، علم ولا علم ، طب ولا طب ، غنى فاحش وفقر مدقع ، تقدم وتأخر ، تحرر وتقيد » ٠٠ الى آخر هذه المتناقضات ولا يتوقف الا أن أقول له مواسيا :

ــ هون عليك يا أخى ، فمازلنا فى السبعة آلاف سنة الأولى من حضارتنا المجيدة ٠

لن ألبسه ثوب المبالغة وقد رحل • كان رحمه الله ممتلىء الجسم ، متقارب الأعضاء ، جم النشاط ، خفيف الظل والحركة ، لطيف المعشر ، حاضر البديهة والنكتة • يصف نفسه بأنه « بلغمى » •• وفاتنى أن أسأله ماذا قصد بتلك الكلمة •• وأحسب أنه قصد « رضى الخلق » • من عائلة كبيرة طيبة وغنية • اعتاد حياة الترف والأبهة • ولم تكن له مهنة محددة • له مكتب أنيق فى شارع قصر النيل ، للتجارة والاستيراد والتصدير ، وأعتقد أن المكتب كان للكتابة والمظاهر الاجتماعية أكثر ، وللتجارة أقل من القليل •

تعود معرفتى به الى أيام كان فى الثانوية العامة • أصيب سنتها بحالة نفسية منعته ، بناء على مشورتى ، من دخول الامتحان • ولكنه نجح بمجموع متواضع فى السنة التالية • ولم يدخل الجامعة • ومن وقتها حافظ على صداقتى وحرصت على مودته •

اسمعوا ما كان يقوله لى لتحكموا على مقدار ثقافته • كان أحيانا يتحيز الى العامية القاهرية وأحيانا الى الفصحى • يقول فى دفاعه عن العامية أن الأدباء لن يعبروا عن ابداعهم ويؤدوا رسالتهم كاملة الا اذا كتبوا بالعامية ، يعبرون بها عن وجدانهم وأفكارهم • ليس صحيحا أن العامية لغة قاصرة عن التعبير والا فكيف نتعامل بها فى حياتنا اليومية ؟ يؤدى المسرح والسينما رسالتهما بالعامية فحققا الغرض وأوقعا الأثر ، لذلك لم يتوان بيرم ورامى ثم شوقى أمير الشعراء أن نظموا بالعامية فأجادوا التعبير وحركوا القلوب • كانت يا أستاذ ( يستطرد ، وهذا ما كان يحلو له أن ينادينى به اذا وجد منى أذنا صاغية • ) لغة قريش التى أنزل بها القرآن لغتهم العامية ، فأغلب الظن أن قريشا لم يكن لها

لسانان متباينان مثلنا · وكل شعب متحضر يكتب ويتكلم بلغة تكاد تكون واحدة ، الا نحن المصريون ·

أما حجته مع الفصحى فكانت فى نفس قوة حجته مع العامية · لولا الفصحى لما كانت لنا ثقافة متميزة موحدة · دون أجدادنا منذ عصر النهضة المصرية التى بدأها محمد على تراثهم بالفصحى ولذلك فهمنا ما كتبوا ، نعم يا اخوان ( مخاطبا جماعة الشجرة الشهيرة فى النادى الشهير ) اذا كتبنا بالعامية فلن يفهم أحفادنا بعد قرنين فقط من الزمان عما كنا نتحدث ولا كيف كنا نفكر · آنا ( يقصد هو ) أحب ايقاع الفصحى كما يحبه المثقفون والمشايخ ( يقصد رجال الدين ) · فيها موسيقى وايقاع ترتاح اليهما آذنى ( آذنه ) لذلك خرج لغويو العصر العباسى الأول الى البيد ( يقصد الصحراء ) وعاشوا مع البدو ليقوموا لسانهم فكان « لسان العرب» · أتعلمون يا أخوة آن «سيبويه» العظيم كان اعجاميا نعم يا أخوة ·· كان ·

وكم نقل الى أسفه على القصة القصيرة المصرية الحديثة اذا تسامر معى فى معرض الأدب ·· وما كان آكثر ما يتكلم معى عن الأدب · القصة القصيرة ، يا آستاذ ، هى الغموض بعينه · أسلوب منمق محذلق ورصد لجمل متشابهة مترادفة · كأن كاتبها مصاب بداء التشنج ·· تكثيف ·· غموض ·· بلبلة ·· شطارة ·· كأن من خصائص القصة القصيرة أن يكون معناها فى بطن الكاتب فقط · يقول دكاترة الأدب أن القصة القصيرة « منقولة عن الغرب » ·· تقليد أعمى ·· ألا يجدر بكتابنا المحدثين آن يتركوا القصة القصيرة لمن هم أكثر خبرة وأقدر ؟ ان القصة القصيرة تعبير عن عصر « الترانزستور » ، تقرأ على عجل ، تبعث على التأمل ، تفعل

ما تفعله الكاميرا فى تصوير موقف معين ، ثم تنسى · ليس عند الناس وقت فى هـذه الأيام ليتبلبلوا ويتحيروا ·· ثم يأسفوا على ضياع وقتهم ·

وكنت دائما أطيب خاطره بقولى له :

ــ هون عليك يا أخى ، فمازلنا فى مرحلة النقل والحيرة بين الأصالة والمعاصرة ·

كل هذا الانشغال بالأدب والكتابة ولم ينشر له عمل · الا قصة قصيرة واحدة · وأعتقد أنه أخفق ، بقدر ما حاول، فى كسب عطف وصداقة رؤساء التحرير ، مرارا وتكرارا بعث بما كتب الى الصحف والمجلات المشهورة فى مصر والبلاد العربية ، ولم يسعده الحظ ولو مرة واحدة ·· وكل أديب مشهور يعلم ماهو « الحظ » فى حرفة الكتابة ·

قال لى رحمه الله مرة قبيل وفاته :

ــ أتعتقد يا دكتور أنى متطفل على الأدب ؟

ــ بل أعتقد انك أديب وفنان ، وهـذا رأيى ، وليس لأنى أحبك ·

ــ ربما لو كنت « دكتورا » لنشروا لى ما أكتب ·

ــ لا تيأس ، سيأتى يوم يعرف فيه رؤساء التحرير قدرك ومقدرتك ، ويتسابقون حينئذ على نشر أعمالك العظيمة ·

ولم أكن ، يعلم الله ، مبالغا ·

ــ ألم تعجبك قصتى « ابن النحل » ؟

ــ نعـم ، أعجبتنى كثيرا · هـل أرسـلتها الى مجلة أو جريدة ؟

ــ ليس بعـد ، ولكنى سأرسـلها انشـاء الله غدا الى جريدتى المفضلة ·

ولن أنسى نظرة الأمل فى عينيه · قلت :

ـ أرسلها اذن ، لعل الحظ مواتيك هذه المرة ٠

ويا للقدر ٠٠

بعــد صــدمتى فيه وقد قرأت خبر نعيــه ، تراجعت بصفحات الجريدة الى آن وصلت الى صفحة الأدب ٠ وما كانت أعظم دهشتى حينما وجدت « ابن النحــل » منشـــورة فى صفحة كاملة ، واسمه مكتوبا تحت العنوان بالبنط العريض ٠ نفس البنط الذى كتب به اسمه فى النعى ٠

لكل زمان مفكرون ومذاهب · كم مرت على البشرية نظم ومذاهب أعقبتها نظم ومذاهب · فى زمن القرون الدينية ، من القرن السابع الى الرابع عشر ، سادت عقيدة الحاكمية الالهية وهى أن الحكم لله والحكام الذين ادعوا انهم ظلال الله على أرضه · وفى عهد الثورة الصناعية التى بدأت فى انجلترا فى سنة ١٧٦٠ ، ظهرت الكلاسيكية البورجوازية وشاركت بمفاهيمها الدنيوية فى العقائد الدينية · تغير الشعار من الله والملك الى الله والملك والوطن · أعقب الثورة الصناعية ثورات اجتماعية فى امريكا (١٧٧٥) ، فرنسا (١٧٨٩) ، الصين (١٩١١) ، روسيا (١٩١٧) وتغيرت الشعارات الى حرية ، مساواة ، أخوة · وآخيرا ، وليس آخرا ، أخذ العالم بنظام ومفاهيم العقلانية الاشتراكية ·

وثمة مذهب من تلك المذاهب يدعى المذهب الوجودى · ولا يوجد مذهب بل عدة مذاهب للوجودية · تبلور المذهب الوجودى ثم ولد وعظم وانتشر ثم تشعب الى عدة فروع منها، على سبيل المثال لا الحصر ، الوجودية المؤمنة والملحدة · يرى

كيركجور منشىء الفلسفة الوجودية ان الوجود ، أى وجـود الانسان فى الدنيا ، أهم من كنه الانسان وحقيقته بالنسبة الى ما هو عليه · أو بلغة الفلسفة ، ولا عليك ، ان الوجود سابق على الماهية · ويرى سارتر ان الوجودية تقـوم عـلى الحرية المطلقة ، التى تمكن الفرد من أن يصنع نفسه ويتخذ موقفه كما يبدو له ، تحقيقا لوجوده الكامل ·

ويقول آخرون ان كل انسان يعيش كفرد فى وجود بلا هدف ، وله أن يعارض ما يفرض عليه من مفاهيم مجحفـة بارادته الحرة ·

ولا عليك كما قلت من لغة الفلسفة ، فليس التقصير فى فهمها راجعا الى صعوبة اللغة ، وانمـا الى قصـور فى الترجمة من اللغة التى أنشأتها الى لغة أخرى · من المعروف بين اللغويين انه من الصعب ترجمة الأفكار المجردة ، كما فى الفلسفة ، ترجمة تؤدى المعنى نفسه أو الغرض منه · يحدث هذا فى اللغات التى من أصل واحد كالفرنسية والانجليزية، ويحدث أكثر بكثير بين اللغات الغير متقاربة الأصل كالعربية والألمانية · ولو تركت لى حرية الترجمة لقلت ان الوجودية هى « التعيش » ومعناها فى لغتنا العربيـة تكلف أسـباب المعيشة · وفرق أن تقول فى فهمنا العربى أن فلانا موجودا فى مكان ما ، أو انه يعيش عيشة راضية أو شاقة ، أو انه حى أى ليس ميتا · ومرض الاكتئاب ، مثلا ، يطلق عليـه الغربيون مرض الانخفاض اذا شـئنا الدقة فى الترجمة · فلو قلت لعربى انه مريض بالانخفاض لما فهمنى ، ولو قلت له انه حزين لما كنت دقيقا فى تشخيصى لحالته ، لأن مرض الاكتئاب ليس حزنا فقط وان كان الحزن أحد أعراضه ·

واذن ، فلا أدعى أو يدعى عربى اننا نحن العرب نفهم الوجودية كمبدعيها بلغتهم الفلسفية .

ولد كيركجور ( ١٨١٣ ــ ١٨٥٥ ) فى كوبنهاجن فى عائلة مسيحية طيبة . اتجه الى الدين منذ مطلع شبابه ثم أصبح قسيسا فمعلم لاهوت ففيلسوفا . وصف بأنه ألمعى شديد الذكاء وان ورث عن والده غرابة الأطوار . وقيل انه كانت تعتريه نوبات من الزهو والاكتئاب . عاش حياة مترفة وتألق فى مجتمع كوبنهاجن . كان مفكرا دينيا عظيما ومتصوفا فى حبه لله ، ويخشى الموت .

وليس أقرب الى كيركجور فى تاريخنا العربى الحديث كالشيخ محمد عبده (١٨٤٨ ــ ١٩٠٥) الا آن شيخنا الجليل لم يكن فليسوفا أو أنشأ مدرسة عريضة طويلة عميقة فى الفلسفة اللاعقلانية .

جاء بعد كيركجور فلاسفة مصلحون دينيون كثيرون فى كل أنحاء أوروبا . وأثروا المفهوم العام للوجودية المسيحية المؤمنة . الى أن أصيبت أوروبا كلها خلال النصف الأول من هذا القرن بهزات اجتماعية شديدة كادت تخلع أهلها من جذورهم . خاض الأوروبيون غمار حربين طاحنين نغصت ويلاتها عليهم عيشتهم . مما ساعد على ظهور نوع من الأدباء الفلاسفة يدينون أصلا بالوجودية ، جحدوا كل العقائد ، فهل نلومهم ؟ ثم خرجوا على الناس بمذهب الوجودية الملحدة . كان منهم أدباء ومفكرون كبار ، وربما فلاسفة عظام فليس لى حكم فى الفلسفة . ضربوا على نغمة راقت لقرائهم وقد تولد فيهم الاستعداد لقراءة أى شىء يلهيهم عن مشاق معيشتهم .

قالت سيمون دى بوفوار للنساء ، حطمن القيود التى

كبلكن بها الرجال وإستمتعن بوجودكن كاملا . وقال جان بول سارتر ، بأسلوب مبدع شيق ، كل انسان يجب أن يعيش مستقلا بذاته لأن الوجود بلا غاية أو طائل وراءه .. الى غير ذلك من النغم الكئيب ـ كان الله فى عون الانسان الذى يقرأ لسارتر ولا يستطيع مجاراته فى فلسفته .

ولا أدرى كيف دخل أذهان العامة والخاصة ان الوجودية، كلها ، مجرد كفر والحاد وانحلال وتحـدى للنظم الدينيـة والوضعية . فى العام الماضى (١٩٨٥) قتل شاب فصل من الجامعة ، لاستنفاذه فرص رسوبه ، والديه رميا بالرصاص عامدا متعمدا ، ثم شرع فى قتل شقيقته الصغرى قبـل أن يقتل نفسه ولكن هروب شقيقته من أمامه جعله يعـدل عن اتمام المذبحة . وعندما سئل القاتل فى التحقيق عن الدافع على فعلته البشعة أجاب ، لأنه يعتنق الوجودية .

ثار الشعور العام على الوجودية . تزاحمت المقـالات للنيل من الوجودية والتعريض بها فى الجرائد اليوميـة . وتناولها العـامة بألسـنة حـداد مستهزئة فى الشـوارع والمقاهى . اسـتباح كل من هب ودب لنفسه التطاول عـلى مذهب فلسفى بغير علم وحق . ومما ساعد على اشعال الرأى العام ان النيابة صرحت فى أكثر من مرة أن القاتل متمالك لقواه العقلية ، مع أن القضاء العادل حكم بدخوله مستشفى الأمراض العقلية .

أثار تصريح القاتل ـ بأنه قتل أبويه ليخلصهم من عذاب وجـود لا طائل من ورائه الا الشـقاء ، وانه لو أتيحت له الفرصة مرة أخرى لقتل شقيقته ثم نفسه لهذا السبب ـ فى المجتمع المصرى .. عقدة الوجودية .

فات على الناس ان الوجودية أثرت التراث الانسانى ـ

وأنها حلقة في سلسلة الفكر المتحضر متصلة منذ عهود ماقبل التاريخ الى ما شاء الله ويرث الأرض ومن عليها • ان ظواهر الوجودية واضحة في حياتنا اليومية ، نراها ونقرأها في سلوك الناس ولم يقرؤا أو حتى سمعوا عنها • وهي ، الوجودية في ظواهرها ، تعكس سيكولوجية الذات ، يعبر بها الناس عن ذاتهم ، فنحترمهم ونعينهم على حل مشاكل وجودهم التي يحملونها الينا •

لذلك ، فأنا أعلم عن الوجودية الكفاية • وسأشرح فيما يلي مفهومي عنها كما أتداولها في محيطي الطبي • هناك مدرسة في الطب النفسي تدعى المدرسة الوجودية نستخلص منها الآتي :

نحن ، أنا وانت وهو ، نعيش في وجود لا نعلم عنه الكثير — وما أوتيتم من العلم الا قليلا — ومن ثم ، يجب علينا أن نرضى عن وجودنا أولا ، ونستمتع به ثانيا •

ونلاحظ أن الرضا ، وليس الاستسلام ، والاهتمام أو احترام وجودنا هو من لبنات مدرسة الوجودية • أما منطق الوجودية وعمودها الفقري فهو :

اذا كان الوجود قد فرض علينا فيجب أن نكون على بينة من ماهيتنا وموضعنا في هذا الوجود • ويزيد من تساؤلنا وحيرتنا عوامل الوراثة والبيئة التي تتحكم فينا • هذه وعوامل أخرى تتحكم في وجودنا وحرية ارادتنا ، مثلا ، هل يستوى العالم والجاهل أو الغني والفقير ؟ •

بداهات لسنا في حاجة الى فيلسوف لينبئنا أو يذكرنا بها • أما ما سوى ذلك من تعاليم الوجودية فيحسن أن نتركه لذوى العقول المتميزة الباحثة • وكثير من هؤلاء يقضون

عمرهم فى أبحاث فلسفية متصلة فى مدرجات جامعية وأبراج شبه عاجية • ولنكمل الكلام حتى نستوضح الصورة :

هذه البداهات التى يثيرها الانسان فى عقله أوجدت عنده قلقا وجوديا • وفى بعض الحالات قرفا وجوديا وفى حالات أخرى مرضية اكتئابا وجوديا • ومما يزيد من قلق الانسان (حيرته) ان حرية قراراته الجدية الهامة أو الفاصلة كاختيار المهنة أو الحرفة أو الزواج •• الخ تؤثر فيها معوقات من العرف والتقاليد والعادات والأوهام ، بالاضافة الى العوامل التى ذكرتها • وما دام الانسان لا يملك الحرية الكاملة لاتخاذ قراراته ، أو اذا فرضت عليه ، فان وجوده قد يصبح شاقا مؤلما • وطبيعى أن تؤدى هذه البلبلة بالمرء الى البحث عن الذات ، خاصة عند من لا يملكون حرية اتخاذ القرارات ـ أين أنا من كل هذا ؟ وقد يقع المرء فريسة العصاب ( العصاب مرض نفسى ) الوجودى • فى كتابه المعروف البحث عن الذات شرح الرئيس أنور السادات فى أكثر من موضع حيرته وآلمه حينما كان يتصور ثم يأخذ على عاتقه حرية اتخاذ قراراته •

تقول الوجودية اننا نعيش فى وجود •• نحو •• الموت •• وما هى الغرابة فى هذه المقولة ؟ لا يوجد أحد لا يخاف الموت ( فى الواقع سكرات ـ عذاب ـ الموت ) هل منا من يجهل ـ ا لامن أعماه غرور الدنيا ـ قوله تعالى «انك ميت وانهم ميتون » صدق الله العظيم • عرف القدماء المصريون هذه الحقيقة منذ آلاف السنين ، فبنوا الأهرامات ولم يقتلوا أنفسهم أو ذويهم • ولكن اذا قالت الوجودية ذلك فهى مذهب ملحد كئيب !

## أولا : التطبيق العام للوجودية :

تقابلنا كل يوم وفى كل مكان ظواهر وجودية ، فى البيت ، الشارع ، الأماكن العامة وفى العمل · وكأن هذه المظاهر خيوط فى نسيج حياتنا ·

اذا تجمع اناس عاديون فى مكان ما ، فى الترام أو الميكروباس أو النادى ، فسرعان ما يتجاذبون أطراف الحديث بينهم · وقد ، أوهو فى أغلب الأحيان ، يكون كلامهم سطحيا ، أو فارغا ولا طائل من ورائه ·· الا ·· ماذا ؟ · اضاعة للوقت ·؟· يجوز فى الظاهر ، ولكن هم فى الحقيقة يؤكدون لأنفسهم ولغيرهم وجودهم · أشيع عن الانجليز انهم لا يتحدثون مع الغرباء فى الأماكن العامة كالقطارات أو الحانات ، وهذا غير صحيح ، لأنهم يفعلون اذا لم يجدوا صحفا يقرءونها · والأم التى تناغى طفلها فى وحدتها انما تفعل ذلك لتشعره بوجوده · كذلك يفعل الأطفال اذا اجتمعوا مع بعضهم أو لعبهم ·

وما هى صباح الخير أو السلام عليكم أو الجو اليوم جميل ، الا تحقيق لوجودية الفرد مع الآخرين ·

دعيت مرة لزيارة مستشفى للأمراض العقلية فى بلد مجاور · وبينما كنت أطوف فى المستشفى مع مديرها طلبت منه أن يسمح لى بدخول عنبر للمرضى المزمنين · وعندما تواجدت بينهم تجمعوا على يلمسوننى ويسلمون ، أمطرونني بأسئلة قصار ليست بذات معان ، وقد يظن البعض انها أسئلة سخيفة من مجانين ، وكنت أجيب عليها بلهجتى القاهرية ولم يفهمونى أو أفهمهم ·· الا انها أعادت اليهم والى شعورنا بوجوديتنا التى افتقدوها بعد طول اهمال

المجتمع لهم ، وافتقدتها أنا لطول الرحلة وبعدى عن أهلى ٠

ألم يكن أبو العلاء ، وغيره الكثير ، شاعرا وجوديا حينما قال :

ذو العقل يشـقى فى النعيم بعقله وأخو الجهـالة فى الشقاوة ينعم ٠

ألم نغنى مع الأستاذ محمد عبـد الوهاب عنـدما ترنم بأنشودة ايليا أبو ماضى العذبة :

لست أدرى ، وهى :
جئت لا أعلم من أين ولكنى أتيت
ولقد أبصرت أمامى طريقا فمشيت
وسأبقى سائرا ان شئت هذا أم أبيت
كيف جئت ؟
كيف أبصرت طريقى ؟
لست أدرى ٠

أنا لا أذكر شيئا عن حياتى الماضية
أنا لا أعلم شيئا عن حياتى الآتية
لى ذات غير انى لست أدرى ما هى
فمتى تعرف ذاتى كنه ذاتى
لست أدرى ٠

أين ضحكى وبكائى وأنا طفل صغير
أين جهلى ومراحى وأنا شاب غرير
أين أحلامى وكانت كيفما سرت تسير
كلها ضاعت ولكن كيف ضاعت ؟
لست أدرى ٠

ضاعت حيـاة ايليا أبو ماضى ولم يبق الا آن ينتظـر

الموت · ولم يعرف الكثير انه شاعر وجودى · والأهم من هذا ان أحدا لم يتهم الشاعر أو المغنى بالالحاد ــ ولماذا ؟

## ثانيا : الوجودية فى الطب النفسى :

والأمثلة كثيرة :

يقول مريض بمرض الاكتئاب :

ــ أشعر انى انسان ضئيل ( وقد يقول تافه أو ذليل ) فى وجود كبير على · يحيرنى وأخاف منه ولا أقوى على العيش فيه أو مجابهته ·

ويقول مريض آخر مصاب بمرض الزهو :

ــ أشعر انى عظيم المكانة والمقدرة فى عالم صغير ·

هذان المريضان على اختلاف مرضيهما شكيا من مشكلة وجودهما · وجود يحسان به ويعيشانه ويتألمان منه ويرجوان تخليصهما من حيرتهما وآلمهما ·· دون فلسفة أو سفسطة أو الحاد · لم يقرآ عن الوجودية أو حتى سمعا عنها ·

ويقول مريض آخر :

ــ أنا قلق من لا شىء ، ولا أعرف سببا لقلقى ·

ثم يتضح انه يخاف من حياته ومن المستقبل وما يخبؤه له · انه يخاف من ، كما تقول الوجودية ، وجود ·· نحو · الموت· ولم يسمع هذا المريض عن سارتر أو قرآ له «الطريق الى الحرية » ·

يشكو طالب جامعى من وجوده ، ومعاناته منه ، وماذا بعد الشهادة الجامعية والعالم ملىء بحاملى الشهادات ؟ وآخر،

أوجد مشكلة أسرية حينما امتنع عن اكمال دراسته الجامعية
ـ قال لوالده : وهل حققت بكل ما ملكت سـعادتك وانت جامعي وذو مركز مرموق تحسد عليه ؟

قالت لى سيدة شابة خريجة جامعة ومتزوجة وعندها طفلين وتعمل فى عمل محترم :
ـ أشعر كأنى لا أعيش ، فلا شىء يهم · يومى كأمسى وأمسى كغدى · وأتساءل ما أهمية وجودى وما فائدته لى ؟

ماذا يقول القارىء لو كان مكانى لهؤلاء الناس ؟ انتم مرضى بالوجودية ؟! وهل الوجودية مرض مصنف محدد بين الأمراض النفسية ؟ بالطبع لا · ان الوجودية مفهوم وكل مفهوم له مشاكله وفوائده عند التطبيق ·
أم نواجه الناس هؤلاء بأنهم ملحدون وأتباع أو اشياع مدرسة انحسرت موجتها بعد طول مد وتقلصت ، بل وتلاشت كبدعة شعبية ، يتشدقون بها عن وعى وغير وعى ·

.. ان الأطباء النفسيين فى هذه الأيام يهتمون ويعالجون الأعراض والظواهر ولا يصنفون الأمراض أو الأشخاص الحاملين للأمراض الى أنماط محددة · وماذا يفعل الطبيب النفسى مع هؤلاء وهم ليسوا مرضى بالمعنى المتعارف عليه فى الطب وبين الأطباء · هل نصمهم جميعا بوصمة المرض وهم يشكون فقط من مشاكل وجودية ؟ أم هل نعطيهم حبوبا وحقناوجلساتكهربائية أو ندخلهم قهرا الىالمستشفيات النفسية ؟ ان فعلنا ، فاننا بذلك نفقدهم «ذاتهم» ونوقعهم فى براثن وجود زائف متوار خلف أسوار عالية ·
ومن ناحية أخرى، لا يريدنى أحد أن أقول لانسان يشكو من عبثية الوجود ( وجوده ) وحاول أو فكر فى أن ينهى

حياته بالانتحار : عار عليك اذا فعلت عظيم ، أو : بربك لا تفعل ، فليس المــوت أفضــل حل لمشكلتك الوجودية .. مشكلة وجودك .

صحيح ان المدرسة الوجودية تنادى بأن كل انســان حر فيما يفعله بحياته . ولكن ، ليس هذا معناه ضمنا ، اننــا أحرار اذا قتلنا أنفسنا . ولكن الكثير يقتلون أنفسهم وهم أحياء بيننا ، مثلا بالانتحار الأدبى أو الاجتماعى فى أشكاله المختلفة . هؤلاء أحرار فيما يفعلونه بشرط أن يتحملــوا مســئولية قرارهم . وعلينــا أن نعــالج قرارهم بالطــرق الوجودية ، وما يدعى بالعلاج الوجودى .. نداويهم بالتى كانت هى الداء .

من هنا يجىء العلاج النفسى الوجودى ؟ :

يجب أن نخاطب النــاس على قدر عقــولهم ومنطقهم . وننحوا الى حل مشــاكلهم الوجودية ومشــاكل أسرهم التى تأثرت بهم أو كان لها تأثير عليهم بالطرق الطبية النفســية حتى نعيد اليهم ايمانهم بجدية الحياة وماهيتهم فيها .. وان الوجود سابق على الماهية .

ونعالج فى نفس الوقت قلقهم أو إكتئابهم الذى أصابهم من جراء مشاكل وجودهم بطرق التحليل النفسى الــوجودى المتعارف عليها .

هذه هى الوجودية كما أعرفها وتعرض لى وعلى فاتصدى لعلاجهــا . وهى موجودة معنا ويجب أن نعرف الناس بهــا ولا نجحدها أو نقلل من شأنها . أما أن ننكرها وندمها ثم ننفيها لأن محترفين أدباء ملاحدة أساءوا اليهــا مؤخرا .. أو لأن وسائل الاعلام المصرية تناولتها فى حادثة قتل الشاب

للتدويه ، فهذا ليس انصافا من وسائل اعلام المفروض أن تكون منصفة ·· أو على الاقل محايدة ·

ولأنهى مقالى على نغمة مرحة اسوق الحكاية التالية :

فى العام الماضى ، أيضا ، صادرت شرطة الآداب كتاب الف ليلة وليلة وكان معروضا للبيع فى معرض الكتاب ، وجد الضابط أن فى الكتاب سطورا تخدش الحياء العام · وكان أن أخذ التراث الأدبى العربى فى شخص كتاب ألف ليلة وليلة الى المحاكمة · ولكن لحسن حظ التراث برىء الكتاب وأفرج عنه · أما الوجودية فقد حوكمت وحكم عليها بالاعدام فى نفس الوقت بدون محاكمة ·

ولهذا كان دفاعى عنها ، وارجو الا يكون قد جاء متأخرا ·

## شراب البنفسج

كان الفلاحون الى عهد قريب يفضلون شراب البنفسج على ماعداه من الأشربة • يشربونه فى الأفراح والمناسبات السارة • ثم اختفت عادتهم هذه بعد ميلاد عهد حكموا فيه أنفسهم بأنفسهم لأول مرة منذ تاريخ طويل • آكان شراب البنفسج رمزا فى ذاكرتهم الخفية لحادث لم نقرؤه فى التاريخ أو تسرب ذلك الحادث الى أعماق لاشعورهم الحكيم وبقى أثره عالقا فى الشعور • وهكذا بعض الحوادث الهامة تتحول مع الوقت الى عادات وحكايات •

فى صباح يوم مشرق بهيج توجهت بهانه الى سراى السيد العزيز • كان الوقت ربيعا والنسيم عليلا والهدوء شاملا • تسمع نعى ساقية من بعيد تحمله اليها بين الحين والحين ريح باردة منعشة • أو أحدا ينادى فيتلاشى النداء فى الفضاء العريض •

ارتقت بهانة الى قمة ربوة تظللها جميزة كأنها الأم الرؤوم • ومن هناك رأت مئذنة الجامع الملحق بسراى

السيد · علمت أن مشوارها الطويل قد قارب على الانتهاء · ولم تكن الشمس قد ارتفعت بعد الى منتصف المئذنة ·

لم تنم بهانة ليلتها ولا ليالى قبلها · باتت مؤرقة مما تعانيه من حماتها · لم ير عويس زوجها فى تصرفات أمه ما يدعو الى الشكوى ، فكتمت الشكوى فى صدرها حتى فاضت عيناها · أخيرا هداها عقلها وقررت أن تشكو حماتها الى السيد العزيز · سيتذكرها السيد حينما يراها فقد خدمت فى السراى مدة كافية ·

رآها أول ما رآها وهى تمشى على الجسر حاملة الغداء لعويس يوم صباحيتها · كان راكبا حصانه الأبيض ووراءه تبع على حميرهم · لابد أن قوامها اللدن وصدرها الناهد ما لفت نظره اليها · ابتسم لها وحياها فكادت تذوب حياء وتطير فرحا · وفى الصباح جاء من طلبها من عويس للخدمة فى السراى · كل الصبايا الملاح خد من فيها لفترات طالت أو قصرت ثم تنتهى ·

كان الزمان ألف عام بعد ميلاد السيد المسيح · ثلاثمائة ستة وستين منذ هجرة الرسول الكريم · ولكن قليلين فى ذلك الوقت فى قرية ابسيس فى شمال الدلتا من عرفوا حساب الزمن · وانما الحياة تسير بهم من موسم الى موسم ، رمضان بعد رمضان ثم يحل العيد · وهناك الحج والعيد الكبير · وكان المعنون بالزراعة يحفظون الأشهر القبطية ·

قال عويس أنه شهر برمهات ·

خاضت بهانة حقل قمح مازال مخضرا عندما لاحت معالم السراى فى الأفق القريب · وما انتهت من تأملاتها

حتى وجدت نفسها أمام بوابة السراى الكبيرة • كان بعض الفلاحين متجمعين أمام البوابة فى انتظار رؤية السيد • عرفوها وأفسحوا لها ممرا • وعرفها البواب المخضرم أيضا ففتح لها بابا صغيرا مرقت منه • لم جاءت وعندها الآن ثلاثة عيال ؟

ولكن أسئلة كهذه لا تخرج عادة من شفاه الرجال •

قيل لها أن السيد يشرب قهوة الصباح فى الديوان • انها تعرف طريقها • كان السيد فى الديوان بمفرده فتقدمت منه وقبلت يده • ازداد فخامة ومهابة •• وحجما • بدا على وجهه الوسيم المشرق أنه لم يعرفها •

ــ أنا بهانة زوجة خدامك عويس ياسيدى• ألا تذكرنى؟

هى أيضا تغيرت فى غضون أربع سنوات • غمق لونها وتغضن وجهها وترهلت •

غمزت له بعين أضناها الجهد وكحلها السهد • ولم يتذكرها ، فكل شهر تقريبا تأتى واحدة ثم تذهب بلا عودة ، غير خادمات أخته « ست الملك » شبه الدائمات •

ــ ماذا ورائك يا بهانة ؟

جلست بهانة على الأرض أمام متكأ السيد تكاد تلاصقه • انخرطت فى البكاء قليلا ثم قالت تغالب دموعها •

ــ أبدا ، لا شىء ، سوى أن حماتى أتعبتنى وأزهقت روحى • ولا أدرى ما العمل • أثارت الشكوى على سذاجتها انتباه السيد مما أرسل الأمل فى نفس الشاكية •

ــ وهل لحماتك أحد غير زوجك ؟

ــ لا ليس لها غير عويس •

قال السيد بعد صمت وتأمل :

ـ أرسلى لنا حماتك فى غد لنرى ما نفعل معها ٠

وخرجت بهانة من عند السيد فرحانة ٠ آخيرا وجدت من ينصرها على حماتها ٠

سيعرف عويس أن السيد مازال يذكرها بالخير ٠ وأن مساعدته لها قد تعم عليه هو أيضا بالخير ٠

كان اسم السيد «العزيز آنوجور» ٠ توفى والده «أحمد أنوجور » منذ عشر سنوات تقريبا فورث عنه العزيز الزمام ومن عليه ٠ آربعة آلاف وخمسمائة فدان يعيش عليها عشرة آلاف نسمة ٠ تعلم العزيز فى دواوين الحكمة بالقاهرة ودرس اللغة والفقه والرياضيات والفلك والفلسفة والأخلاق والمنطق ٠٠ والكيمياء والطب ٠ كان عمر السيد العزيز ثلاثة وعشرين عاما عندما تولى ادارة الزمام بعد والده ٠ أما كونه وصف من الجميع بغرابة الأطوار فهذا شىء ليس فيه غرابة ، وكل الحكام عند الفلاحين غريبو الأطوار ٠ ولم يكن السيد العزيز ، كمعظم الحكام ، شديدا عنيفا الا فى الحق ، مما أرسى الأمن والأمان فى ربوع الزمام وجعل منه شبه جنة بين الأزمة المجاورة ٠ لم يذكر عنه آنه آمر بتعليق فلاح من قدميه من جذع شجرة ليترك حتى يموت ٠ أو انهال بكرباجه على ظهر أحد حتى آدماه ٠ وكان المعاونون والحول والعساكر اذا جاروا أو ظلموا حسبوا له آلف حساب ، وان لم يمنعهم ذلك أحيانا من سلب حقوق الفلاحين فى اعتدال ٠ وحتى القاضى كان يعف عن الرشوة اذا كانت قليلة مخافة نقمة السيد ٠

ظل السيد العزيز طول حياته آعزب ٠ وهب نفسه للحكم والعلم وما أعتقد آنه خير وحق ٠ الا آن ذلك لم يثنه

عن آخذ حقه فى صبايا الزمام الملاح .. فى اعتدال . كان يرى أن الخدمة فى السراى شرف عظيم لا ينلنه الا المحظوظات. وكان فى هذا محقا خير أيضا ، فالخدمة فى السراى تنير عقول الفلاحات وترفع من ذوقهن ، مما يعود بالنفع على أزواجهن وأولادهن . وعلى كل فلم يعرف الكثير عن حياة السيد العزيز الخاصة الا بعد وفاته .

فى اليوم التالى لزيارة بهانة للسيد أركب عويس آمه على حماره واتجه بها الى السراى . لم تخبره بهانة بما دار بينها وبين السيد حتى لا تثير غضبه وتفقد عطفه . قال السيد للعجوز بعد أن هدأ روعها :

ــ كيف حال صحتك ؟

ــ والله ياسيدنا تعبانة وشقيانة . ضعف حيلى وانهد كيانى . مزق السعال صدرى وأرق ليلى ، والله وحده يعلم بحالى .

ــ ولكن فكرك منظم ، وكلامك منمق مرتب ، وذاكرتك تامة .

ــ الله أكبر ، ولم لا يا سيدنا وقد خدمت فى السراى شهرين أيام المرحوم السيد الكبير قبل أن أنجب عويس .

ــ ألم يكفك كل هذا العمر الطويل ؟ عشت حياتك ، فما تبغين من حياة هى لغيرك ؟

قام السيد من متكئه بعد أن أسمع العجوز ما لم تتوقع سماعه . دخل غرفة جانبية وغاب فيها قليلا ثم عاد وفى يده كأس من الزجاج الرقيق فيه شراب أزرق . ناوله أم عويس.

ــ اشربى أم عويس هذا الشراب الحلو فتنتهى آلامك وشكاياتك باذن الله . آلم تصرحى آنك تتمنين الموت ؟

كان الشراب لذيذا فتجرعته المرأة الى آخر نقطة فى الكأس . وقبل أن تذهب الى حال سبيلها آمر لها السيد بثوب جديد .

تعجب عويس وهو عائدا بأمه من سبب الزيارة . كان قد أوجس شرا ثم استبعده . جزاك الله خيرا يا بهانة ، ذهبت الى السيد ليداوى أمى ويكسوها . ثم عبر عما انتهى إليه تفكيره بقوله لأمه :

ــ ألم أقل لك يا أمى ان بهانة بنت حلال مصفى

وأمنت الأم على قول ابنها وهى فرحة بثوبها الجديد وشفائها العاجل .

ولكن أحدا لم يتيقن من نتيجة تلك الزيارة ، ولا زيارات تلتها من آخرين ، الا بعد حين .

وكان عجب بهانة أعظم . ذهبت الى السيد لغرض فغفل عن الغرض . حقا ان السيد ناكرللجميل، مضيع للذكريات، غريب الأطوار . ولكنه طبيب بارع يشهد له الجميع . ستشفى العجوز ويطول عذاب بهانة . وعما قريب سيحل رمضان ويعقبه العيد وتزهو حماتها بالثوب الجديد . سيفرح الجميع الا أنت يا بهانة .

ولكن نكد بهانة لم يستمر سوى يومين ، بعدهما وجدت أم عويس فى الصباح ميتة فى فراشها . لم تمرض أو سخنت أو شكت من علة . حزنت بهانة عليها ثلاثة أيام حفاظا على المظاهر ومجاملة لعويس . ذهبت العجوز فأراحت واستراحت . أراد السيد للعجوز حياة أفضل ، وشاء الله لبهانة حياة أهنأ .

وسرعان ما تبخر حزن عويس على أمه وقد فرح باقبال بهانة عليه واهتمامها به وأولاده وبيته . أنجب الزوجان

فيما بعد أولادا بلغوا الخمســة عشر ، مات آكثرهم فى سن الطفولة ، وعاش الباقون الى أن صاروا كبارا ٠

بعد وفاة أم عويس بوقت قصير ، كما روى أهل القرية فيما بعد، كان السيد يسمر مع خلصائه فى القاعة الشرقية ٠ قال السيد للشيخ ادريس معاتبا :

ـ نادرا ما نراك فى الآونة الأخيرة ٠

ـ والله زهق يامولاى ٠ لم تعد الدنيا كما أعرفها ٠

أجاب السيد متباسطا مع الشيخ :

ـ تزوج صبية تسليك وتنسيك هموم الحياة ٠

ـ كيف يا مولاى وقد انقطع ما بينى وبين النساء ٠

ضحك الجميع من كلام الشيخ الا السيد ٠ فلما فرغوا من الضحك قال السيد مواسيا الشيخ :

ـ هون عليك يا شيخنا والحمد لله على كل شىء ٠ مــر علينا فى غد فعندنا ما ينفع فى مثل حالتك ٠

وفى الغد قبل ارتفاع الشمس الى نصف المئذنة توجه الشيخ الى السراى ملبيا دعوة الســيد ٠ تحــادثا فى أمور الحياة عامة ثم تحولا الى الحب والزواج ٠ قال الشــيخ فى نبرة حزينة ٠

ـ لا يوجد يا مولاى شىء آعز من شباب متفجر ورجولة معطاء ٠٠ اذا انقطع ما بين مثلى والنساء فالأفضل الذهاب الى دار البقاء ٠

ـ أوافقك على ما تقول : وان كنت لا أشــعر وآنا فى سنى بشعورك ٠ لست جادا فيما تقول ياشيخ ؟

ـ جاد وجاد يا سيدى ٠

قام السيد ودخــل الغــرفة الملحقــة بالديوان ٠ غاب

فيها قليلا. ثم عاد وفى يده كأس من الزجاج الرقيق فيه شراب أزرق ٠

ــ اشرب ياشيخنا شرابا يفيدك ان شاء الله ٠

تذوق الشيخ طعم الشراب ووجده لذيذا فتجرعه الى آخر نقطة فى الكأس ٠

ــ لو لم أعلم مهارتك فى الحكمة يا مولاى لقلت ان هذا مجرد شراب بنفسج ٠

ضحك السيد والشيخ ثم استأذن الشيخ وذهب الى حال سبيله ٠

ــ الى اللقاء يا سيد الزمام ٠

ــ بعد عمر طويل يا شيخنا ٠

لم يمر أسبوع على تلك الزيارة الا وكان الشيخ ادريس فى ذمة الرحمن ٠ وجد ميتا فى فراشه عند الفجر ٠ لم يشك من مرض أو سخونة أو علة ٠ نفذ فيه قضاء الله ٠

الواقع أن الشيخ ادريس لم يخسر بموته الا حياته ٠ ولم تكن عزيزة عليه ولا كان هو حريصا عليها ٠ ماذا يبقى بعد مرور فترة الشباب والرجولة لفلاح أمى أجير؟ ولا أولاده خسروا شيئا بوفاته الا محبتهم له ٠ كفتهم عزاء سيرته العطرة ٠ منح السيد كل شاب من آبناء الشيخ عقب وفاته خمسة أفدنة يزرعها على « التحميلة » تزوج الأبناء واستقل كل واحد فى دار مع زوجته وأولاده ٠ وبقى الابن الكبير فى دار أبيه ليرعى أمه العجوز ٠ وسرعان ما نسى الشيخ ادريس وقد تخلف عن حياة لابد لها أن تسير ٠

ثم تعاقبت حادثتان متشابهتان كان لهما ، مع الأولين، أثر مضاعف فى ذاكرة مجتمع ابسيس ٠

بينما كان السيد يصرف أمور الزمام فى الديوان ، ثارت مشادة بين الصراف وأحد المعاونين • انبرى الصراف محتدا للمعاون :

ــ أتتهمنى بالسرقة ؟!

قال المعاون مهدئا الصراف :

ــ معاذ الله يا مقدس لوقا ، انما فقط أشير الى بعض أخطاء فى الحساب •

أمن خازن وخولى ، كل فيما يخصه ، على ادعاء المعاون • ولكن السيد تعاطف مع الصراف الذى خدمه ووالده ثلاثين عاما بأمانة واخلاص •

ــ أصحيح هذا الكلام يا مقدس ؟

انهار المقدس لوقا تحت وطأة التهمة المنسوبة اليه •

ــ انى أعترف ببعض الأخطاء فى الحساب ، أما السرقة فأقسم بالسيد المسيح انى برىء •

وانفض المجلس على مشهد درامى • أمر السيد أن يتولى الشاب النجيب سمعان عبد الملاك أعمال الصرافة من عمه لوقا الذى أحيل الى التقاعد •

تقابل السيد والمقدس لوقا فيما بعد • كانت أول ، وآخر ، زيارة من الصراف المتقاعد للسراى بعد تركه العمل • قال السيد العطوف للصراف المسكين :

ــ أصابك مرض الذاكرة يا لوقا •

ــ وقيت الشر يا مولاى ، ولا أحد الى الآن يعلم بمرضى الا أنتم وأنا •

ــ وتحملت فى صمت عبء المرض وحدك •

ــ نعم ، كتمت بلواى فى صدرى ، فلا أحد يقدر أو يرحم وأنت سيد الحكماء •

ـ عندى شراب يخلصك من كل متاعبك وأحزانك ٠
وابتلع لوقا الشراب البنفسجى اللذيذ حتى آخر نقطة فى الكأس ٠

وما هى الا أيام وكان جثمان الصراف الشيخ محمولا فى ناووس من خشب أم الشعور الى حيث دفن فى مقبرة النصارى خلف بيت المعلم القسيس ٠

لم يكن السيد العزيز فى مهنة الطب منافسا للمشايخ العارفين أو العطارين ٠ كان لانشغاله بأمور الزمام وهوايات أخرى ينتقى « الحالات » التى تتعرض له وتثير اهتمامه ٠ يعالج الحالاتالتى ينتقيها بحبوب وأمزجة وأشربة ومروخات يصنعها بنفسه فى الغرفة الملحقة بالديوان ٠ وكان نجاحه فى التطبيب راجعا الى عمق دراسته فى « دار الحكمة » وسعة اطلاعه ٠ وأيضا الى قوة شخصيته التى اكتسبها من علو مكانته ٠ والتطبيب لمن لا يعلم ، فن يعتمد أكثر ما يعتمد على شخصية المعالج وقدرته على الايحاء ٠

ولكن حكاية الموت بشراب البنفسج لم تعرف وتنتشر الا بعد حادثة فقيه القرية ٠ كانت المشاكل قد تفاقمت على الفقيه بعد أن فقد بصره ٠ هجرته زوجتاه واحدة بعد الأخرى بسبب سوء حاله ومعاملته لهما ٠ آخذت كل زوجة عيالها وذهبت الى أهلها ٠ كان أهل الزوجة الشابة فى نفس القرية ، أما العجوز فكانت من قرية تبعد كثيرا عن الزمام ٠ وكان الفقيه قد أهمل الكتاب ، فلما هجرته زوجتاه أهمله أكثر ، تاركا العيال تحت رحمة العريف ٠ لذلك رفض أكثر العيال التردد على الكتاب فى غياب سيدنا مما آثار الغضب والحيرة فى نفوس الآباء ٠ وآضاع العيال ما حفظوه من

القرآن • وأفدح من هذا أن الفقيه لزم داره لا يبرحهـــا
وأهمل شعائر الصلاة والأمانة فى الزاوية •

وبديهى أن سمع السيد العزيز بما حدث فى الكتـاب
والزاوية فأمر باحضار الفقيه اليه •

قال المرافقون للفقيه للسيد :

ــ وجدناه معتكفا فى ركن مظلم من الدار ، وكانت على حال بشع من القذارة والفوضى • لم نجد عنـده طعـام أو شراب الا بعض كيزان ذرة ناشفة وبعض ماء فى قلة بجوار الباب •

تفحص السيد الفقيه الممدد على الأرض من الاعياء بعين خبير • خاطبه فلم يرد عليه • قال السيد متمتما كلاما لم يفهمه أحد من الحاضرين :

ــ أهلكت المسكين عصارة الكبد السوداء •

ثم عاود كلامه للفقيه بصوت عال :

ــ ألهذا الحد تطلب الموت يا شيخ الكتاب ؟

وهنا أجاب الفقيه بنبرة تقطر حزنا وكآبة :

ــ وأين الموت يا مولاى • عز على كل شىء حتى الموت •

ابتعد السيد عن الفقيه واتجـه الى الغـرفة الملحقـة بالديوان • غاب فيها قليلا ثم عاد وفى يده كأس فيه شراب بنفسجى اللون • كان الفقيه عطشانا فشرب ما فى الكأس فى مرة واحدة • قال السيد للمرافقين للشيخ :

ــ خذوه وأكرموه ، فلن يعز عليه شىء بعد الآن •

فهم الحاضرون الشطر الأول من كلام السيد ، أما الشطر الثانى فلم يفهمه الا الفقيه الذى يعلم فاعلية الكلمة •

تعهد القوم بالعناية بالفقيه الى أن يبرأ من حالة الحزن

واليأس التى ألمت به . أعادوا اليه زوجته الشابة لتقوم على خدمته . ساعدتها الجارات فى تنظيف الدار وأمددنها بكل ما يلزم من طعـام وشراب ، وحتى البخـور . ودعا الجميع لفقيههم الطيب بالشفاء العاجل باذن الله .

وجاء الشفاء التام فى بضعة أيام . سمع العائدون من صلاة الفجر صياحا فى دار الشـيخ فهرعوا اليهـا ليتبينوا الخبر . انتقل سيدنا الى رحمة الله .

ذكر عن فلاحى ذلك الوقت أباطيل كثيرة ليس منها ، على التحديد ، نقص الذكاء .

تقاربت الآذان والأفواه ليلة مأتم الشيخ الفقيه وعرفت الحقيقة : انه شراب البنفسـج اللعين الذى أمات أم عويس والشيخ ادريس والمقدس لوقا ثم الشيخ الفقيه ، أو عجـل بموتهم . وطبيعى ، كما أنه من الحكمة ، ألا يسأل السـيد أو حتى يعاتب على ما فعله بالضحايا المساكين .

مر بعض الوقت والحـوادث الأربعـة راقدة تتقلب فى الذاكرة . ولم يملك القوم الا الرضا والقبول . استمرت الحياة تسير بهم كما كان مقدرا لها أن تسير . شقوا طويلا وسعدوا قليـلا . كان يقنعهم أن الفقر والجهـل نعمـة . والشقاء والعناء نعمة .

كان متوسط عمر انسـان ذلك الوقت خمس وأربعين سنة . وهو عمر طويل اذا قيس بشواغله وما يستطيع عمله . من ينج من الأطفال من الموت ، وكانوا ينسلون ويموتون بكثرة ، يذهب الى الكتـاب . فلا يأتى عليه عامه العـاشر الا ويكون قد كبر وتعلم ، وعليه أن يزرع ويفلح . قليلون يحفظون القرآن ويكتبـون ويحسـبون ، ينصرفون لأعمال

الكتابة فى الدواوين · أو فقهاء فى الكتـاتيب وأئمة فى المساجد والجوامع · وقليلون من عملوا فى غير الزراعة ، والأقل زاولوا التجـارة فى حوانيت · وكان عدد كبير من شباب القرى يؤخذ للخدمة فى الجيش داخل وخارج البـلاد ولا يعود معظمهم ·

اذا بلغ الفتى الرابعة أو الخامسة عشر اكتملت رجولته وتزوج · وتكون الفتاة فى الثـالثة أو الرابعـة عشر على الأكثر · ويبقى بعد ذلك أمام غالبية الفلاحين ثلاثون عاما أو يزيد يتمرسون فيها بالحياة مرها وخلوها · وما كانت الحياة فى نظرهم الا طلعة شمس بعد طلعة شمس · كانوا يكهلون فى الثلاثين ، ويشيخون فى الأربعين ، ويموتون فى منتصف الأربعين أو بعـدها بقليل · والبعض ، قليلـون ، يعمرون الى سن الستين أو السبعين أو أكثر · كان، لزواجهم المبكر ، بين الجيل والجيل خمسة عشر عاما · وكان متوسط عمر الفرد ثلاثة أجيال يفرح قبل نهايته بزواج أحفاده · أما المسنون فكانوا يعمرون خمسة وستة أجيال ·

ولـكن أشـياء غريبـة جرت وراء ستار بعد الحوادث الأربعة · أصبح المسـنون يترددون على السراى للتشـاور والحوار مع السيد · وهذا أمر لم يكن فيه غرابة أو خروج عن المـألوف ، الا أن كلامهم كان يدور حـول ما فعل الدهر بهم · حملـوا الى السـيد شـواغلهم بهمومهم وأوجاعهـم وأمراضهم ، وما يسببه الفراغ والوهن لهم ·

ـ كنا الى سن الخامسة والأربعين نروح ونجىء خفـافا نشاطا · نعطى ونأخذ بلا عناء · عملنا وشقينا ولو بالكفاف ولم نتعب أبدا أو نتذمر · كان الغد دائما أفضل من الأمس · نستمرىء العيش ولو على كسرة خبز وبعض الأدام · تزوجنا

مثنى وثلاثا ورباعا فما زهـدنا الحب · تمتعنـا بالصـحة والمتعة الحسية وما وهبنا الله من نعم ، ثم زالت جميعها كما تزول الشـمس عنـد الغـروب · كم من ذنوب اقترفناها وأملنا أن يغفرها الله لنا ، ثم انقضى العمر وبقيت الذنوب متراكمة أمامنا ولا غفران · تؤرقنا الذكريات ولم يبق لنا الا الذكريات · نتمنى أن تعيدنا الحياة الى شبابنا ونأسـف على ضياعه ، وفى نفس الوقت لا تعنينا الحياة وقد شـبعنا منها ·

وكان المخرج لحيرتهم وزهدهم فى الحياة عندهم وعنـد السيد واحدا : الخروج من الحياة · هذا ما كان يوحيه اليهم فيجد عندهم ميلا وقبولا ·

ــ تناولوا شراب البنفسج، وبعد أيام ينتهى كل شىء ·

كان عندهم الاستعداد بداءة لتقبل فكرة العدم ·

عم الخبر القرية الوادعة ولم يعد خافيـا عـلى أحد · السيد عنده الخلاص من الوجود اذا أصبح الوجود ولا طائل وراءه ·

تزايد باصطراد عدد الشيوخ الذين أقبلوا على تنـاول شراب البنفسج ولم يذهب الى السيد لهذا الغرض أحد من الشباب أو الرجال · كانوا مشغولين بتكلف أسباب المعيشة ·

ترددت العجـائز في أول الأمر فى الذهاب الى السراى لتناول شراب البنفسج · ربما لكونهن أعقل وأكثر تمسكا بالحياة من الشيوخ · ولكن سن اليأس والترمل والاغتراب دفعهن فى النهاية الى طلب الخلاص على يدى السيد · وجـد السيد فيهن ممانعة أكثر مما وجدها فى الشيوخ · وارادة أقل · وجد منهن تمنعا ورغبة ·· حتى مع الموت ·

عجيب حقا ما حدث فى قرية ابسيس منـذ ألف عام ·

أصبح موت المسنين أمرا عاديا ومألوفا للجميع . جرت الأمور خفية ثم جهارا . بالقطعة ثم بالجملة . كل شهر ثم كل أسبوع ثم كل يوم . ولم يمر عامان أو أربعة على الأكثر حتى خلت قرية ابسيس من المسنين . وكان تقليدا ، اذا تعدى أحد الخامسة والأربعين وقد ضاق بأمراضه وشواغله وهمومه ذهب الى السراى ومنها الى الدار الباقية .

قد يتبادر الى الذهن أن خلو القرية من المسنين أضفى عليها جوا من الكآبة والحزن أو الحسرة والندم . ولكن ماحدث كان عكس ذلك تماما ، اذ تحول مجتمع القرية الى مجتمع فتى يعمه النشاط والعمل الدؤوب . تحولت الأعوام الى ربيع وصيف دائمين وانقطع الخريف والشتاء . استمتع الرجال والنساء بأسباب الحياة ولذ لهم رحيقها دون خوف من المستقبل وما يخبئه القدر . اذا أصابهم مكروه حمدوا الله ، واذا أصابهم فرح حمدوا الله وغلوا فى فرحهم . فاذا لم يكن هناك فرح أوجدوه ليفرحوا . حتى اذا بلغ أحدهم أو جاوز الخامسة والأربعين وأحس بادبار الدنيا عنه تناول شراب البنفسج دون تردد . وعظم شأن السيد العزيز وامتد صيته الى الأزمة المجاورة حتى وصل الى القاهرة .

فى ذلك الوقت كان يحكم مصر أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله . سمع الحاكم بأمر الله بما كان يجرى فى قرية ابسيس ، وتعجب ، وهو الذى كانت فى سيرته متناقضات كثيرة . أرسل أحد قواد الجيش ممن يثق بهم ليستطلع بنفسه الخبر :

ــ اذا تحققت من الرواية فلا تعد الا ومعك السيد العزيز .

لبث القائد الرسول ومعاونوه وعساكره فى القرية

السبعيدة أسبوعا وكأنهم فى نزهة يمرحون • لم يجدوا فى الأمر سرا ليتحققوا منه • وآخيرا عاد ركبهم وفى مقدمته سيد القرية والزمام •

دخل الركب القاهرة من باب النصر تعظيما لقدر السيد • استضاف أمير المؤمنين ضيفه الكريم فى القصر الشرقى قصر الخلافة • سمرا كل ليلة الى وقت متأخر واطمأن كل منهما للآخر • وفى ليلة خليا فيها لبعضهما سأل آمير المؤمنين السيد العزيز عن حكاية قريته السعيدة • قال السيد للخليفة :

ــ لا غرابة فيما سمعت ويحدث يا مولاى •

وهل سمع قائد الفيلق شكوى من آحد رعاياكم فى ابسنيس ؟

ــ حقيقة يا أخى العزيز ، لا •

ولكن ما غرضكم من قتل شيوخ وعجائز آبرياء ؟

ــ مولاى آمير المؤمنين العظيم ، ان الواحد منا يولد ويعيش ثم يموت بغير ارادته • ولكن الوجود لا يسير بنا ، أو معظمنا ، وفق هوانا ورغبتنا • اذا تآخر الموت عنا تمنينا أن نموت وقد شبعنا من الدنيا وقد استنفذت غرضها منا • ولو تأخر الموت عنا لتمنى ثم دعا آولادنا آن نموت لأننا نصبح عالة عليهم • ان رقعة الأرض وغلتها محدودة ، وأولادنا يريدون أن ينعموا بما نعمنا به • ليس لأحد حياتان فى هذه الدنيا • المسألة اذن : هل نموت سعداء وبارادتنا ، أم ننتظر الموت فى عناء وشقاء •

أجاب الحاكم بأمر الله وكان محبا للفلسفة والحكمة ،

ــ فهمت ياسيدى العزيز • قد تكون الحكمة فيما تقول •

تشجع العزيز :

ـ أعتقد يا مولاى أن الحق معى ، لأن رعاياكم فى أبعديتى يعيشون الآن سعداء ٠

ألا يكفى هذا دليلا على صدق حجتى ؟

قال الخليفة متعاطفا مع السيد :

ـ ولكن قل لى يا حكيم، كيف واتتكم هذهالفكرة الخيرة ؟

ـ أنسيتم يا مولاى أنى تعلمت فى دواوين الحكمة التى أنشأها جدكم العظيم المعز لدين الله ، وانى شاركت مشاركة فعالة فى انشاء دار الحكمة تحت رعايتكم ؟ ان من يقرأ ويدقق فى البحث يعرف الكثير من حكم الأقدمين ٠ كان الشباب والقوة حلم البشرية منذ الأزل ٠ ألم تسمعوا عن القرية السعيدة حلمالمصريين القدماء والاغريق ثم الرومان٠ هل غاب عنكم أن مصر مهد الحضارة والأسرار ؟

ـ ولكن أمير المؤمنين لا يرضى أن تزهق أرواح بغير ذنب ٠٠ « ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق » صدق الله العظيم٠ ثم ألا تخشى أن يسرق منك مزيجالبنفسج أو تركيبته فيعم القتل والفوضى البلاد ؟

ـ لا قاتل ولا قتيل فى هذه التجربة يا مولاى ٠ صحيح انى فتحت الباب وأنرت لهم الطريق لصالحهم والصالح العام ، وهذا ليس جريمة بل عمل خيرى ٠ ان المسنين يعلمون أن العطار لا يصلح ما أفسده الدهر ، فماذا عليهم لو تخلصوا من عبث وجود متأخرة ٠

الحقيقة يامولاى ان الشراب الذى أقدمه بنفسى للمسنين التعساء ليس فيه سر أو تركيبة أو سم من أى نوع ٠ انما هو شراب عادى فيه عطر البنفسج ٠

ـ ولكن ، ما الذى يميتهم يا عزيزى ؟

ـ يموتون يامولاى لأنهم يتمنون الموت ٠ اعتقدوا أن فى الشراب خلاصهم ٠

عاد السيد العزيز موثقا الحزام الى أبعديته · استقبله أهل القرية والزمام استقبال الظافرين · كان منظرهم يسر العين والخاطر ، فكلهم سعداء اشداء أقوياء · أمر باقامة الأفراح والولائم شهرا كاملا أمام السراى · « رقصت فيها الغوازى وأنشد المنشدون ولعب الحواه وتبارى الفرسان ، وانتهز النـاس الفرصـة فغلوا فى فرحهم ومرحهم وعقدت الكثير من الزيجات » ·

واستمر الحال فى قرية الشـباب والرجال مـدة عشرة سنوات · الى أن جاء يوم علم فيه أن السيد العزيز أنوجور رحل عن القرية الى الأبد · قيل فيما بعد أن الحاكم بأمر الله دس له رجلين اغتالاه ثم أخفيا أثره · ولم يحزن عليه أهل القرية بقدر حزنهم على ضياع شراب البنفسج وكانت فيه سعادتهم وأولادهم من بعدهم ·

أتلف السـيد الجـديد كل محتـويات الغـرفة المتصلة بالديوان · قال السيد الجديد لأتباعه بعد أن فرغوا من اتلاف ما فى الغرفة وأراقوا ما وجدوا فيها من شراب البنفسـج فى التراب :

ــ عجيب انتهاء السيد العزيز وعمره خمسـة وأربعين عاما ·

عادت الأمور فى القـرية الى ما كانت عليه قبـل بدء التجربة المثيرة · ظهر فيها شيوخ وعجائز وأخذ عددهم فى الازدياد · الى أن عاد الى القرية طابعها الأول كبقية القرى · ولم يبق من أسطورة القرية المثالية الا اشارات عابرة هنـا وهناك فى سفر أو آخر من الأسفار ·

# دفاع عن الفن

«الاسلام لايشجع على نظم الشعر والغناء وأعمال الموسيقى والرقص والتصوير النحت ، وكل ما يلهى النفس عن ذكر الله » ٠

قيل لنا هذا ، أو هكذا فهمنا منذ نعومة أظفارنا : الاسلام يتعارض والفن ٠ ولكنا تعلمنا كل هذه الفنون فى المدارس باختلاف أنواعها ، وأحببناها كما أحببنا الاسلام ٠ ولم تجد النفوس المتفتحة تعارضا بين الدين والفن ، بل اهتدينا الى أن القائلين بذلك يسيئون الى الاسلام أكثر مما يسيئوا الى الفنون ٠ الفن من المعنويات ، ولا غنى لانسان متحضر أو بدائى عن المعنويات ٠ موضوع معاد وقديم ، ومع ذلك فالفنون تملأ الحياة بهجة ومتعة ولم تؤثر على مكانة الاسلام فى القلوب ٠

وأنا ، كمعظم الناس ، لا صلة عملية لى بالفنون ولكنى أحبها وأتذوقها، وليس كل المتذوقين للفنون نقاد متخصصون وانما من حق المتذوقين للفنون الادلاء بآرائهم عن أى

نــوع من أنــواع الفنــون ماداموا يتذوقونهــا • من ذلك عندى فن الموسيقى والغناء ، فلى فهم متواضع وحب لا يخبوا بهذين الفنين وأعالج بهمــا بعض مرضاى • يقول النقــاد المتخصصون أنه لايوجد فى مصر فن موسيقى أو غنائى يدانى المستوى الراقى ، ويعنون المستوى الغربى ، وانما هما عبارة عن تراكمات من عهود الضعف الزائلة ولم يتطوروا ، ولهذا فهما لا يثريا الوجدان والذوق المصرى العصرى وخاصة عند المثقفين ، وخاصة فى عصر التكنولوجيا الذى ساد العالم • ويغالون فيقولون ان ما تســمعه من اطراء للموســيقى أو الغناء المصرى انما هو من صنع دعاية غير هادفة وترويج بضاعة وارضاء خواطر • ولكننا نثق فى النقاد الهادفين ونصدقهم ، حتى لو كنا نستمتع أحيانا ببعض الموسيقى والألحان والأغانى المصرية ، لأن النقد محاولة بناءة لرفع مستوى الفنون •

عندنا الآن فى مصر كل أنواع الفنون فى اختصار شديد لمن يبحث عنها ، وهى ليست مع الأسف متاحة الا للمثقفين الصفوة ، الا الموسيقى والغناء فهما متاحان للجميع • بدا فى أوائل الستينات أننا مقبلون على « نهضة » موسيقية غنائية تبشر بالخير ، ثم أصابتنا نكســة حرب ١٩٦٧ فانهــارت المسيرة • ومازلنا ننصهر فى بوتقة الاشتراكية ، وعنــدما يتم انصهارنا ، ربما بعد جيل أو جيلين ، نأمل أن يتم تبلور الابداع الموسيقى الغنائى وينمو الى المســتوى المرجو له • ان الشعب الذى أنجب كبار الموســيقيين والمغنيين منــذ أن تعرضت مصر فى منتصف القرن المــاضى لتيــار الثقــافة الغربية ، أمثال عبده الحامولى وسلامة حجازى وداوود حسنى وصالح عبدالحى والشيخ محمد رفعت وأم كلثوم وعبدالوهاب

وغيرهم الكثير ، لقادر على انجاب من هم أقدر وأعظم منهم على تطوير موسيقانا وأغانينا ٠

عزاؤنا أننا تقدمنا عن ذلك العهد ، فعندنا الآن موسيقى وألحان متطورة « خفيفة الظل» تستهوى الشباب على غرار موسيقى « البوب » ٠ كان الأطفال فى الماضى يغنون أغانى مشاهير المطربين دون أن يفهموا كلماتها ومعانيها الجادة الحزينة ، أو يرقصوا على نغمات « الواحدة والنصف » على ما فيها من خلاعة لا تليق بالحياة فى سنهم، أشياء لا يفهمونها ولا تربى ذوقهم الفنى الناشىء ٠ انتهى ، نرجو الى غير رجعة ، عهد التطريب لساعات الذى كانت رائدته السيدة أم كلثوم ٠ وتعودت آذاننا على سماع الأنغام السريعة « العربية غربية » وبتنا نتوق الى سماع الكثير منها ٠٠ بل الى الفنان الموهوب الذى سيخطو بالموسيقى والغناء خطوة واسعة بعد التى خطاها محمد عبد الوهاب ٠ فى هذه الأيام تكاد الموسيقى المصرية تنحصر فى مجال المقامات الشرقية ، يقال أن عددها ١٤٤ مقاما ، وموسيقى الرقص « الشرقى » والمواويل والموشحات ، بجانب ترنيم القرآن ، ثم الألحان « الفرانكو أراب » ٠ ومن حسن الحظ أن الاذاعة والتلفزيون أحدا من الأغانى الهابطة التى كانت سائدة قبل وجود الاذاعة ٠

فى أوائل الثلاثينات ذهب عبد الوهاب ليأخذ رأى ملك الكوميديا فى ذلك الوقت الأستاذ نجيب الريحانى فى انشاء مسرحا غنائيا ٠ أشار الكوميدى الفنان على المغنى الناشىء الموهوب أن يلتزم بالأغنية الفردية ( المونولوج ) لأنها لم تبلغ بعد على أيامهما الى المستوى الرفيع ٠ قال الممثل

للمغنى ، كما روى المغنى فيما بعد ، آن الأغنية الفردية المصرية لم تنجح بعد و «لم تأخذ الليسانس» «ومازلنا بعيدين جدا عن الأوبريت » • كانت نصيحة الكوميدى فى محلها وعمل بها المغنى الشاب •

الموسيقى والغناء هما الفنان الوحيدان بين ألوان الفنون اللذان يمارسهما العامة بأنفسهم • قد نتذوق جميع أنواع الفنون ولا نستطيع ممارستها الا هذين الفنين ، فكل انسان يمكنه آن « يدندن » بهما فى آى وقت ومكان ، من هنا جاءت أهميتهما فى تهذيب الذوق وترقيق الحواس وتلين العواطف • روجهما الراديو والكاست والتلفزيون • لم يسمع أحد من المعاصرين ، الا الخاصة من الهواة والمحترفين ، الشيخ المنيلاوى وكان فى شهرة عبد الوهاب لأن التسجيل على الاسطوانة العادية لم يدركه • ولولا بعض تسجيلات الشيخ محمد رفعت التى سجلها القليل من الهواة قبل اصابته بالشلل النصفى فى أوائل الأربعينات لما سمع به أبناء هذا الجيل وأدركوا سبب شهرته • كان للشيخ الفنان المبدع ذى الصوت الجميل العميق القرار أسلوب فى ترنيم وتنغيم القرآن يندر أن يتكرر مثله فى مائة عام •

فى تصورى أنه يجب أولا وجود أصوات جميلة متميزة جذابة ذات مقامات عريضة ، عالية ومنخفضة ، لأن الصوت الجميل الذكى يلهم النغم الرائع ، ويطلق الموسيقيون على الصوت العالى « السخن » والمنخفض العميق « القرار » ، على أن القرار فى فن الموسيقى هو النغمة التى تتكرر فى آخر كل جزء من أجزاء اللحن • وأعتقد أن الصوت الجميل جاء أولا ، ثم النغم ، فاذا اجتمع الصوت والنغمة والكلمة توفر

الابداع الفنى • يعرف الموسيقيون هذا فيبحثون عن الكلام « الحلو » أولا ، ليصيغوا منه ألحانا جميلة ، ثم بعد ذلك يعطون « الشغل » للصوت الملائم له • لولا الصوت الجميل لما ترنم المقرؤون بالقرآن وجودوه تجويدا •

اذا أردنا شرحا لتاريخ الموسيقى والغناء الحديث فى مصر ، كمدخل للوصول الى نتيجة ، وليس على مستوى النقاد ، فلن نجد لهذا الغرض موضوعا أشوق من تاريخ الأستاذ محمد عبد الوهاب • يطلق عبد الوهاب على تاريخه الفنى كلمة «المشوار» • تذكر الموسوعة العربية (ص١٦٦١) عن عبد الوهاب :

محمد عبدالوهاب (١٩١٠ـ     ) مغن وموسيقار مصرى ولد بالقاهرة ، بدأ يغنى فى المسرح ، تعهده أمير الشعراء أحمد شوقى برعايته ونظم له ، انصرف تدريجا الى التلحين فأحدث نهضة موسيقية عظيمة ، اشترك فى أفلام ، سار على نهجه فى التلحين والغناء جمهرة الفنانين »•

لم يجتمع لمغن وموسيقار فى تاريخ الشرق العربى ما اجتمع لعبد الوهاب لتحقيق شهرته العريضة من أسباب هى قدر ومصادفة •

ولد عبد الوهاب فى مصر ، فى أوائل هذا القرن ، حينما كان الاقطاع والطبقية فى أوج مجدهما • لم يولد وفى فمه ملعقة ذهبية ، كان جده ثم والده « خادمى » مسجد الشيخ الشعرانى بحى باب الشعرية ، وقيل انهما ينتسبان الى الشيخ بنسب ، ولكنه ولد وفى حلقه حنجرة ذهبية • فى أسرة متواضعة ، فى حى شعبى، باب الشعرية ، لا يبعد كثيرا

عن شبيهه حى الحنفى الذى ولد فيه الشاعر أحمد شوقى الذى ولد قبل عبد الوهاب بأربعين عاما . لم يدخل الطفل عبد الوهاب مدرسة لأن التعليم فى ذلك الوقت كان باهظ النفقات بالنسبة لأسرة فقيرة ، فأتجه الى العمل الحرفى ولم يستمر فيه ربما لقصر نظره الشديد .. يقول عبد الوهاب عن نفسه أنه « ميوبيه خالص » وظل يتحرج طول حياته من رؤية الناس له وهو بالنظارة السميكة جدا ولأنه شديد الذكاء ، ربما تعويضا لقصر نظره الى حد العمى ، اكتشف فى نفسه شدة التخيل بجانب حلاوة الصوت . أراد الأقربون أن يوجهوه الى قراءة القرآن لعله يصبح مثل الشيخ محمد رفعت أو على محمود ، فتدرب عبد الوهاب الطفل على سلامة النطق ولمس عذوبة الكلمة ، ولكنه رفض أن يكون فقيها . أدرك الطفل المتواضع النشأة أنه غنى بصوته . تلك القدرات والمعوقات شكلت منه غلاما هادىء الطبع ، مرهف الحواس ، متأملا ، مدركا لموهبته الصوتية والسمعية ، ثائرا على وضعه الاجتماعى الطبقى ، فاتجه مندفعا الى من هم أثرى من الفقهاء وأعظم شأنا .. محترفى الغناء .. هكذا تشكلت وتكونت شخصية فنان المستقبل .

كم من الموهوبين ولدوا ثم ضاعوا فى غمرة الظروف غير المواتية . ولكن صدفا مواتية تجمعت لاظهار عبدالوهاب واشهاره . مات مغنى الشعب الشيخ سيد درويش فجأة فى سنة ١٩٢٣ فترك الميدان شاغرا ، كان الشيخ سيد لا يزال شابا ، وقيل مجددا ، اهتم بالأوبريت كسابقه الشيخ سلامة حجازى ، وبتلحين الأناشيد الوطنية . اتجه عبد الوهاب الى المسرح متقفيا خطى سالفيه الى أن أشركته سلطانة الطرب ،

السيدة منيرة المهدية ، سنة ۱۹۲۷ فى مسرحياتها الغنائية ، أيام عز المسرح الغنائى قبل انتشــار الســينما • فى ذلك الوقت تعرف المطرب النــاشىء بالأديب الســاخر الشــيخ عبد العزيز البشرى ، وهــذا تأبطه الى « كرمة بن هانىء » بيت الشاعر أحمد شوقى • كان عبد العزيز البشرى عضوا فى اللجنة التى شكلت ســنة ١٩٢٦ باسم « اللجنة العــامة لتكريم شوقى » وناديت بتنصيبه أميرا للشعراء فلبى نداءها الشرق كله • كان شوقى شاعر غنائيا استطاع عبد العزيز البشرى أن يقدم اليه المطرب المــوهوب الذى كان الشــاعر يبحث عنه • تعهد شوقى فى سنينه القليلة الباقيــة ، توفى شوقى سنة ۱۹۳۲ ، عبد الوهاب بالصقل الاجتماعى والفنى حتى خلق منه ، فيما يبدو وتحــكى الروايات ، الفــارس الجنتلمان • تحول عبد الوهاب فى بضع سنوات قليلة من مغن شــعبى يغنى أغان هابطــة مثل « فيك عشرة كوتشينة فى البلكونة وارخى الستارة اللى فرحنا أحسن جيرانا تجرحنا » الى مطرب الملوك والأمراء حينما غنى أمام الملك فؤاد سنة ۱۹۳۱ أغنيــة « فى الليل لما خلى » من نظم أحمــد شــوقى نفسه • أصعد شــوقى عبــد الوهاب ، بامكانياته المطبوعة المكتسبة ، الى سماء الفن راكبــا صــاروخا ، بعد أن امتص المغنى كثيرا من خبرات الشــاعر وخصــاله •• حتى عقدة الوسوسة التى اشتهر بها المغنى فيما بعد • أقدار وصدف •

ولننظر فى هذين العاملين ، القدر والصدفة ، لنتبين كيف طور عبد الوهاب الموسيقى والأغنيــة المصرية • لولا صــوت عبد الوهاب الجميل الشجى لما كان الفنان ( قدر ) • يقول عبد الوهاب عن صوته : وبحق ، أنه صوت شــجى ، وشجى فى اللغة الصــوت المطــرب المذكر للحبيب المشــوق

والمهيج للحزن · أدرك عبد الوهاب بذكائه المفرط ( قدر ) أن قارئى القرآن يطربون الناس بحلاوة صوتهم وحسن أداء القراءة ، مع أن القرآن ليس شعرا موزونا مقفى ، ومن المعروف أن الموسيقى الشرقية باقية على حالها طالما أن مقرئى القرآن يترنمون به بتلاواته العشر ·· واذن ، فعبد الوهاب يمكنه بصوته الشجى « السخن » أن يشجى الناس بأى كلام سواء كان شعرا أو نثرا ، ومن هنا اكتشف مقدرته على التلحين · يقول عبد الوهاب أنه جرب مقدرته على التلحين بخبر قصير فى جريدة يومية عن جريمة وقعت فى الأرياف ، ولحنه بالقليل مما كان يعرفه من مقامات · قال صحفى معروف ، ناصر الدين النشاشيبى ، أن عبد الوهاب اذا تكلم فكأنه يغنى ، ويغنى كأنه يتكلم · اكتسب عبد الوهاب شهرته العريضة بحسن أدائه لأغانيه ·

صوت شجى ، وذكاء مفرط ، وحسن أداء ، وتراث موسيقى شرقى لم يتح للعامة منتشرا الا من خلال عبدالوهاب· واكب احترافه للغناء انتشار الفونوغراف ثم الاذاعات الأهلية ومن بعدها الحكومية سنة ١٩٣٤ ، وكانت هذه عطشى لترويج بضاعة عبد الوهاب باسطواناته وصوته شخصيا · كم من المطربين العظام القدامى نسمع صوتهم فى الاذاعة مرة كل سنة ، وكم هى الأيام التى لا نسمع فيها صوت عبد الوهاب فى مدى الخمسين سنة الماضية ؟

غنى عبد الوهاب لجيل العشرينات فطربوا له · نقل التراث الموسيقى كله فأثار فيهم الحنين الى الماضى ، ولم يأت بجديد فى الواقع الا الأسلوب الخاص فى الأداء ، استطاع أن يجذب انتباههم بصوته الملائكى الشجى فقط · اعتبروا الأداء الخاص تطورا فى الموسيقى والغناء فطلعت فى دماغ

عبد الوهاب حكاية التجديد ، ولم يكن فى حقيقة مقصده.
« الثورة » على « القديم » . كان معه فى ذلك الوقت مطربون عظام مثل الشيخ على محمود وزكريا احمد وصالح عبد الحى وغيرهم ، التزموا بحرفية التراث ، ربما لأنهم رأوا أن من واجبهم الحفاظ على التراث ، وربما لأنه لم تكن لهم مرونة عبد الوهاب وتطلعه ليكون مختلفا ، وربما لم يكن لهم صوته الفتى . درس عبد الوهاب التراث دراسة واعية متفهمة ، وأتقن العزف على العود ، كما اطلع على الأعمال الغربية ، ليس فقط لاخلاصه لصنعته واتقانها ولكن ليتمكن من الثورة على القديم . من العجيب أن لغة الموسيقى على اختلاف الشعوب لغة عالمية من حيث تدوينها وقراءتها وعزفها ، كلها تدون فى السلم السباعى ذى السبعة خطوط أو درجات بالاضافة الى خمس درجات اضافية . وكما احترف عبد الوهاب التلحين ، وقال انه ملحن أكثر منه مغنى ، احتضن كلما احتضن عوده فكرة التطوير . فهل كان فى نيته حقا ، وهو الهادىء الطبع ، الذكى ، الحريص على عرشه ، الموسوس ، الثورة على التراث بالمعنى المفهوم من الثورة ؟

لا شىء يجلب النجاح مثل النجاح . استقطب نجاح الحريص على عرشه ، الموسوس ، الثائر على التراث أشعر الشعراء الغنائيين فاكتمل له الصوت والكلمة . وكأن عبد الوهاب أصبح وحيدا بلا سند بعد موت شوقى فحزن عليه حزنا شديدا ظهر ذلك جليا فى صوته وألحانه . ولم يمض عام على وفاة شوقى حتى اكتشف المخرج محمد كريم عبد الوهاب فقدمه الى السينما وبذلك استمر وامتد « المشوار » الفنى ، تطلب دخوله السينما منه مزيدا من « التجديد » ليتفق مع الحركة وموضوع القصة . انقسم فن عبد الوهاب منذ ذلك الحين ، ١٩٣٤ ، الى قديم وجديد ،

كما اشتهر بأنه زعيم المجددين ، واستمرت الأفلام • فى سنة ١٩٤٠ أظلمت الدنيا وركنت لفترة خمس سنوات بفعل الحرب العالمية الثانية فاستغل عبد الوهاب الفرصة وبدأ فى غناء القصائد الطويلة الفصحى والعامية منفردا ، الجندول ، الكرنك ، كليوباترا ثم الحبيب المجهول ، وغنت فى نفس الفترة شريكته فى عرش الطرب السيدة أم كلثوم روائع شوقى ، نهج البردة والألفية فى مدح الرسول • ولم يأتيا بجديد اذا كنا نتكلم عن ثورة موسيقية •

من خصائص الفنان المطبوع آنه لا يتوقف ، وقد يسكن قليلا ثم لا يلبث آن يطلع على الناس بجديد من الابداع • سكن عبد الوهاب ولم يأت بجديد لسبع سنوات بعد الحرب الى أن أدركته ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، فشد أوتار عوده وعاد يعزف عليه بقوة وبكثرة آلحانا « جديدة » ممزوجة بألحان غربية ، فيها ثراء وصنعة وخبرة طويلة ، للثورة ولتوطيد عرشه • لم يعد هناك عبد الوهاب قديم وجديد ، فذلك عهد مضى ، بل الفنان الرائد لمدرسة فى التجديد • شهد عام١٩٦٢ نهاية عبدالوهاب كمغن وسكتت القيثارة بعد آن ضعف الصوت السخن الشجى وانعكس غليظا فى آخر آغنية له لشاعر الشباب آحمد رامى ، ولم يعد هو شابا أيضا ، وكانت « هان الود » •• وبقى لعبد الوهاب المجد والريادة الموسيقية • هل جاء عبدالوهاب بجديد حقا؟ الجواب نعم ، يشهد بذلك من ساروا على دربه من الملحنين الشبان مثل الطويل والموجى وبليغ حمدى • هل آحدث ثورة فى التلحين ؟ الجواب متروك للمتخصصين والأجيال القادمة •

مما لا شك فيه آن عبد الوهاب آضفى على الموسيقى والغناء الشرقى صنعة وثراء ، هارمونى ، وتعقيدا فنيا ،

واقتباسا من الموسيقى الغربية : كان عدد أفراد «التخت» فى مطلع ظهوره الفنى أربعة : عود وكمان وقانون وآلة ايقاع ، بخلاف المذهبجية أو السنيدة ، فأصبح عددهم بفضله أوركسترا يملأ خشبة المسرح ٠

الواقع أنى لم أقابل عبد الوهاب ولا مرة واحدة ، ولم أعجب به الا من انتاجه المتميز الغزير ٠ سمعه أبى من قبلى وأعجب به ، ولكن حبه لعبد الوهاب انتقل لغيره ، السيدة أم كلثوم ، لما لمس فى نبرات صوته وألحانه الحزن فى أوائل الثلاثينات ، ربما لوفاة شوقى ، وربما لأن الحزن والشجن هما النغمتان الحزينتان اللتان يميل اليهما المصريون ٠سألت طالبا يحب ،كمعظم الطلبة والشباب ،أغانى « البوب » وأمثالها من الألحان المصرية الخفيفة التى نسمعها فى « الديسكو » ما رأيك فى عبد الوهاب ؟ أجاب الطالب :

ـ ان صوته جميل ولكنه حزين أعتقد انه ما كان لينجح لو بدأ فى عصرنا ٠

أسمعته موال «اللى انكتب على الجبين لازم تشوفه العين» ثم آخر أغانى عبد الوهاب وهى « القيثارة » للشاعر الطبيب ابراهيم ناجى ، ولكن الطالب أصر على رأيه ، وأضاف أن الايقاع بطىء ٠

هل أصبحت موسيقانا الشرقية ، فى رأى غيرالمتخصصين، شيئا مضى وتراثا غير ذى موضوع ؟ هذا هو لب القضية ٠ حيرة بين قديم وجديد ٠ أصالة ومعاصرة ، مرحلة تلاقى ثم انتقال الى مستقبل فى عالم أصبح متصلا بين شرقه وغربه ٠ حيرة الوجدان الشرقى مع الفكر الغربى ٠ نعزى أنفسنا بقولنا أن فلانا وضع لبنة فى صرح البناء الفنى ثم يتعطل

البناء بحجة الحفاظ على التراث · خطا التطور الفنى الغربى خطوات واسعة منذ عهود المماليك والأتراك ، فهل نحن واقفون « محلك سر » ؟ سننتظر من يأتى بجديد ليلائم ويخدم معنوياتنا الجديدة المضافة ، وآخشى اذا طال الانتظار أن ننتقل بكليتنا الى الغرب والتراث الغربى ، وقد نفقد بذلك تراثنا الفنى الذى لم يعد يناسبنا ·

هذه الصيحة نسمعها كل يوم من مختلف المشتغلين بالفنون ، ولكن ماذا عن الشعب المتلقى لقديم من الألحان لا تفى بالغرض ، محورها مازال عن « اللوعة والحنين والفراق » وجديد غريب لا يسمن ولا يغنى من جوع ؟ قرأنا الشعر غير العمودى والقصة القصيرة ، ورأينا التصوير السريالى والتكعيبى ، وشاهدنا الأوبرات والباليه ، وسمعنا موسيقى الجاز والبوب وال « بنك » ، فلم يشف ما بنا ، كما لا نرضى أن نتمسك بالتراث والعمل الموسيقى كما هو ·

قد نكون وما زلنا فى فترة انتقال وتطور دون أن ندرى · ولكن ينقصنا من يأتى فيحل لنا الخيوط المتشابكة المتقاطعة · وهل نملك الا الانتظار ؟

## البلبل و الوردة
## للأديب أوسكار وايلد

ونحن مازلنا فى دفاعنا عن الفن ، لابد وأنك استمعت مرارا الى أغنية الأستاذ محمد عبد الوهاب « بلبل حيران » لأمير الشعراء أحمد شوقى · أكاد أوقن ، على الرغم من معارضة بعض الكتاب ، أن الشاعر نظم أنشودته العذبة الحزينة « بلبل حيران » مستوحيا قصة « البلبل والوردة » للأديب الايرلندى الأصل أوسكار وايلد (١٨٤٨ ـ ١٩٠٠)· فلن يفهم أحد ، فى اعتقادى ، موضوع ومضمون الأغنية ، التى نظمها شوقى بالعامية سنة ١٩٢٨ خصيصا ليغنيها عبد الوهاب ، الا اذا كان قد قرأ مسبقا قصة وايلد ·

وقد يكون الابداع فى هذه الحالة من باب توارد الخواطر ، وهذا ليس غريبا على الشعراء المبدعين · يطلع الشاعر على عمل لغيره فيتأثر به تأثرا عميقا ثم ينساه تماما ، يحبسه داخل لا شعوره الخلاق ، وبعد فترة طالت أو قصرت نجد أن هذا الشاعر قد «خلق» عملا مشابها أو مطابقا للعمل الذى أطلع عليه فيما مضى ثم نسيه ·

كان شوقى ( ١٨٦٨ ـ ١٩٣٢ ) شاعرا غنائيا أقدر منه

قصاصا ، وكان وايلد قصاصا ويحلو له أحيانا نظم الشعر الجيد • ظهرت لوايلد قصة «البلبل والوردة» ضمن مجموعة قصص خفيفة سنة ١٨٨٨ • كان وايلد كثير التجوال فى غرب أوربا وجنوبها ، ثم استقر فى باريس لمدة سنتين ، لأسباب خاصة ، الى أن وافاه أجله فيها سنة ١٩٠٠ • وكل أعمال وايلد ترجمت الى الفرنسية بعد ظهور كل منها مباشرة •

دخل شوقى مدرسة الحقوق بجامعة مونبيليه سنة ١٨٩٢ ثم واصل دراسته فى السوربون بباريس الى سنة ١٨٩٧ ، حيث أطلع على أعمال كبار أدباء الغرب السابقين والمعاصرين له ، ومنهم أوسكار وايلد ، وكان وايلد علما من أعلام الأدب الكلاسيكى فى وقته • أولع شوقى بالمسرح وتاريخه ، وبالنقد وان لم يحب فيما بعد نقد الأدباء الشبان العرب لأعماله •

يقول بعض الأدباء أن أغنية « بلبل حيران » رمزية • البلبل يرمز الى المحب ، والوردة ، بداهة ، للحبيبة ، وأعتقد أن هذه رمزية واهية ، لا تنبثق عن لا شعور شاعر مطبوع كشوقى • اذا كان فى كينونة الحبيبة هلاك المحب وموته ، الا اذا كنا فى حالة حرب أو ما أشبه ، فبئس الحبيبة ! الواقع ، كما سيلى فيما بعد ، أن البلبل ، سواء فى القصة أو الأغنية ، لم ير الوردة وهى يانعة نضرة الا وهو يحتضر •• وكانت على عينيه غشاوة •• ثم أصبح جسدا على الأرض ملقا ••

ان عقدة الدراما ، المأساة ، فى حكاية البلبل والوردة هى انكار البلبل لذاته وتضحيته بحياته •• فى سبيل حب

تافه ٠٠ لا تســـاوى فائدته حتى نصف فائدة علم المنطق بالنســبة الى طالب شــاب ٠ أما المغزى الذى قصــده وايلد فهو أن التضحية بأغلى شىء فى الوجود « الروح » من أجــل أسمى شىء فى الوجود « الحب »قد تصبح عبثا وتذهب هباء ٠ الواقع أنه لا توجد رمزية فى القصة ، لأن الأدب الكلاسيكى الغربى كان فى تلك الأيام بعيدا عن الغموض والرمزية ٠ كتب وايلد لصديق له خطابا يقول فيه :

« ٠٠ انى أخفض تماما من شــأن الطالب والفتاة فى القصة ، وأشيد بالبطل الوحيد فيها وهو البلبل ٠٠ » كذلك أغفل شوقى الطالب والفتاة فى الأغنية ٠

مما نقرأ ونسمع عن شوقى وعبد الوهاب ، اذا تلمسنا الرمزية ، رأى شوقى فى عبد الوهاب البلبــل الصــداح ، وشوقى الصغير ، قال الشاعر المغنى عندما تعارفا :

ــ انت ابنى ٠

وكان شــوقى يحلــو له أن يسمى نفسه ب « البلبل » قال فى « سينيته » وهو منفيا فى اسبانيا :

أحرام على « بلابلة » الدوح
حلال للطــير من كــل جنس

وقال فى عبد الوهاب :

ان فى ظــل بــلادى « بلبـــلا »
لــــم يتــح أمثــــاله للخلفاء
ناحــل كالكــرة الصغرى سرى
صوته فى كرة الأرض الفضاء
يســتحى أن يهتف الفن به
وجمــال العبقــريات الحيــاء

بلبلان رقيقان ، قصيران ، ناحلان . ترى من سيؤرخ للبلبل الآخر الحزين .. بعد عمر طويل ؟ والآن تعال نقرأ معا أغنية شوقى ، ثم نتلوها بقصة وايلد وسأترك للقارىء الحكم فيما زعمت :

بلبل حيران على الغصون
شجي معنى بالورد هايم
فى الدوح سهران من الشجون
بكى وغنى والورد نايم

سكران بغير الكاس    فى مجلس الورد
من عنبر الأنفاس    ومنظر الخد
يبص فوقه    ويبص تحته
يمد طوقه    يشم ريحته
فنن يحطه    وفنن يشيل
وجناح يقوم به    وجناح يميل
بايد الليل    يلعب به
وراه الويل    يا قلبه

مجروح من ساقه ومن طوقه
ما درى بالشوك من شوقه

من دوح لدوح    سهر ونوح
ياليل ده طير    بدن وروح
من فرع غصنه    على الورد مال
وراح يمين    وجه شمال
قال له يا سوسن    يا تمر حنة
يا ورد أحلى    من ورد جنة
مين بالفرح لونك    ومن الشفق كونك

يــا ريحــة الحبــايب ياخـــد المـــلاح
لشـــوكة جمـــالك وضـــعت الســلاح
تبـــارك اللى خـــلق ظـــلك مـــن الخفـــة
واللى كســاك الــورق ولفـــه دى اللفـــة
زى القبـــل ولفــت شــفة عـــلى شـــفة

يا ورد فـــوق لا الجنـــاح
ينهض ولا الجـــرح يــرقى
تشـــوفنى وقــت الصـــباح
جســـد عـلى الأرض مــلقى
أمـــوت شـــهيد الجـراح
ويعيش جمـــالك ويبـــقى

أسمع المغنى الشاعر الغنائى اللحن بتوزيعات مختلفـة حتى اختـار منها الشـاعر اللحن الذى سـجله المغنى عـلى الاسطوانة ، وكان شوقى وعبد الوهاب يعتمدان على التنغيم والتصوير وانتخاب الألفاظ ، ولكن صوت عبد الوهاب هـو الذى أخرجها فى هذا الاطار البديع ٠

## قصة البلبل والوردة

يلاحظ أن الترجمة والتلخيص من عنـدى ، فمعـذرة لوايلد وللقارىء ٠

قال الطالب الشاب :

ـ قالت حبيبتى أنها سترقص معى اذا آتيت لها بوردة حمراء ٠ ولكن لا توجد وردة حمراء فى هذا الوقت من السنة فى كل الحدائق ٠ سـيقيم الأمير حفـلا راقصـا فى الليلة

المقبلة • وهناك ستكون معى حبيبتى • هذا ، اذا أهديتها وردة حمراء • سأحيطها بذراعى ونحن نرقص معا وستضع رأسها الجميل على صدرى • وتضغط بأناملها الرقيقة على يدى • وسنظل نرقص الى أن يتوغل الليل • ولأنه لاتوجد وردة حمراء فى هذا الوقت من السنة ، سأضطر الى البقاء هنا وحدى • سترقص مع غيرى • وينفطر قلبى •

استلقى الشاب على النجيل الأخضر الناعم ، وغطى وجهه بيديه وبكى • سمعه البلبل من عشه فوق شجرة السنديانة وتعجب •

« هنا ، أخيرا وجدت محبا حقا • كم غنيت للحب الصادق ليلة بعد ليلة • والآن وجدته فى هذا الشاب وكنت أتفقده • انه شاحب الوجه الجميل، وقد ختم الأسى على وجهه بخاتمه • ان الحب أمره عجب • انه أغلى من الزمرد والعقيق ، وقد لا يباع ولو بأطنان من الذهب » •

سألت السحلية النحيفة الخضراء ، وهى تجرى هنا وهناك وذيلها مرفوع فى الهواء :

« لماذا يبكى ؟ »

وسألت الفراشة السابحة فى شعاع الشمس :

« لماذا حقا ؟ »

أجاب البلبل :

« يبكى من أجل حاجته الى وردة حمراء » •

وقف البلبل ( حيرانا بين الغصون ــ آغنية شوقى ) ، يفكر فى غرائب الحب ، مشفقا على الطالب الشاب من الحب • فرد جناحيه وحلق فى الفضاء العريض • طار فوق الدوح

كالطيف (من دوح لدوح ــ شوقى) وبخفة حط فوق شــجرة ورد . قال البلبل للشجرة :

« بربك أعطنى وردة حمراء ، وسأغنى لك فى مقابلها أحلى أغانى » .

قالت الشجرة :

« بودى لو لبيت طلبك ، ولكن وردى أبيض » .

شكرها وحلق عاليا ثم حط فوق شجرة أخرى .

« كان بودى تلبية طلبك ، ولكن وردى أصفر » .

شكرها هى أيضا ثم طار بخفة وحط فوق شــجرة ورد نامية أسفل نافذة غرفة الطالب . قال البلبل للشجرة آملا أن تلبى طلبه ، فكل أشجار الورد بلا ورد والفصل شتاء :

« أنبتى لى وردة حمراء ، وسأغنى لك فى مقابلها أحلى الأغانى » .

أجابته الشجرة آسفة :

« حقا ان وردى أحمر . كشعوب المرجان التى تتمايل وتتماوج فى المحيطات . ولكن أضاق البرد عروقى . وقتل الصقيع براعمى . وحطمت العاصفة أغصانى . ولا يمكننى أن أزهر فى هذا الوقت من السنة » .

قال لها البلبل مستعطفا :

« ألا من سبيل الى الحصــول على وردة حمراء . وردة واحدة » .

أجابت شجرة الورد وهى مشفقة على البلبل :

على البلبل :

« هناك طريقة واحدة . ولكنها بشعة . ولا أقدر على قولها لك » .

قال البلبل على الفور :

« بربك قولى فأنا لا أخاف » .

« اذا شئت وردة حمراء ، فيجب آن تتكون بألحانك التى تغنيها للقمر ، وتصبغها بلون دم قلبك · ستغرس شوكتى وأنت تغنى فى صدرك حتى تنفذ الى قلبك · وتستمر فى الغنــاء حتى تزهر الــوردة وتكتمــل · سيسرى دمك فى عروقى ، وتكون حياتك ثمنا للوردة » ·

« ولكن الموت ثمن باهظ لوردة حمراء ، ولا يوجد شىء أعز من الحياة » ·

قالت الشجرة :

« الا الحب » ·

نشر البلبل جناحيه الداكنين وطار عاليا فى الهواء · فوق الجنينة كالطيف · وكان الطالب لا يزال مستلقيا عــلى النجيل الأخضر الناعم ، ولم تجف عيناه بعد من الدموع · قال له البلبل :

« قر عينا · افرح ولا تحــزن · ســتحصل على وردتك الحمراء · وكل ما أطلبه منك مقابل حياتى التى ســأدفعها ثمنا لتلك الوردة هــو آن تخلص فى حبك · وآن تعلم أن الحب أعظم من الفلسفة ، على عظــمة الفلســفة ، ان عطره أزكى العطور ورحيقه آحلى من العسل » ·

لم يسمع الطالب ما قاله البلبل · وحتى لو سمع كلامه ما كان ليفهمه ، لأنه لا يفهم الا ما يقرؤه فى الكتب · ولكن شجرة السنديانة سمعت وفهمت ما قاله الطائر الصغير ·· وحزنت عــلى فراقه · نهض الطالب مهمــوما وســار عبر الحديقة ودخل غرفته · استلقى على سريره ثم لم يلبث أن راح فى نوم عميق ·

( وهنا تبدأ أغنية شوقى )

طار البلبل وحط فوق شجرة الورد · آلصــق صــدره

بشوكة على أعلى فنن فيها ، وراح يغنى • والشوكة تنغرس فى صدره ثم فى قلبه •• أكثر •• فأكثر • سرى دمه من قلبه عبر الشوكة الى غصن الشجرة • وعلى أعلى فنن أخذت وردة رائعة تتكون • ورقة تليها ورقة • ولكل ورقة غنى البلبل أغنية • كانت الأوراق فى أول الأمر باهتة ، كلون الضباب المنتشر فوق صفحة النهر •

والشجرة تقول للبلبل :

« اضغط اضغط أيها البلبل الصغير بصدرك على الشوكة ، والا طلع النهار ولم تكتمل الوردة» •

والبلبل يضغط بكل قوته على الشوكة • عذبت ألحانه الشجية • ألحان مبعثها الحب والألم • غنى لميلاد حب جمع بين قلبين فتيين •

وتكونت وردة فى لون الشفق • والشجرة تصيح بالبلبل:

« اضغط على الشوكة أكثر وأكثر » •

وضغط البلبل بكل ما تبقى له من قوة • شعر بألم حاد يخترق صدره وقلبه • وظل يغنى للحب الذى لا يكتمل الا بالشجن والألم • الحب الذى لا يهدأ ولا يموت •

( عكس شوقى المعنى وقال : مين بالفرح لونك ومن الشفق كونك فيالخيال الشاعر وجمال الشعر ) •

اكتملت أخيرا وردة حمراء يانعة ، أحلى من ورد جنة ( ياورد أحلى من ورد جنة ) • وضعف غناء البلبل وأخذ صوته يخفت • اضطرب جناحاه • رانت على عينيه غشاوة ، وأحس بغصة فى حلقه • أطلق نغمة حزينة أخيرة سمعتها الوردة الحمراء المتفتحة واهتزت طربا لها • فتحت أوراقها لنسيم الصباح المنعش • ونادت الشجرة على البلبل :

« أنظر ، أنظر أيها البلبل الصغير ، ها هى الوردة قد اكتملت » .

ولم تسمع الشجرة الا الصمت ، لأن البلبل كان ملقى على الأرض ميتا والشوكة مغروسة فى صدره .

( وهنا تنتهى أغنية شوقى كما أرادها بـ « أموت شهيد الجراح ويعيش جمالك ويبقى » ) ولكنى أكمل القصة لنعرف نهايتها :

. . . . .

كان النهار قد انتصف حينما فتح الطالب نافذة غرفته المطلة على الحديقة . صاح من الدهشة لما وقع نظره على الوردة الحمراء .

ـ يا لحظى الحسن ! ها هى وردة حمراء أجمل منها لم تر عينى . لابد وأن لها اسما لاتينيا طويلا يتفق ورونقها . ثم انحنى فوق النافذة وقطف الوردة .

أكمل الطالب ملابسه وأسرع الى منزل حبيبته والوردة فى يده . وجدها جالسة فى الشرفة ، فظن أنها تنتظره . قال لها فرحا متلهفا :

ـ قد قلت لى انك سترقصين معى اذا أحضرت لك وردة حمراء . وهأنذا أحمل اليك أجمل وردة رأتها عينى . اذا جاء المساء اشبكيها على صدرك . وستقول لقلبك كم أحبك . ولكن الطالبة قالت تقاطعه :

ـ أخشى أنها لن تلائم لون فستانى الجديد . ثم أن جارى أهدانى أمس جواهر حقيقية ، وكل انسان يعلم أن الجواهر أغلى كثيرا من الورد .

وهنا استشاط الطالب غيرة وغضبا وصـــاح فى وجه حبيبته :

ـ يعلم الله كم أنت جاحدة ٠٠ وأنانية ٠

ورمى بالوردة الى الطريق فسقطت فى مجرى العجلات، ثم داست عليها عجلة عربة عابرة ٠

ـ أنا جاحدة أنانية ٠ اسمح لى أيها الطالب أن أقول لك أنك شديدالوقاحة ٠ ثم نهضت من مقعدها وغادرتالشرفة ٠

عاد الطالب الى غرفته وهو يتأمل :

ـ ما أسخف الحب ٠ انه لا يثبت كعلم المنطق شيئا كما أنه فى أغلب الأحوال لا يجلب الا التعاسة ٠ ويدفع بالمحب الى التملق بالخيال والـوهم ٠ انه شىء غير مجـدى بالمرة ٠ والأفضل لى أن التفت لدروسى ٠

ودخل غرفته : سحب كتابا كبيرا ، نفض عنه الغبار ٠ فتحه ، وراح يقرأ ٠

# فهرس




رقم الايداع بدار الكتب ٤٨٦١ / ١٩٨٧

ISBN ـ ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٤٥٩ ـ ٦

يقـول المؤلف إنـه ليس أديبـا ولا كـاتب قصص . . ولا يـدعى الأدب .

وإنما هو طبيب ومفكر بلغة العلم . . وهى غير لغة الأدب .

فلا تتوقع عندما تقرأ « خواطره » أن تستمتع بأسلوبـه ، ولكن بالأفكار التى أثارتها الخواطر ولا يريدك المؤلف أن تفكر وتتأمل مثلما يفكر ويتأمل . . وما ذنبك ؟

وكل ما يطلبه منك بعد قراءة كل موضوع أن تنساه . وبذلـك يكون قد وفق إلى ما قصد .

كلمة قالها المؤلف تعبر عن فكرة الكتاب وقد تكون عنوانا له :
« هنيئا لمن يرى النفس كما هى . . لا على حقيقتها » .

٢٢٥ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب